وزارة المعارف العمومية

المفصّل
فى تاريخ الأدب العربى
للمدارس الثانوية

تأليف

أحمد الإسكندرى ، أحمد أمين ، على الجارم

عبد العزيز البشرى ، أحمد ضيف

الجزء الأول

القاهرة

طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق

١٩٣٦

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين . وعلى آله وأصحابه ، وكل من تبعهم ممن تهدى بهديه وتأدب بآدابه .

وبعد ، فهذا كتاب المفصل فى تاريخ آداب اللغة العربية ، وضعناه للسنتين الرابعة والخامسة من التعليم الثانوى ، فصلنا فيه بعض التفصيل ما أجملناه فى سابقه "المجمل" وتحرينا — ماواتانا الجهد — تجلية الأدب فى كل عصر فى صورة دقيقة نوعا ما ، حتى يتهيأ للطلاب أن يتمثلوه واضحا ، وأن يتذوقوه بالحس كما يدركونه بالأفهام .

ولقد اعتمدنا أن نشرح العوامل التى دخلت على الأدب فى كل عصر ، والعناصر التى دخلت فى تكوينه وتلوينه حتى خرج على حاله ، واستوى فى صوره وأشكاله ، وأثبتنا الشواهد على ذلك ، إلا ما أغنى فيه "المنتخب" فقد أحلنا فى الغالب عليه .

على أننا لم نقتصر فى الكتاب على مادل عليه المنهج ، بل لقد زدنا عليه من الموضوعات ما رأينا فيه نفعا ، وترجمنا كذلك لرجال رأينا فى الترجمة لهم أجزالا فى الفائدة ، حتى إذا انفسح الوقت للطلاب راجعوها فازدادوا فهما ، وغزروا علما .

وقد توزعنا تأليفه ، وتحملنا عهدته جملة : فقام "أحمد أمين" بتأليف العصر الجاهلى ، و"أحمد الاسكندرى" بتأليف عصر صدر الاسلام والدولة الأموية والعصر الأول للدولة العباسية ، و"أحمد ضيف" بتأليف عصور الأندلس ، و"على الجارم" بتأليف عصر المماليك وحال الأدب العربى فى عهد العثمانيين ، و"عبد العزيز البشرى" بتأليف عصر النهضة الأدبية فى العهد الحديث . واشتركنا كلنا فى تأليف عصر الدولة العباسية الثانى فكتب كل منا قسما .

وجرينا فى هـذا الكتاب على غرار سابقه فلم نعمد فيه إلى إيجاز البيان . ولم نكتف بسرد القضايا فرارا من الاعتماد على الذاكرة وحدها ؛ فان فى شدة الحمل على حافظة الطالب إضجارا له وإرهاقا لنفسه ، وكثيرا ما يبعثه ذلك على بغض العـلم والزهد فيه .

ولا شك فى أن خير ما يأخذ به الأستاذ تلاميذه هو ترغيبهم فى الأدب وتحبيبه إليهم ، حتى تهفو اليه نفوسهم ، وتستشرف له أذهانهم ، وإنما يكون ذلك بتهوين قضاياه واسلاسها للاذهان ، ولفت جانب من العناية الى إيراد مختلف الأمثلة ، لا حبس العناية كلهـا أو جلها على تقرير القواعد ، ثم بعث الطالب على التدبر وتقليب الذهن فيما يعرض له من المسائل ، ووزن الأقيسة والتفطن إلى مداخلها حتى تخرج له النتائج صحيحة سالمة ، ولهذا يتصل العلم بنفسه ، ويشيع فى حسه ، فيخرج متهيئا — على قدر اجتهـاده واستعداده — لأن يكون له أثر فيه بتحقيق أو بتجلية مغمور أو استكشاف عن مجهول .

حقق الله فى الخير آمالنا

المؤلفون

فهرس الجزء الأول

العصر الجاهلي

عصر صدر الاسلام

العصر الأموى

العصر العباسى الأول

العصر الجاهلى

الأمة العربية — موطنها — جنسها — شعوبها وقبائلها المشهورة
اللغات السامية — منزلة اللغة العربية منها

جزيرة العرب — يسمى العرب بلادهم "جزيرة العرب" وأحيانا "الجزيرة" وهى فى الواقع "شبه جزيرة" لأن الماء لا يحدها شمالا ، فسموها جزيرة تجوزا .

يحدُّها شمالا الشام والجزيرة والعراق ، وشرقا خليجُ فارس (الخليج الفارسى) وبحرُ عُمان ، وجنوبا بحرُ الهند (المحيط الهندى) وغربا خليجُ العرب أو بحر القُلْزُم (البحر الأحمر) وتبلغ مساحتها نحو ربع أوربا أو مساحة القطر المصرى مرتين ونصف مرة .

وتنقسم أقساما يختلف بعضها عن بعض فى طبيعة أرضها ومُناخها وحالة سكانها ، فغربيها يتألف من جزأين كبيرين : الحجاز شمالا ، واليمن جنوبا .

فأما "الحجاز" فسمى حجازا لأن جبل السَّراة أقبل من اليمن حتى بلغ أطراف الشام ، فسمته العرب حجازا لأنه حجز بين تِهامة — وهى هابطة إلى شاطئ البحر — ونجدٍ وهى مرتفعة ظاهرة ، ثم توسعوا فى مدلول الحجاز حتى شمل الأراضى المنخفضة وهى تهامة .

والحجاز قطر يغلب عليه الجدب والإمحال وقلة المطر ، وأحيانا يسيل السيل فيملأ وديانه ويجرى ليصب فى البحر . وتنتشر فيه بقاعٌ صخرية — وخاصة حول مكة — تلق عليها الشمس أشعتها فتنعكس منها حرارة عنيفة قاسية ، ووديان قاحلة

ينبت فيها أحيانا قليل من الكَلَأ ترعاه الماشية ، وقد يكون أخصب مكان فيه الطائف ، فقد أينع فى أرضه النبات وأخرجت أشجاره التين والعنب والرمان والزيتون .

وأشهر مدن الحجاز " مكة " وهى فى واد غير ذى زرع ، وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ميلين ، وعرضها — من سفح جبل أبى قُبَيْس وهو المشرف عليها شرقا إلى جبل قُعَيْقِعان غربا — نحو ميل .

وبمكة الكعبة (البيت الحرام) كان يَحُج إليها العرب فى الجاهلية ، وجعل الحج إليها فرضا فى الاسلام ، وهى قِبْلة المسلمين فى صلاتهم ، وبها نبع ماء هو بئر زمزم المشهورة . وبها ولد محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن أماكن مكة المشهورة الصَّفَا والْمَرْوَة . وهما مكانان مرتفعان من جبل أبى قبيس ، ووادى مِنًى وجبل عَرَفات والْمُزْدَلِفَة وهى أماكن يرد ذكرها فى شعائر الحج .

ومن مدن الحجاز " المدينة " ، واسمها القديم يَثْرِب ، وهى فى وسط واد فسيح ، فى شمالها جبل أُحُد ، وبها كثير من النخل وآبار كثيرة يستقون منها ، وإليها هاجر النبى صلى الله عليه وسلم من مكة ، وبها تُوُفِّىَ ، وبالجهة الشمالية من المدينة خَيْبَر ، وقد كان يسكنها قبائل من اليهود ، كما كان يسكن المدينة نفسها بعض اليهود .

وكان يسكن الحجازَ من قبائل العرب الأوسُ والْخَزْرَجُ فى المدينة ، وقُرَيش فى مكة ، وثَقِيف فى الطائف ، وهُذَيْل وكانت تسكن هضابا فى جنوبى مكة وقد اشتهر الهُذَلِيّون بشعرهم الرقيق .

وأما اليمن — فى جنوبى الحجاز — فقطر قديم اشتهر بالغنى والثروة والحضارة ، وهو كالحجاز يتألف من أراضٍ منخفضة على شاطئ البحر تسمى أحيانا " تهامة اليمن " تمييزا لها عن تهامة الحجاز ، وأراض مرتفعة تسمى كذلك " نجد اليمن " .

ومن مدنهـا "نَجْران" فى الشمال ، وقد اشتهرت فى الجاهلية باعتناق أهلها النصرانية، وكان فيها أساقفة، وكعبة يعظمونها مضاهاة للكعبة فى مكة ، وقد كان انتشار النصرانيـة فى نجران سببا فى اتصال اليمن بالحبشة لاتحاد نجران والحبشة فى المذهب الدينى .

وكان من مدن اليمن "مأرب" فى الشمال الشرقى من صَنعاء ، وتسمى سَبَأ ، وكان يسمى أهلها الذين يسكنونها وما حولها سبأ أيضا .

كذلك من مدن اليمن "صَنْعاء" فى الوسط ، وبالقرب منها قصر عظيم يسمى "غُمْدان" يذكر الأخباريون أن سيف بن ذى يزن فى الجاهلية استرده من الحبشة، وكانوا قد استولوا عليه لما استولوا على اليمن .

وفى جنوبى صنعاء خرائب مدينة كانت تعد حاضرة للحميريين تسمى "ظفارِ" ومن أمثال العرب المشهورة : "من دخل ظَفارِ حَمَّر" أى تكلم باللغة الحميرية .

ومن أكبر القبائل العربية التى كانت تسكن اليمن قبيلة هَمْدان، وقد اشتهرت بأنها كانت تعبد فى الجاهليـة صنمين اسمهما يَغُوث ويَعُوق ، وقد ورد ذكرهمـا فى القرآن الكريم .

وكذلك ممن كان يسكن اليمن قبيلتا مذحِج ومُراد .

وفى جنوبى جزيرة العرب صقْع حضرموت ، وهو قطر جبـلى يقطع جباله وديان كثيرة ، يسمى سكانه الحضارمة، وقد اشتهروا بجدهم ورحلاتهم فى التجارة، ومنهم كثيرون جاءوا الى مصر عند الفتح الاسلامى ، ومن أشهر من كان يسكن هذا الاقليم فى الجاهلية بطن من كِنْدة تسمى "تُجيب" .

وفى حدود حضرموت شمالا الأحقاف ، حيث كان يسكن قوم عاد ، وقد قص الله قصتهم فى عدة مواضع من القرآن "واذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ" الآية ، وسميت بالأحقاف سورة من سور القرءان .

وفى الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة "عُمَان" وهو قطر جبلى على شاطئ البحر ، اشتهر أهله بالملاحة ، وقد ذكروا أنه بعد انهيار سد مأرب رحَلت بعض قبيلة الأزد إلى عمـان وسكنتها ، وكذلك كان يسكنها قوم من طيء من أشهرهم قبيلة نَبْهان .

والجزء الممتد فى شرق الجزيرة من عمان إلى حدود العراق يسمى "البحرين" ومن أشهر مدنه "هَجَر" وقد ضرب المثل بكثرة تمرهـا ؛ فقالوا : "كناقل التمر إلى هجر" .

ومن مدنه كذلك "قَطَر" وقد اشتهر أهلها بالغوص على اللؤلؤ واستخراجه وقد كان يسكن البحرين قبائل من عبد القيس وتميم .

أما وسط الجزيرة فصحارى قليلة الأمطار قليلة النبات ، يتخللها كثير من الدارات (الواحات) الخِصبة تنبت من الكلأ ماترعاه الماشية فى بعض أشهر السنة ، وهذه الصحراء أقسام لكل قسم اسم خاص ؛ فالجزء الذى بين شرق اليمن والشمال الغربى لحضرموت يسمى "صَيْهَدا" .

والذى فى شمـالى حضرموت يسمى "الأحقاف" ، والذى فى شمـالى مَهْرة يسمى "الدَّهْناء" .

وفى شمالى الصحراء تمتد الأراضى العالية المسماة "نجْدا" وهى من أصح بلاد العرب وأجودها هواء وأجملها منظرا .

والصقع الذى فى الجنوب الشرقى لنجد يسمى اليمـامة وهو من أخصب بلاد العرب ، وقد روى بعضهم أنها كانت مسكنا لطَسْم وجَدِيس وقد يطلق على اليمامة والبحرين معا اسم "الْعَرُوض" .

وجزء الصحراء الشمالى المجاور للشام يسمى "بادية الشام" والمجاور للعراق يسمى "بادية العراق" والذى فى جوار الجزيرة (شمالى العراق) يسمى "بادية الجزيرة" .

مناخها — يغلب الحر الشديد على أكثر جزيرة العرب ، وفى مرتفع الأراضى يعتدل الجو ليلا فى الصيف ، ويبرد فى الشتاء حتى ينعقد الثلج فى أعالى بعض الجبال كما فى الطائف ، فتثلج القِمم ويجمد الماء ، ثم تذيبه الحرارة فينحدر من الجبال جداولَ تروى ما حولها من بساتين ومزارع ، وقد أكثر الشعراء القول فى نوعين من الرياح : ريح الصَّبا ، وريح السَّمُوم . فالصبا ريح شرقية معتدلة تغزَّلَ الشعراء فى اعتدالها ورقة نسيمها واشتقوا منها فقالوا : صَبَتِ الريح تصبو صُبُوًّا . والسَّمُوم ريح حارة ، واشتقوا منها كذلك فقالوا : يوم سامٌّ ومسموم .

وليس فى بلاد العرب أنهار جارية ، ولكن جداول صغيرة يجرى فيها الماء أحيانا ولذلك كان أكبر عمادهم فى حياتهم المطر ، وسمَّوه غيثا ، وخير أوقاتهم الربيع وهو ما أعقب المطر ، ينبت فيه الكلأ ، فيخرجون اليه بإبلهم وشائهم . وبعض الجبال والأودية جيد التربة إذا أصابه الماء أخرج نباتا وشجرا ، فمن أشجاره الطلح ، والأثل ، والسِّدْر ، والحناء ، والرمان ، والتفاح ، والليمون ، وكثير من النخل وعليه يعتمد الكثير فى غذائهم .

وأخصب أراضيها أراضى اليمن لكثرة أمطارها ، وجودة أرضها ، وقد سماها اليونان والرومان "بلاد العرب السعيدة" تمييزا لها عن بلاد العرب الصخرية فى الشمال .

من هذا نرى الاختلاف الكبير بين أجزاء جزيرة العرب فمنها سهل وجبل ، وارض مخصبة وأرض مجدبة ، وإقليم حار وآخر بارد ، وبلاد شاطئية وبلاد بعيدة عن البحر ، وبلاد تتاخم سكان الحضر وتتصل بهم ، وبلاد ممعنة فى الصحراء قلّ أن يكون بينها وبين البلاد المتحضرة سبب .

وكان لهذا الاختلاف أثر فى اختلاف السكان فى عقليتهم وطباعهم ولغاتهم ولهجاتهم ودينهم ونُظُمهم السياسية ، الى غير ذلك كما سيأتى بيانه .

*
* *

الأمة العربية — تسكن هذه الجزيرةَ الأمةُ العربيةُ ، والعرب من الجنس السامىّ ، وهو اسم أطلقه علماء الشعوب على جنس من الناس ينتسب إلى سام بن نوح ، ويشمل هذا الجنسُ البابليين والسريانيين والعبرانيين والفينيقيين والآراميين والحبشيين والسبئيين والعرب ، وإن كان هناك خلاف بين العلماء فى بعض من عددنا سامياً كما يختلفون فى الموطن الأصلى للجنس السامىّ قبل أن يتفرق ويتنوع ، فبعضهم يرى أنهم كانوا أول أمرهم فى بقعة من آسيا ثم يختلفون فيما بينهم ، هل هذه البقعة هى جزيرة العرب ، أو أرمينية ، أو الجزء الأسفل من الفرات .

وبعضهم يرى أن موطنهم الأصلى كان فى أفريقية ونزحوا منها إلى آسيا .

انقسامها إلى شعوب — والعرب من قديم ينقسمون شَعبين كبيرين : عرب الشمال أو الحجازيين ، وعرب الجنوب أو اليمنيين .

فعرب الشمال يسمون ، عادة ، العدنانيين لأنهم — كما يذكر النسابون — من نسل عَدْنان ، وعدنان من نسل إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ، وقد يُسمَّون كذلك العرب المستعربة لأن إسماعيل لم تكن لغته الأصلية اللغة العربية ، وإنما نطق بها لمَّا رحل مع أبيه إبراهيم الى الحجاز ، وتزوج من جُرْهُم ، وهى قبيلة يمنية ، وتعلم منهم وتكلم بلسانهم .

وعرب الجنوب يسمون القَحْطانيين لأن النسابين يروون أن عرب اليمن جميعا من نسل قحطان ويسمَّون كذلك "العرب العاربة" لأن العربية فى الأصل هى لغتهم ولسانهم .

وبين العدنانيين والقحطانيين عداء قديم ، سببه اعتقادهم بما بينهم من خلاف فى الأصل ، وما بينهم من فروق فى اللغة والحضارة ، وكان بين اليمنيين والحجازيين مفاخرات كثيرة روتها كتب الأدب والتاريخ ، ومن هذا القبيل ما كان بين أهل المدينة — الأوس والخزرج وهم يمنيون ، وأهل مكة وهم عدنانيون — من عداء قبل

الإسلام وفى بدئه ، ومع هذا كانت الرحلات مستمرة بين الشعبين ، فيرحل اليمنيون إلى الحجاز ، والحجازيون إلى اليمن ، وقد سكنت قبائل قحطانية فى الحجاز كالأوس والخزرج ، فقد سكنتا المدينة ، كما سكن قوم من العدنانيين اليمن .

وكل من العدنانيين والقحطانيين ينقسمون قبائل عدة ، والقبيلة هى الوحدة التى بُنى عليها نظام العرب الاجتماعى ، والقبيلة أسرة كبيرة يعتقد كل أفرادها أنهم من أب واحد وأم واحدة ، وهى فى الغالب تسمى باسم الأب كربيعة ومُضَر والأوس والخزرج ، فهذه كلها أسماء رجال نَسَل كل واحد منهم أولادا وأحفادا فانتسبوا كلهم إليه ، وقليلا ما تنسب القبيلة إلى الأم كما قالوا فى خِنْدِف وبَجِيلَة ؛ وقد تسمى القبيلة بحادث حدث ، فإن قبيلة نزلت بماء يقال له غسَّان فسميت القبيلة بهذا الاسم ، ولكن الكثير الشائع نسبة القبيلة إلى الأب . وقد يلد أبو القبيلة أولادا فينشأ عن بعضهم قبيلة أخرى تتسمى باسم آخر وتنتسب إليه ويكون بينها وبين القبيلة التى تفرعت عنها صلة قرابة وهكذا ، وسبب ظهور الفرع باسم جديد أن يشتهر أبو هذا الفرع برياسة أو شجاعة أو كثرة ولد .

نظام القبيلة — وكان للقبيلة شيخ أو رئيس هو سيد القبيلة ، وإليه الفصل فيما ينشأ من خصومات حسب ما للقبيلة من عرف وعادات ، وسيادة الرئيس مبنية على ما وقر فى نفوس الأفراد من إجلال واحترام ، وقلما تبنى على القهر والاستعباد ، ولذلك كانت مصانعة الرؤساء للأفراد لا تقل عن مصانعة الأفراد للرؤساء . وكانت حرية الأفراد فى مثل هذا النظام أوسع منها فى الحكومات المنظمة ، وكان للقبيلة بجانب الرئيس حكام وهم رجال امتازوا فى القبيلة بكبر العقل وصدق النظر ، قد يفزع إليهم فى الخصومات الأدبية ، كالمفاخرة فى النسب ونحوها .

وللقبيلة كذلك شاعر أو شعراء ، يتغنون بمحامدها ، ويُشيدون بمناقبها ؛ أما الرابطة بين الأفراد فكانت رابطة الدم — كما أسلفنا — وكان كل فرد يتعصب لقبيلته ، ويتمدح بما صدر عنها من محاسن ، ويُعيَّر بما كان منها من مساوٍ ،

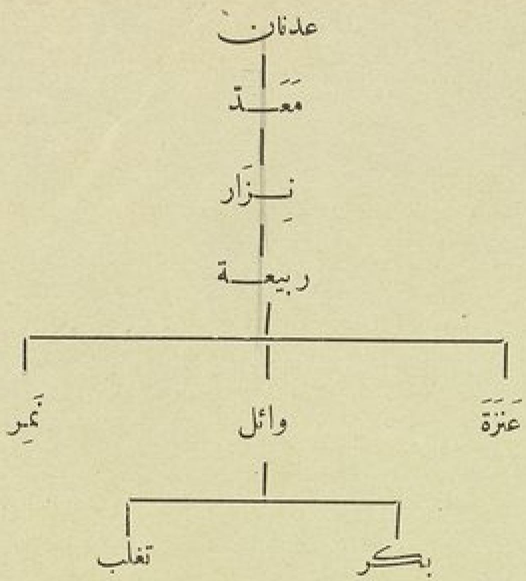
وعلى القبيلة أن تحمى كل فرد من أفرادها وتدافع عنه وتطالب بدمه، وهو يستصرخ بها فى المُلِمَّات ويَفْزَع إليها فى الشدائد ، وقد يرتكب الفرد جرائم كثيرة تُحَمِّل قبيلته متاعب جمة فتعلن انفصاله عنها ، ويسمى عند ذلك "خَلِيعاً" وقد يلتجىء فرد إلى غير قبيلته لتحميه وتدافع عنه فيسمى حَلِيفًا أو مَوْلًى .

أما علاقة القبائل بعضها ببعض فعلاقة عداء غالبا ، فالقبيلة إما مُغيرَة على أخرى أو مُغَارٌ عليها ، إلا أن يكون بين بعض القبائل حِلف أو مهادنة ، ولذلك كانت الحرب بين الأفراد من قبائل مختلفة أو بين القبائل المختلفة تشغل أكبر حيز فى تاريخهم ، حتى رووا أن دُرَيْد بن الصِّمة عُمِّر نحو مائة عام غزا فيها نحو مائة غزوة . ومن أجل هذا أيضا كانت الحروب والنصرة والهزيمة وما إليها أكبر موضوع تناول القولَ فيه الشعراءُ الجاهليون ، وكان لا بد لفهم الشعر والأحداث التاريخية فى ذلك العصر من معرفة القبائل العربية ، وما كان بينها من عداء أو حلف .

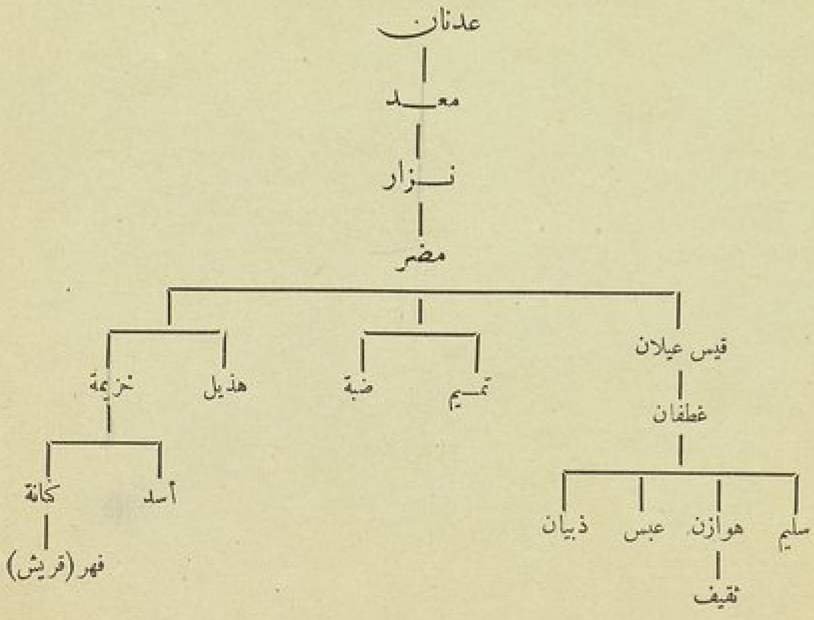
أشهر القبائل — قدمنا أن العرب ينقسمون إلى شعبين كبيرين : العدنانيين والقحطانيين .

والعدنانيون ينقسمون إلى فرعين كبيرين : ربيعة ومضر ، وكلاهما تفرع الى فروع كثيرة ، وهاك جدولين يبينان أهم فروعهما :

فرع ربيعة :



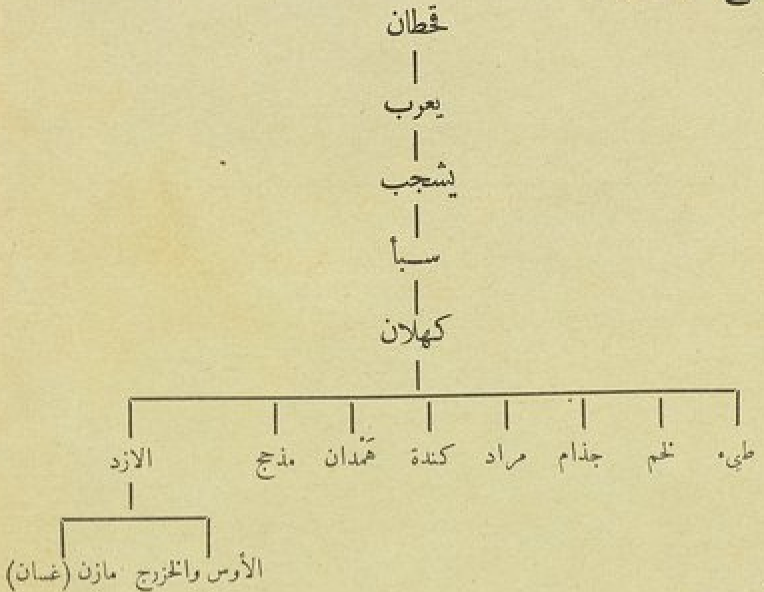
فرع مضر :



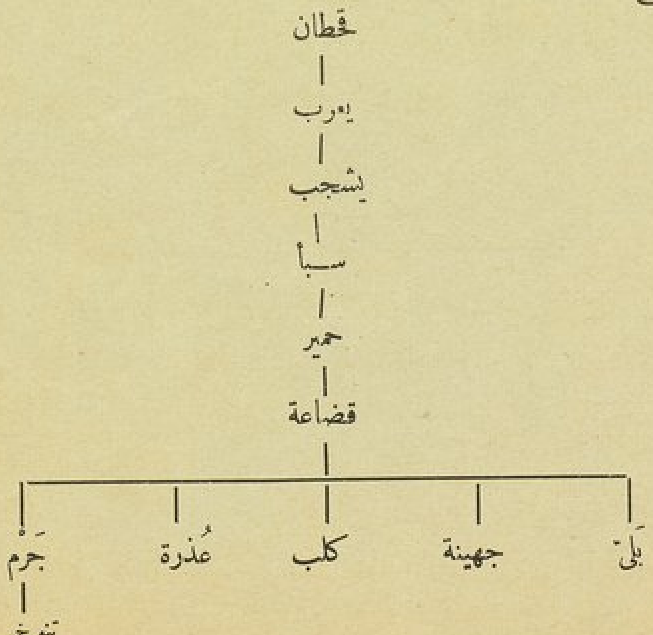
وكان بين ربيعة ومضر عداء شديد ظل قرونا طويلة حتى أن ربيعة كانت تحالف غالبا مع اليمنيين لمقاتلة المضريين .

وأما اليمنيون أو القحطانيون فينقسمون كذلك إلى فرعين كبيرين : فرع كهْلان وفرع حِمْير ، وهذان جدولان يبينان أهم فروعهما :

فرع كهلان :



فرع حمير :



اللغات السامية ومنزلة اللغة العربية منها

اللغة العربية واللغات السامية — يتكلم هؤلاء العرب اللغة العربيــة ، واللغة العربية هى إحدى اللغات السامية ، وسميت باللغات السامية تمييزا لهـا عن اللغات الحامية واللغات الآرية .

وإذ كانت هــذه اللغات السامية من أصل واحد — على ما يظن — كان كثير من الكلمات مشتركا بين هــذه اللغات ، مع اختلاف قليل أحيانا ، كالذى بين العبرية والعربية ، فبعض الكلمات بالشين فى اللغة العربية وهى بالسين فى اللغة العبرية ، والألف فى العربية واو فى العبرية ، فسلام فى العربية شلوم فى العبرية ، وكذلك الثاء فى العربية شين فى العبرية كثور وشور ، وما كان فى العربى بالضاد فهى العبرى بالصاد كأرض وأرص وهكذا .

وقد كان لتقارب الأجناس أثر فى اقتباس لغة من أخرى ، فقد تأثر اليمنيون باللغة الحبشية لقربهم منها وكثرة اتصالهم بها كما تأثر الحجازيون بالعبرية .

وللغات السامية ميزات تتميز بهـا عن غيرها من اللغات : من ذلك اقتصارها فى الكتابة على الحروف دون حركاتها ، فلا يرسمون حروفا دالة على الفتحة أو الكسرة أو الضمة كما هو الشأن فى اللغات الآرية .

ومن ذلك — أيضا — زيادة عدد حروفها عن اللغات الآرية ، وكذلك كثرة اشتقاق صيغ متعددة من المـادة الواحدة ، كما أن هناك شبها بين اللغات السامية فى الأساليب وتراكيب الجمل ، والمفردات الدالة على أعضاء الجسم والضمائر .

واللسان العربى نوعان : لغة عربية جنوبية فى اليمن ، ولغة عربية شمالية فى الحجاز . فلغة الجنوب تشمل لغة سبأ ولغة حمير ، وقد يتساهلون فى التعبير فيسمونهما اللغة الحميرية ، وهى لغة أقدم من لغة الشمال ، وقد عثر فى اليمن على نقوش مكتوبة

بهذه اللغة ، ولها حروف تخالف الحروف العربية المعروفة كما أن لها صيغا فى التنوين ، وجمع المذكر السالم ، وجمع التكسير وأداة التعريف وغيرها تخالف لغة الحجاز ، وكذلك فى حروف الكلمات فهمزة أفعل فى بعض الكلمات الحميرية هاء . وقد توصل العلماء المحدثون إلى معرفة اللغة الحميرية والسبئية بما عثروا عليه من كتابات وأمكنهم أن يستنتجوا من ذلك قواعد للغتين .

أما لغة الشمال أو لغة الحجاز فهى لغة العدنانيين ،وهى أحدث من لغة الجنوب ، وما رُوِى إلينا من شعر جاهلى فهو بهــذه اللغة العدنانية ، لأن الشعراء الذين قالوا هذا الشعر إما من ربيعة أو مضر ،وهما فرعان عدنانيان ،أو من قبائل يمنية رحلت إلى الشمال كطَيِّئ وكِنْدَة وتَنُوخ .

وتعد اللغة العربية العدنانية — كما يقول علماء اللغات السامية — أقرب اللغات إلى الأصل الذى تفرعت منه اللغات السامية ، لأن هؤلاء العرب لم يمترجوا كثيرا بغيرهم من الأمم ، ولم تخضعهم أمم أخرى لحكمهم كما كان الشأن فى كثير من الأمم السامية الأخرى كالعبرانيين والبابليين والأشوريين ، فحفظتهم الصحراء من غزو الأعداء وحكم الأمم الأجنبيــة ، كما حفظت لغتهم من أن تتأثر تأثرا كبيرا بغيرهم .

كذلك تعد اللغة العربية أرقى اللغات السامية لكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها وغنى معجمها ، فقد وضعوا لكل ما وقع عليه حسهم كلمة بل كلمات ، وفطنوا لكل تغيير طرأ فوضعوا له اسما يدل عليه . وقد رقاها القرآن الكريم بما أدخل فيها من معان وألفاظ ، ثم بسطت نفوذها على كل البلاد التى فتحها المسلمون فى آسيا وأفريقية وأوربا فأثرت فى هذه البلاد وتأثرت بها .

حياة العرب السياسية — الحياة السياسية لليمانيين بالإجمال
الحياة السياسية للعدنانيين كذلك — العلاقة بين العرب والأمم الأجنبية

غموض التاريخ الجاهلى ومصادره — تاريخ العرب فى الجاهلية غامض أشد الغموض ، مملوء بالأساطير والأقوال المتضاربة ، لأن العرب فى ذلك العهد لم يدونوا تاريخهم فى كتب وصلت إلينا لا سيما من كان منهم من سكان البادية ، إنما كانوا يتناقلون ذلك شفاها من طريق الرواية ، والقدم قد أسبغ عليهم كثيرا من العظمة غير المألوفة ، فهم ينسبون إلى أجسام بعضهم طولا مفرطا لا عهد للناس به ، ويعمرونهم أعمارا لم يعشها الناس فى عصر من عصورهم ، ويضيفون إليهم من الأعمال ما لا طاقة للإنسان به وهكذا .

من أجل ذلك تعب المحققون فى تحقيق أخبارهم وتمييز الصحيح من تاريخهم. وأصدق ما وصل الينا أخبار وردت فى القرآن الكريم كأخبار عاد وثمود وسيل العَرِم ، كذلك عُثر على آثار فى اليمن جَدّ العلماءُ فى فَكّ رموزها وقراءة خطوطها وتعرف لغتها ، وقد وجدوا فى بعض النقوش اليمنية تاريخا لبعض حوادث اليمن وملوكها ، كما وجدوا آثارا فى شمال جزيرة العرب (فى مدائن صالح وغيرها) مكتوبة بالخط الحميرى ، ولكن ما فى هذه النقوش لا يمكن أن يؤلف منه تاريخ منظم متسلسل .

ولا يزال الباحثون ينقبون عما بقى من هذه الآثار وكشف معمياتها .

كذلك وردت فصول فى كتب التاريخ العربية تتضمن أخبار العرب فى الجاهلية ، من أهمها تاريخ ابن خلدون ، والطبرى ، وفصول أتت فى كتب

تاريخ اليونان والرومان كهيرودوت وبطليموس . وشذرات جاءت فى التوراة ، وما كتب اليهود عن الحجاز واليمن ، وبعض بقايا آثار بابلية وأشورية ، ومع هذا فكتب التاريخ العربية واليونانية واليهودية لا يوافق بعضها بعضا ، فهى لا تتفق فى تاريخ الملوك وعددهم ، ولا فى تاريخ الأحداث ، بل لا تتقارب فى ذلك .

كل هذا جعل التاريخ الجاهلى غامضا مجالا للشك فيما لم يرد فيه قرءان أو أثر صحيح .

حياة اليمن السياسية — قدمنا أن عرب اليمن جميعا ينتسبون إلى قحطان، وكان عرب اليمن الأولون ينقسمون إلى جماعات متفرقة فى البلاد ، كل جماعة تقيم فى محلة تسمى فى لسانهم "المِخْلاف" وهى كالبلدة بما حولها من قرى ومزارع ، وعليها أمير يسمى بلغتهم "القَيْل" وجمعه أقيال ، وكل قيل مستقل عن الأقيال الآخرين ، وأحيانا يقوى أحد الأقيال فيغزو قيلا آخر ويتغلب عليه ويسلبه ماله ويعود إلى مقره كما هو شأن الأمم فى حالة بدواتها .

ثم تحضروا على مر الزمان ، ونشأت فى اليمن دول كبيرة أهمها :

(١) دولة سبأ — وقد ورد ذكرها فى التوراة ، وفى كتب الجغرافية اليونانية والرومانية ، وجاء فى القرآن الكريم ما يدل على حضارتهم "لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ" الآية . وقد أزهرت مدينة سبأ قبل ميلاد المسيح بجملة قرون، ويدل بعض ما عثر عليه من النقوش على أنها كانت فى القرن الثامن قبل الميلاد .

وحاضرة هذه الدولة كانت بمدينة "مأرِب"،وقد كان من أهم أسباب عظمتها أن التجارة بين الهند والحبشة ومصر والشام والعراق كانت فى بعض العصور تعتمد أكثر ما تكون على البحر ، ثم أصبح البحر بين مصر والشام والعراق طريقا مخوفا ،

وعرضة للسلب والنهب بمراكب المتلصصة ، فتحولت التجارة إلى البر ، فكانت السلع تأتى من الهند والحبشة إلى شواطئ جزيرة العرب فينقلها السبئيون برا إلى مصر والشام والعراق ، وكانت القوافل تسير من شاطئ الجزيرة إلى مأرب ، وتتجه شمالا إلى مكة ومنها الى بَطْرة ثم إلى غَزَّة على شاطئ البحر الأبيض ، فربحت اليمن من وراء ذلك وعظم شأنها وكثر المال فى يد اليمنيين فزهت بلادهم ، واحتفروا التُّرع و بَنَوا السدود ، وأنشأوا القصور ، ثم عاد طريق البحر إلى مأمنه فأعرضت التجارة الهندية عن طريق البر ، وسلكت البحر من الهند إلى شاطئ حضرموت إلى مضيق باب المندب ، و يظهر أن ذلك كان فى القرن الأول الميلادى ، فكان فى هذا إضعاف لشأن اليمن والدولة السبئية . وانضم إلى ذلك حادث كبير كان له أثر عظيم فى خراب هذه البلاد وهو انهيار سد مأرب .

" وسد مأرب " بناء أقاموه لحجز المياه وتصريفها بقدر ، وهو الذى نسميه الآن " خزانا " وسبب إقامته أن اليمن ليس بها أنهار جارية دائما ، ولكنْ بها مياه كثيرة تتجمع من السيول ، فكان يضيع أكثرها فى الرمال ، ففكروا أن يَبْنوا سدودا يحجزون بها مياه السيول ثم يصرفون منها حسب حاجاتهم . وكان من أكبر هذه السدود سد مأرب ، وكان فى الجنوب الغربى من مأرب ، وقد كثرت فى هذه المنطقة الجبال المرتفعة والوديان ، فاذا أمطر المطر وسال السيل جرت المياه فى الأودية وتجمعت فى واد يسمى وادى أَذَنة فتسير فيه المياه حتى تنتهى إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات هو مضيق بين جبلين ، فبنوا هناك السد المعروف بسد مأرب .

وقد اتخذوا فى جانبى السد مصرفين يسدونهما بعوارض مركبة بعضها فوق بعض يفتحونها بطرق مُهندَسَة فيسقون حسب حاجتهم ثم يقفلونها . ووراء الجانبين أراض صالحة للزراعة تجرى فيها المياه ، فكان من ذلك جنتان عن يمين وشمال .

وقد حدث أن السدّ تصدع — لعدم العناية به — على أثر سيول غزيرة فخربت البلاد وأصاب الناسَ قحط . وكان ذلك من أسباب تفرق سكان سبأ ، وهجرة أهل الجنوب إلى الشمال ، ومن هؤلاء قبائل الأزد الذين منهم الأوس والخزرج ، ولا تزال بقايا السد قائمة إلى الآن ، وفى هذا الحادث يُنْسَبُ لِلْأَعْشَى :

وفى ذاكَ لِلْمُؤْتَسِي أُسْوَةٌ ... وَمَأْرِبُ عَفَّى عليها الْعَرِمْ
رُخَامٌ بَنَتْــهُ لَهُمْ حِمْــيَرٌ ... إذا جاءَ مَوَّارُهُ لَمْ يَرِمْ
فَأَرْوَى الزُّرُوعَ وَأَعْنَابَهـا ... عَلَى سَـعَةٍ مَاؤُهُمْ إِذْ قُسِمْ
فصاروا أيادِىَ ما يَقْدِرُو ... نَ مِنْهُ على شُرْبِ طِفْلٍ فُطِمْ

ومن أجل هذا قال العرب فى أمثالهم " تفرقوا أيدى سبا " .

ويدل ما عثروا عليه من نقوش على أن أسماء ملوكهم ولغتهم تخالف الأسماء العربية واللغه العربية المعروفة لنا فى كتابتها وقواعدها .

(٢) دولة حمير — الحميريون فرع من السبئية ، وقد أنشئوا مملكة كانت عاصمتها " ظَفَار " واستمرت دولتهم — على ما يرجح — من أواخر القرن الثانى قبل الميلاد إلى أوائل القرن السادس الميلادى . وقد امتازت هذه الدولة بالفتوح ومحاربتها للفرس والحبشة ، وقد تضاربت أقوال المؤرخين فى أسماء ملوكهم وعددهم ومدة حكمهم ، وبالغ مؤرخو العرب فى فتوحهم وحروبهم مبالغة لا يُؤيدها ما ورد فى تواريخ الأمم المعاصرة لهم .

ويقسم المؤرخون عادة هذه الدولة إلى طبقتين : الطبقة الأولى وينتهى حكمها فى أواخر القرن الثالث الميلادى ، والطبقة الثانية مدت سلطانها على الشَّحْر وحَضَرَمَوْت ، وهذه الطبقة الأخيرة تسمى فى كتب العرب بالتبابعة — جمع تُبَّع — وكان آخرَ ملوكهم " ذو نواس " .

ويذكر مؤرخو العرب أن "ذا نواس" كان يهودياً متعصبا لليهودية ، وكانت النصرانية قد فشت فى جزيرة العرب ، وكان لها مراكز فى اليمن منها نجران ، فاضطهدهم ذو نواس ، وعرض عليهم اليهودية فأبوا فأحرقهم ، فغزت الحبشة اليمن انتصارا للنصرانية ، وكُسر ذو نواس وقومه ، وملكت الحبشةُ اليمنَ وهدمت حصونها . وكان ذلك حول سنة ٥٢٥ م ، وقد تسمى العرب كل دول اليمن — من سبئيين وغيرهم — الحميريين ، كما تسمى لغات اليمنيين على اختلافها الحميرية . وسبب ذلك أن فرع حمير كان هو الفرع القوى الذائع الصيت قبيل الإسلام .

*
* *

وللعرب عن اليمن وشؤونها أساطير كثيرة لم تثبت تاريخيا ، ومع هذا كان لها أثر كبير فى الأدب العربى من شعر وقصص وأمثال .

كالذى ذكروا أن من التابعة ذا القرنين ، ونسبتهم له بعض ما نسب للإسكندر الأكبر المقدونى . وكما بالغوا فى أسعد أبى كَرِب أحد التابعة ، وأنه فتح فارس ولقى الترك وهزمهم ، وهابته الملوك وهادنه ملوك الهند ، ورووا له فى ذلك شعرا . وكما أعظموا من قصر غُمْدان ، وهو قلعة صنعاء ، فقد ذكر الهمدانى أنه كان عشرين سقفا غُرَفاً بعضها فوق بعض ، بين كل سقفين عشرة أذرع ، ولما بلغ بانيه غرفته العلياَ أطبق سقفها برخامة واحدة شفيفة الخ . وكالذى ذكروا عن زرْقاء اليمامة ، وهى امرأة من جَدِيس كانت تبصر الشىء على أبعد مدى ، فلما قَتَل قومُها طَسْماً استنجد رجل منهم بحسان بن تبع ملك اليمن ورغّبه فى أموالهم ، فبعث اليهم بجيش أبصرته الزرقاء عن مسيرة ثلاثة أيام فأخبرت به قومها الخ .

*
* *

تاريخ العدنانيين — يقابل اليمنيين أو القحطانيين فى الجنوب العدنانيون فى الشمال ، وهم ينتسبون إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، وكانوا يسكنون الحجاز وتهامة ونجدا ، وبعضهم سكن العراق والجزيرة .

والعدنانيون يختلفون عن القحطانيين فى أمور كثيرة أهمها :

(١) أكثر العدنانيين بادية رَحَّالة ، ويقل منهم من يعيشون عيشة قرار وحضارة ، كقريش فى مكة ، وعلى العكس من ذلك القحطانيون فهم أهل حضارة وعمران .

(٢) اختلافهم فى اللغة : فلغة اليمنيين الحميرية تخالف لغة العدنانيين كما تقدم ، وقد سادت لغة قريش العدنانيةُ قبيل الإسلام وتمت سيادتها بظهور الإسلام .

(٣) كذلك يختلفون فى العبادات فقد كان لليمن فى الجاهلية آلهة خاصة لا يشاركهم فى عبادتها العدنانيون .

وقد تشعب العدنانيون شعوبا كثيرة ، وانقسموا إلى قبائل عدة كما ظهر فى الجدول السابق . وأكبر فروع العدنانيين فرع ربيعة وفرع مضر ، وكانت ربيعة ومضر أقوى الشعوب العدنانية فى القرنين السابقين على الإسلام ، وكان بين ربيعة ومضر أحداث كثيرة وحروب طويلة أحيانا بين قبائل مختلفة من ربيعة ، وأحيانا بين قبائل مختلفة من مضر ، وأحيانا بين قبائل من ربيعة وقبائل من مضر .

فمن الوقائع المشهورة بين قبائل ربيعة حرب "البَسُوس" بين بكر وتغلب ، وقد دامت فيما يقولون أربعين سنة ، ويذكرون فى سبب ذلك أن كليب بن ربيعة كان سيد تغلب ، وبلغ من عظمته أن كان له حِمًى فى أرض تسمى العالية لا يطؤه أحد إلا بإذنه ، وكان لا يورد أحد مع إبله ، ولا يوقد نارا مع ناره ، وقد تزوج

كليب من شيبان (فرع من بكر) والبسوس خالة جَسّاس بن مُرَّة الشَّيْبَانى كانت لها ناقة يقال لها "سَرَابِ" ، فرآها كليب وائل فى حماه وقد كسرت بيض حمام كان قد أجاره ، فرمى ضرعها بسهم ، فوثب جساس على كليب فقتله ، فهاجت الحرب بين بكر وتغلب حتى ضربت العرب بشؤمها المثل .

ومن الوقائع بين قبائل مضر حرب " داحِس والْغَبْرَاء " بين عَبْس وذُبْيان . وسببها أن قيس بن زهير العبسى تراهَنَ هو وحُذَيْفَة بن بدر الْفَزَارِىّ فى سباق فأجرى الفزارى فرسه الغبراء وأرسل العبسى داحسا ، فكان داحس السابق لولا كمين — جعلته بنو فَزَارة — رَدَّه قبل أن يدرك الغاية . فادعى كل منهما حق السبق ، وثارت من أجل ذلك حرب عَوَان امتدت نحو أربعين سنة .

وكذلك من حروب مضر حروب "الفِجار" بين قبيلتى قريش وكنانة ، وكانت قبل الإسلام ، وهى حروب أربع وكان سبب الأولى — على ما يروى — المفاخرة فى سوق عكاظ . وسبب الثانية تعرض فتية من قريش لامرأة من بنى عامر بن صَعْصَعة بسوق عكاظ . وسبب الثالثة مقاضاة دائن لمدينة مع إذلاله فى سوق عكاظ . وسبب الأخيرة أن عروة الرَّحَّال ضمن أن تصل تجارة النعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ آمنة فقتله الْبَرَّاض فى الطريق .

ومن الأيام بين ربيعة ومضر وقائع كثيرة بين تميم من مضر وبكر بن وائل من ربيعة ، وكانت الحرب فيها سجالا ، يوم لتميم ويوم لبكر .

وهذه الحروب والأيام دونت فى كتب التاريخ والأدب ودخلها كثير من المبالغات ، وكانت محورا لكثير من القصائد والأمثال والقصص ، وأكثر الادب الجاهلى يدور حولها .

وأعظم موطن للعدنانيين مكة ، وكان يسكنها كنانة وقريش ، وكان لهما الفضل والشرف على غيرهما من مضر، وآلت ولاية البيت الحرام لهما ، ثم انحصرت فى قريش ، وكان سيد قريش قصىّ بن كِلَاب بن مُرَّة (وقد صار له لواء الحرب ، وحِجَابة البيت ، وتيمنت قريش برأيه نصرفوا مشورتهم إليه فى قليل أمورهم وكثيرها ، واتخذوا دار الندوة إزاء الكعبة ، وجعلوا بابها إليها ، فكانت مجتمع الملأ من قريش فى مشاورتهم ، ومعاقدهم . ثم تصدّى "قصى" لإطعام الحاج وسقايته ، لما رأى أنهم ضيف الله وزوار بيته ، وفرض على قريش خراجا يؤدونه إليه) وكان ذلك نحو أوائل القرن الخامس للميلاد .

ثم تتابعت الولاية ورياسة قريش فى أولاد قصى — عبدمناف ، ثم هاشم ، ثم عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم . وفى عهد عبد المطلب غزت الحبشة الحجاز ، وسمى العرب عام هذه الغزوة "عام الفيل" ، وكان ذلك سنة ٥٧٠ م فأصيب جيش الحبشة بالوباء فرجعوا عن مكة ونزلت فى ذلك سورة الفيل فى القرآن الكريم .

وقد حدث بين بطون قريش خلاف أحيانا على وسائل الشرف ، ودعا هذا الخلاف إلى توزيعها على البطون فكان لبنى هاشم — مثلا — سق الحجيج ، ولبنى أمية راية الحرب ، ولبنى نوفل الرِّفَادة (وهى ما كانت تخرجه قريش من المال تعين به من انقطع عن الحج) الخ . وكان كل بيت يتوارث هذه المكارم .

العلاقة بين العرب والأمم الأجنبية

اتصل العرب بمن حولهم من الأمم من طرق عدة :

أولا — التجارة — وكان أظهرَ القائمين بها اليمنيون فى اليمن ، والقرشيون فى مكة . فاليمنيون عرفوا بالتجارة قديما فكانوا ينقلون غلات حضرموت وظفار وواردات الهند إلى الشام ومصر . ويأتون بالذهب والحجارة الكريمة والصندل والتوابل والأفاويه من الهند ، وكانوا يحملون العطور والآبنوس والذهب من شواطئ إفريقية . وكانوا يتاجرون فيما تخرجه بلادهم من البخور والعطر . ويحملون اللؤلؤ من البحرين ، وهكذا اتصلوا بالعالم حولهم .

ثم ضعفت تجارتهم وحل محلهم عرب الحجاز ، وكان ذلك منذ القرن السادس الميلادى ، فتسلّطت قريش على التجارة يشترون السلع من اليمنيين والحبشيين ، ويبيعونها فى أسواق مصر والشام . ولما قوى العداء بين الفرس والروم قبيل الإسلام بلغت مكة مبلغا عظيما فى التجارة ، وكان الروم يعتمدون فى كثير من شؤونهم على التجارة المكية حتى فى صنوف الترف . وكانت لقريش رحلتان تجاريتان رحلة فى الشتاء إلى اليمن ورحلة فى الصيف إلى الشام ، وكانوا فى رحلتهم آمنين لما وقر فى نفوس العرب من احترام قريش وأنهم أهل الحرم وولاة البيت .

كانت هذه التجارة سببا فى اتصال العرب بغيرهم من الأمم ، فقد مكّنت التجار من العرب من الاطلاع على بعض شؤون الممالك وعمرانها ، ونقلوا مع سلعهم كثيرا من الألفاظ الفارسية والرومية والمصرية والحبشية أدخلوها فى لغتهم ، وأخضعوها لقوانينهم .

ثانيا — الإمارات على التخوم — كذلك من أسباب اتصال العرب بغيرهم من الأمم ما أنشئوه من إمارات على تخوم الممالك المجاورة ؛ من ذلك إمارة اللخميين فى الحِيرَة بجوار الفرس ، والغساسنة فى الشام بجوار الروم ، وكلا اللخميين والغساسنة من أصل يمنى كما يذكر النسّابون .

وسبب إنشائهما أن الفرس والروم كانا على حدود العرب ، وكان عرب الجزيرة يهددون هاتين المملكتين بنوع من الحرب غير النظامية ؛ بالإغارة حينا بعد حين فيسلبون ويعودون ، ولم يكن من السهل على هاتين الأمتين غزو العرب وفتح بلادهم لصعوبة السير فى الصحارى ، ولأنه ليس فى جزيرة العرب من الثروة ما يُطمع فيها . فرأت كل أمة منهما أن تنشئ إمارة عربية على حدودها تدفع بها الغزوات ، وتأمن بها صد الغارات ، وأن تعهد بذلك للقبائل المجاورة فأنشأت الفرس إمارة الحيرة ، وأنشأ الروم إمارة الغساسنة .

إمارة الحيرة — وكانت الحيرة على نحو ثلاثة أميال من الكوفة ، وقد كانت على أطراف العراق ، وصارت على عهد اللخميين مدينة عامرة بنيت فيها القصور الفخمة ، واشتهرت بجودة هوائها لقربها من البادية . وكان أول الأمراء اللخميين فى الحيرة عمرو بن عَدِىّ حول سنة ٢٦٨م فى عهد سابور الأول بن أردشير ، واستمرت إمارة الحيرة إلى سنة ٦٣٣م حين فتحها خالد بن الوليد .

كان الأمير يعينه ملك الفرس من قبيلة لخم ، وكان الأمراء اللخميون فى شبه استقلال ؛ لأن نظام الفرس فى الحكم كان أشبه بالنظام الإقطاعى . وكان عرب الحيرة هم الصلة بين الفرس وعرب الجزيرة ينقلون التجارة بينهما ، وينشرون مدنية الفرس وثقافتهم ، وينقلون أخبارهم وأقاصيصهم . وقد تأثر الأدب العربى بهؤلاء الحيريين أثرا غير قليل ، فمن أشهر أمراء الحيرة النعمان الخامس ، زوج هند الملقب بأبى قابوس الذى قصده النابغة الذبيانى ومدحه بقصائده . والعرب

يتحدثون كثيرا عن الخَوَرْنَق والسَّدِير ، وهما قصران كالقلعتين بجوار الحيرة ، كما يتحدثون عن سِنِمَّار بانى الخورنق ويضربون به الأمثال . ويذكرون يومى النعمان : يوم نعيمه ويوم بؤسه ، كما يذكرون أن أهل الحيرة علّموا قريشا الزندقة فى الجاهلية والكتابة فى صدر الإسلام .

وقد اشتهر من شعراء الحيرة عَدِىّ بن زيد العِبَادى نسبة إلى عِباد ، وهى قبيلة كانت تسكن الحيرة وفشت فيها النصرانية .

الغساسنة — كذلك أنشأ الروم على حدود الشام إمارة الغساسنة ، وقد شمل حكمهم مقاطعتى حَوْران والبَلْقاء ، وتاريخهم أغمض من تاريخ اللخميين ؛ لأن الفرس عنوا بتاريخ من كان فى جوارهم ، ويفهم من قول الشعراء أحيانا أن عاصمة ملكهم كانت جَوْلان أو الجابية ، وأحيانا يذكرون ما يفهم منه أن عاصمتهم كانت جِلّق بالقرب من دمشق .

والخلاف كبير بين ما ذكره العرب عنهم وما ذكره الأوربيون ، وعلى كل حال فمن أشهر ملوكهم الحارث بن جَبَلة ، وقد عينه الأمبراطور جوستنيان سنة ٥٢٩ م أميرا على جميع قبائل العرب فى الشام ، ومنحه لقب فيلارك وبِطْريق ، وكان الحارث نصرانيا على مذهب اليعاقبة ، وقد سافر الحارث إلى القسطنطينية سنة ٥٦٣م وهو الذى توسط لامرئ القيس الشاعر المشهور فى الذهاب إلى قيصر القسطنطينية ليستعين به كما يذكرون .

وقد اشتبك الغساسنة فى حروب مع اللخميين تبعا للحروب التى كانت بين الروم والفرس ، ويذكر مؤرخو العرب أن آخر ملوكهم كان جَبَلة بن أَيْهَم ، وقد أسلم

لما فتح المسلمون الشام ، وأحسن عمر بن الخطاب وفادته ، فوطئ رَجُلٌ فَزَارِىٌّ فَضْل إزاره فلطمه جبلة ، فشكاه الفزارى إلى عمر ، فطلب القصاص منه ، فهرب إلى القسطنطينية وتنصر ، ولم يزل بها حتى مات سنة ٢٠ هـ .

وكذلك كانت الغساسنة واسطة بين الروم وعرب الجزيرة يعلنون حضارتهم وينقلون أخبارهم ، ووفد عليهم كثير من شعراء الجزيرة كالنابغة الذبيانى والأعشى ، وعَلْقَمَة الفحل ، وحَسّان بن ثابت ، واشتهروا بين العرب بالكرم ، فقالوا : "أوقر للضيف من بنى غسان" .

ثالثا — البعوث الدينية — وكان من وسائل الاتصال كذلك بعوث يهودية ونصرانية للدعاية ، ومن أجل ذلك اتصل نصارى العرب بالروم والحبشة ، واتصل يهود العرب بيهود الشام .

ونتج عن هذه الوسائل كلها تسرب أنواع من الثقافات الأجنبية إلى العرب فى الجاهلية ظهرت فى الألفاظ اللغوية ، والقصص والأخبار ، وإن كان ذلك كله لم يبلغ شأوًا بعيدا .

حياة العرب الاجتماعية والدينية والعقلية

الحياة الاجتماعية للعرب — ينقسم العرب من حيث حالتهم الاجتماعية إلى قسمين : سكان البدو وهم أغلب سكان الجزيرة : وسكان الحضر وهم سكان المدن وما إليها . وهؤلاء الأخيرون كانوا يكثرون فى اليمن و يقلون فى الحجاز ، فإذا استثنينا سكان مكة و يثرب والطائف ونحوها فبقيتهم فى الحجاز بادون .

فأما أهل البدو فعيشتهم عيشة ارتحال وانتقال ، قل أن يَقِرُّوا فى مكان ، لأن أغلب أرض الجزيرة غير صالحة للزراعة لقلة المياه فيها ، فليس فيها أنهار ولا منابع مياه غزيرة ، وما يجرى فيها من سيول فسرعان ما تتشرّبه الرمال ، أراضيها العالية كنجد تمطرها السماء فى الشتاء فتنبت الأعشاب فى بقاع متفـرقة من الأرض ، فتخرج قبائل العرب إلى المراعى القريبة بإبلهم وشائهم لرعى الكلأ إلى أن يشتد القيظ ويجف الزرع فيعودوا إلى أماكنهم . وقد تلوّن الشعر العربى بهـذه الظاهرة ، فتغنى الشعراء فى موسم الغيث بالمطر و بالربيع و بالكلأ و بالأزهار ، ونعوا على القيظ جدبه وفقره وعطله من الخير والجمال .

وقد دعتهم هذه الحال أن يسكنوا الخيام ، ينقلونها معهم إذا خرجوا لطلب المرعى ، أو سافروا للغزوات ، وكانوا يتخذون الخيام من الو بر والشعر والصوف ، وقد يقسمونها قسمين يفصل بينهما ستار مقدمها للرجال ومؤخرها للنساء . وكثيرا ما كانت هذه الخيام موضوعا للشعراء فى وصفها ووصف ما فيها ، كما كثر بكاؤهم على أطلالِها ، وأطلالُها هى آثارها الباقية بعد رحيل أهلها من حجارة نُؤْيِها وقيام أثافِيِّها ، أو تراكم كُرْسِها ، أو رماد نارها ، أو أثر للعب صبيانها .

وأكثر طعامهم اللبن والتمر، وقد غنيت اللغة بأسمائهما على اختلاف أنواعهما، وأقل من هذا اعتمادهم على لحوم الشاء والإبل — وان كثرت فى الشعر — لما أنها مظهر الجود وإكرام الضيف .

والإبل هى عماد الحياة فى جزيرة العرب "وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ، وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ" يأكلون من لحومها ويشربون من ألبانها ، ويكتسون من أوبارها ويحملون عليها أثقالهم . وهى أصبر ما يكون على الجوع والعطش واحتمال البرد والحر ، قايضوا عليها فى المبايعات ، وقوموا بها الأشياء ، وافتدوا بها أسراهم فى الحروب والغزوات ؛ ووَدَوْا بها القتلى ، وأمهروا بها فى الزواج ، لذلك عُنُوا بتربيتها ، ومَهَرُوا فى طرق إنتاجها ، وربطوا نوع حياتهم بحياتها ، يرحلون للرعى من أجلها ، ويتطلبون أماكن الدفء لتوليدها ، وقد بنى كثير من لغة العرب وأدبهم عليها ؛ فوضعوا أسماء لكل جزء منها وحالة من حالاتها ، واشتقوا منها التشبيهات والاستعارات ؛ وضربوا فيها الأمثال الكثيرة ، وقالوا القصائد الطويلة فى وصفها ووصف سيرها ، وتغنوا بأشعارهم فى حُدَائها .

وكان لديهم الخيل يعنون بها ، واشتهر عند العرب كثير من أسماء الخيول ، وربما كانت أعز ما يباع عند العرب ، وكانوا يرسلونها على الصيد ، وأقاموا لها السباق ووضعوا الأسماء لخيل الحلبة ، فالمُجَلِّى ثم المُصَلِّى ثم المُسَلِّى الخ وكانوا ينصبون فى حلبة السباق قصبة ، فمن سبق اقتلعها وأخذها . وقالوا فى ذلك : "حاز قصب السبق" .

ولكن كانت الخيل — على كل حال — متاع المترفين ، أما الإبل فمتاع العرب جميعا ، لذلك كان ما ورد من اللغة والأدب فى الخيل أقل مما ورد جمعه فى الإبل .

*
* *

سادت بين العرب الحرب والغزو والسلب ، فالعلاقة بين القبائل سواء أكانت من أصل واحد أم أصول متعددة علاقة عداء غالبا ، ومن أجل هذا شغلت الحروب والقتال أكثر حياة القبائل والأفراد ؛ فالحجازيون يعادون اليمنيين أشد عداء ، وكان بين تميم وبكر بن وائل حروب تكاد تكون متواصلة ، وبين غطفان وهوازن كذلك . وإمارة الحيرة التى فى كنف الفرس بينها وبين إمارة غسان التى يظلها الروم عداء موروث . وقد رويت لنا عنهم حروب كثيرة ، والمؤرخون يسمون كل وقعة من الوقائع بين القبائل يوما . ويسمون هذه الحروب "أيام العرب" وقد ذكروا أن أبا الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ألف كتابا فى أيام العرب يشمل ألفا وسبعمائة يوم .

ولكن بين هذه الحروب كانت تنبعث علاقة صداقة بين الأفراد والقبائل تطول حينا وتقصر أحيانا ، كما كان ينبعث بعض الأصوات لبيان ويلات الحرب والدعوة إلى السلم ، كما ترى فى معلقة زهير بن أبى سُلْمَى فهى مرآة صادقة لتصوير هذه الحال إذ ذاك .

أوضح عاطفة عند العربى — فى هذا الباب — الانتقام والأخذ بالثأر ، يجن جنونه ، ويقلق به مضجعه إذا اعْتُدِىَ عليه حتى يأخذ بثأره أو يموت .

وكان ما ورثناه من أدبهم ظلًّا لهذه الحياة ؛ فقد ملئ الشعر الجاهلى بوصف الوقائع والحروب والتمدح بالأخذ بالثأر ، والفخر بالانتصار ، والأنفة من المذلة ، والاعتزاز بالقوة ، والحرص على الشرف ، وعدم الحرص على الحياة والمال . كما ملئ بوصف آلات الحرب من رماح وأسنّة وسهام ومجانّ ودروع وسيوف .

وكان لهذا النوع من الحياة أثر طبيعى ؛ وهو سيادة الأخلاق الحربية من شجاعة وكرم ووفاء . فأطنبوا فى مدحها ، وعَدُّوها عنوان الرجولة وسموها اسما جامعا وهو " المروءة " .

*
* *

وكان لهم من متع الحياة الصيد شغفت به بعض طبقاتهم . فقد يصطادون بالنبل والسهام ؛ وقد يصطادون بالحيوان المعلَّم ؛ كالكلب والفَهْد ؛ وقد قالوا إن كُلَيْب بن وائل أول من اصطاد بالفهد . وورد فى شعرهم كثير من الأبيات يصفون فيها صيد بقر الوحش ، وحمار الوحش وغيرهما . كما ورد فى أقوالهم صيد الأسد ، وقد سموا الحفرة التى تحفر للأسد إذا أرادوا صيده "الزُّبْيَة" ومن أمثالهم : "بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى" .

وكانت عادة شرب الخمر ولعب الميسر فاشية فيهم إلى أن حرمها الإسلام "إنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" .

ولذلك قلَّ أن ترى شاعرا جاهليا يتحدث عن حياته من غير أن يتحدث عن الخمر ، وكرمه إذا شرب . ولكن يظهر أن شرب الخمر كان عادة المترفين لا عادة الشعب ؛ فانه أفقر من أن يعتادها . وقد يتصل بالشراب الغناء ، فقد كان بعض الجوارى يغنين فى مجالس الشراب ، كما حكوا عن جاريتين كانتا تغنيان لعبد الله ابن جُدْعان تسميان الجَرَادَتَيْن .

والمرأة كانت تشارك الرجل فى كثير من شؤون الحياة ، فهى تحتطب ، وتجلب الماء ، وتحلب الماشية ، وتنسج الملبس والمسكن . وأغلبهن سافرات يقابلن الضيفان ، ويتحدثن إليهم ويخترن أزواجهن ، كما يدل على ذلك ما نقل إلينا من الأدب الجاهلى ، وكثيرا ما يستصحبهن الرجال فى الحروب ، ويقيمونهن خلفهم ليقاتل الرجال عنهن ، مخافة العار بسبيهن ، ولكن على العموم كن ضعيفات الشأن أيام الحروب ، والحياة العربية حياة حربية لاتغنى فيها النساء غناء الرجال ، لذلك حكى الله عن العرب فى القرآن الكريم أنهم كانوا يفرحون بولادة الذكور دون الإناث "وَإذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ . يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِى التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ" .

وعلى كل حال حلّت المرأة فى الشعر المكان الأول فلا تكاد تخلو قصيدة من الافتتاح بذكرها والغزل بها . وكثيرا ما حكى الشعراء النزاع بينهم وبين النساء ، فهن يتطلبن من الرجال الاقتصاد فى المال حتى يسعد البيت ويدوم الرخاء، والرجال تأبى إلا السَّرَف ، لأنه وسيلة الشرف ، كذلك كن كثيرا ما يَنْصحن بالحرص على الحياة ويأبى الرجل إلا الاستهتار بها طلبا لحسن الذكر .

أما الحضريون فهم أهل الأمصار والمدن ، يعيشون عيشة قرار ، قد اتخذوا الدور والقصور ، وكانوا أقل شجاعة وأشدّ حبا للمال وأكثر توفرا على وسائل الترف والنعيم . وكان اليمنيون أمعن فى الحضارة ، وقد نقل المؤرخون كثيرا من أحوالهم ، يدل على إفراط فى الترف من النسيج الفاخر ، وأطباق الذهب والفضة، وتزيين قصور أغنيائهم بأنواع الزينة . وقد أوصلهم إلى هذا كثرة الأموال فى أيديهم من طريق التجارة والزراعة، وكان أكثرَ الحجازيين تحضرا قريش فى مكة، فقد أغنتهم التجارة ومن يأوى إليهم من الحجاج فنعموا بما لم ينعم به غيرهم من سكان الحجاز .

حياة العرب الدينية — ولم يكن للعرب فى جاهليتهم دين واحد، بل اختلفوا طوائف ، فمنهم من عَبَدَ الكواكب ، فقد عرف بين اليمنيين مَن عَبد الشمس وحكى الله عن قوم منهم : "وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّه، وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ" وتَسمّى بعض العرب بعبد شمس . وعبدت كنانة القمر، وعبد قوم من لخم وخزاعة وقريش نَجْمَ الشِّعْرَى ورد الله عليهم فى قوله تعالى : "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى" وحكى القرآن الكريم عن قوم أنهم كانوا يعبدون الملائكة ، وآخرين يعبدون الجن : "وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ" .

وقد روى ان قوما من قريش اعتنقوا الزندقة ، أخذوها عن أهل الحيرة . وهذه الزندقة تقول بإلهين : إله النور ، وهو أصل كل خير . وإله الظلمة ، وهو أصل كل شر . وقوم من العرب أنكروا الأديان كلها وقالوا ما حكاه الله عنهم : "وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ" .

ولكن — على العموم — كانت أكثر الأديان انتشارا بين العرب الوثنية ، وهي عبادة الأصنام والأوثان ، وقد ذكر القرآن كثيرا من هذه الأصنام كاللات ، والْعُزَّى ، ومَنَاة ، ويَغُوثَ ، ويَعُوقَ ، ونَسْرا ، ووَدّا ، وسُوَاعا ، فمن أقدمها مَنَاة ، وكان منصوبا على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وكانت العرب جميعا تعظمه وتذبح له الذبائح ، وكان أشهر الناس إعظاما له الأوس والخزرج . وقد سمت العرب عبد مناة ، وزيد مناة ، وكان صنم اللات فى الطائف ، وقد بنت عليه ثقيف بناء ، وكانت قريش وسائر العرب تعظمه ، ويسمون زيد اللات وتيم اللات . وكانت العُزَّى أعظم الأصنام عند قريش .

وكانت لقريش أصنام فى جوف الكعبة وحولها ، وكان أعظمها هُبَل ، وقد ذكروا أنه كان من عقيق أحمر على صورة الإنسان أدركته قريش مكسور اليد اليمنى فجعلوا له يدا من ذهب .

وكانت حياة العرب متأثرة بهذه الأصنام ، فهم يُهدون إليها الهدايا ويذبحون عندها الذبائح ، ويستقسمون عندها بالقداح . وكان لأهل كل دار من مكة صنم فى دارهم يعبدونه ، فإذا اراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع فى منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفر كان أول ما يصنع إذا دخل منزله أن يتمسح به كذلك ؛ وكان لغير قريش بيوت كالكعبة تضع فيها أصنامها ، وتعظمها وتهدى لها وتطوف بها . ولكل بيت سَدَنَة وحُجَّاب .

وظلت هذه الأصنام تعبد حتى جاء الإسلام فحاربها أشد حرب ، وأزال من الكعبة كل ما فيها من أصنام ، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الرسل إلى البلاد المختلفة لتكسيرها أو حرقها حتى طهر جزيرة العرب منها .

وإذا نظرنا إلى الشعر الجاهلى من هذه الناحية رأيناه قليل التعرض للمسائل الدينية ، قليل الذكر للأصنام وعبادتها ، نعم قد يقسمون باللات أو اللات والعزى ، ولكن ذلك قليل ومظهر دينى غير كبير . وسبب ذلك إما أن العرب وخاصة طبقة الشعراء لم تكن تأبه كثيرا بالدين ولا تسودها العاطفة الدينية ، وإما أن رواة الشعر فى العصر الإسلامى لم يرووا من الشعر ما ظهرت فيه الوثنية ، تدينا .

وانتشرت بين العرب فى الجاهلية اليهودية والنصرانية ، وكان لكل منهما مناطق نفوذ :

فانتشرت اليهودية فى يثرب ، وهى التى سميت بعد هجرة رسول الله إليها بالمدينة ، وحول المدينة كانوا فى فَدَك وخَيْبَر . وكان يهود يثرب ثلاث قبائل : بنى النَّضير ، وبنى قَيْنُقاع ، وبنى قُرَيْظَة ، وكانت هذه القبائل اليهودية تقيم فى يثرب بين قبيلتى الأوس والخزرج ، وكانت العلاقة بين الطائفتين علاقة إخاء أحيانا ، وعداء أحيانا .

وكذلك انتشرت اليهودية فى اليمن ، ومن أشهر المتهودين منهم "ذو نُوَاس" أحد ملوكهم ، وقد تعصب لليهودية ، وأوقع بنصارى نَجْران فتعصب الحبشة لهم كما تقدم وغزوا اليمن انتقاما من ذى نواس . وتهود كذلك بعض الناس من كِنْدة وكِنانة ، واشتهر من شعراء اليهود السموءل بن عادياء .

أما النصرانية ، فانتشرت فى ربيعة وغسان وبعض قُضَاعة لترددهم على الروم ، وفى الحيرة فى قبائل شتى من العرب يقال لهم " الْعِبَاد " . وكان بنو تغلب من نصارى العرب ، وظل كثير منهم محتفظا بنصرانيته إلى ما بعد الإسلام ، ومن أشهر مواطن النصرانية فى اليمن مدينة نجران ، وكان نصارى نجران على مذهب اليعاقبة كالحبشة ، وكان القسوس والرهبان يَرِدون أسواق العرب ويعظون ويدعون إلى دينهم ، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار ، واشتهر من شعراء النصرانية فى الجاهلية قُسُّ بن ساعِدَة ، وأُمَيَّة بن أبى الصَّلْت ، وعَدِىّ بن زيد .

وكان فى العرب طائفة قليلة نظرت فى الأديان الفاشية بينهم فلم ترضها ، فلم تؤمن بالأصنام ولا باليهودية والنصرانية ، ونزعت إلى عبادة الله وحده ، وكانوا يسمَّون الْحُنَفاء . وكان منهم زيد بن عمرو بن نُفَيْل ووَرَقة بن نَوْفَل ، وعثمان ابن الحارث. وكانوا يقولون لقريش إنكم تعبدون ما لا يضر ولا ينفع من الأصنام، ولم يكونوا يحاورونهم فى شعائرهم ، ولا يأكلون ذبائحهم .

هذه خلاصة لما كان عليه العرب من تشعب فى الأديان ، واختلاف فى المذاهب وقد ظلوا فرقا أتى الإسلام فوحد دينهم ونشر بينهم عبادة الله وحده لا شريك له وجعل شعارهم : " لا إله إلّا الله " .

حياة العرب العقلية — فى مثل هذا الطور من الحياة الاجتماعية التى شرحناها لا يكون علم منظم ، ولا يكون علماء يتوافرون على العلم يدوّنون قواعده ، ويوضحون مناهجه . لأن العلم دائما نتيجة الحضارة ، إذ فيها يكثر المال ، وتتوافر سبل العيش ، فيجد قوم من وقتهم — مع سهولة الحصول على عيشهم — ما يمكنهم من التفرغ للعلم والبحث فى نظرياته وقضاياه .

ولكن إذا عدمت الكتب والعلم المنظم فهناك الطبيعة المفتوحة أمام أعينهم لا يحجبها دور ولا قصور ، ولا يصدهم عن النظر إليها صاد ، وهناك ما يستفيدونه من تجارب الحياة العملية ، وما يهديهم إليه العقل الفطرى ، وهذا ما كان فى الجاهلية ، فقد عرفوا كثيرا من النجوم ومواقعها ، والأنواء وأوقاتها ، وعرفوا طِبًّا هدتهم إليه التجارب وتوارثه جيل عن جيل ، وكانت لهم نظرات فى الحياة ، وخطرات فلسفية هدى اليها العقل السليم .

وقد تسرب إلى العرب بعض أخبار الفرس وملوكهم وحِكَمهم من أهل الحيرة، وبعض أخبار الروم من الغساسنة ، ومن تجار العرب الذين يتنقلون بتجارتهم فى هذه البلدان ، ولكن لم تكن معرفتهم بهذه الأمم معرفة تامة ، ولا دقيقة . بل دخلها بعض التحريف لكثرة الحوائل الطبيعية بين العرب وغيرهم من الأمم ، ولأن العرب كانت تغلب فيهم الأمية ولا يحسن القراءة والكتابة منهم إلا القليل ، فأغلب ما ينقل كان ينقل شفاها ، وذلك عرضة للتحريف .

كذلك حملت اليهودية والنصرانية إلى العرب فى الجاهية بعض ما فى التوراة والإنجيل ، وبعض الأخبار والقصص عن اليهود والنصارى فى الأمم المجاورة .

ولكن أكبر ما امتازت به العرب حدة الذكاء ، وحضور البديهة ، وفصاحة القول ، ولذلك كان أكبر مظاهر حياتهم العقلية لغتهم ، وشعرهم ، وخطبهم وأمثالهم ، وسيأتى بيان ذلك .

الأدب الجاهلى

مقدمة فى معنى الأدب وأقسامه (الشعر ، النثر ، الخطابة)

معنى الأدب — يعنون بالأدب كل ما عبر عن معنى من معانى الحياة بأسلوب جميل ، فلا بد لعد الشيء أدبا من ركنين ، معان تثير العاطفة : وألفاظ جميلة أديت بها المعانى . فالنظريات الرياضية ، ونظريات الطبيعة والكيمياء ليست أدبا ، لأنها حقائق مجردة تخاطب العقل لا العاطفة . أما الأدب فيثير العاطفة من حزن وسرور ، وإعجاب وكره ، وازدراء وشفقة ونحوها . والحقائق العلمية إذا كانت فى الأدب كان الغرض منها بعث الشعور لاسرد الحقائق ؛ فالنباتى مثلا إذا تكلم فى النبات فغرضه أن يبين طبيعته ، وأوجه الشبه بينه وبين أمثاله ، ووظيفة كل جزء منه ، والتغيرات التى تطرأ عليه ، أما الأديب فينظر إلى شجرة الورد مثلا ليلاحظ ما بين أجزائها من تناسب وتناسق ، ويرى أنها لم تخلق إلا لزهرتها الجميلة ، ولونها البديع .

كذلك لا بد فى الأدب من صياغة وتعبير جميل ، فالمعنى إذا لم يصغ هذه الصياغة وعبر عنه تعبيرا سخيفا لا يسمى أدبا .

أقسام الأدب — والأدب عادة ينقسم الى قسمين : شعر ، ونثر فنى :

الشعر — أول ما يلفت النظر فى الشعر ما فيه من وزن وقافية ، وقد طغت هذه النظرة على كثير فعرفوه بأنه : "الكلام الموزون المُقَفَّى". ولكنه بهذا التعريف يشمل الكتب المنظومة فى النحو وسائر العلوم . وبعضهم نظر إلى روح الشعر وموضوعه فعرّفه بأنه : " فيضان من شعور قوى نبع من عواطف تجمعت فى هدوء ".

والحق أن الشعر الصحيح لا بد فيه من ركنين : (١) إثارته للشعور ، (٢) وأوزانه الخاصة . فلو عُرِّف بأنه الكلام الموزون المقفى المنبعث عن عاطفة ، والمثير لعاطفة ، كان تعريفا أقرب الى الصواب . وقد يطلق النثر الشعرى أو الشعر المنثور على نوع من الأدب كان يكون شعرا لولا أنه فقد الوزن .

والوزن فى الشعر كالنغم فى الموسيقى ، وهو يعين على إثارة المشاعر ، لذلك كان المعنى الواحد إذا قيل مرة شعرا ومرة نثرا كان فى الشعر أكبر أثرا ، بل ترى الشعر إذا حُلَّ إلى نثر لم يكن له ذلك الأثر الشعرى ، وليس لهذا من سبب إلا ما فى الشعر من موسيقى . وهذه الأوزان فى الشعر تسمى بُحُوراً ، وهى ستة عشر بحرا صب فيها كل الشعر العربى إلا القليل ، وهى تختلف طولا وقصرا ، وتسمى أجزاؤها بالتفاعيل .

وللشعر خصائص منها : (١) أوزانه وقوافيه كما تقدم ، (٢) ومنها لغته ، فللشعر لغة غير لغة النثر ، وللشاعر ملكة يستطيع بها أن يتخير من ألفاظ اللغة ما يرى أنها أبعث على إثارة المشاعر ، وكذلك يستطيع بها أن يصبها فى قوالب خاصة ، يتخيرها من التراكيب الكثيرة ، وكثيرا ما يحسن لفظ أو تركيب فى النثر ولا يحسن فى الشعر . ويتفاوت الشعراء فى تلك المقدرة على الإفصاح ، ومن ثم كان من المستحيل ترجمة شعر الى شعر لأن الترجمة تذهب بما للشاعر من قدرته الفنية ، وطريقة أدائه ، والذى يترجَم هو المعنى الذى تضمنه الشعر وما فيه من خيال فقط ، (٣) الشعر يخاطب العواطف ، بما عند الشاعر من لطف النظر ، أو اللَّقَانة ، أو الإلهام . ولعل هذا هو الذى جعل شعراء العرب يعتقدون أن لكل شاعر شيطانا ينفث فيه الشعر ، (٤) والشعر مرآة كل عصر ، وديوان الأمم تسجل فيه حياتها وأفكارها ومشاعرها ، وهو أنواع مختلفة ليس هنا محل ذكرها .

النثر — أما النثر فيراد به كل ما عدا الشعر ، فكلامنا فى أحاديثنا وكتابتنا نثر ولكن كثيرا من النثر لا يعنى به الأدب ، إنما يعنى الأدب بالنثر المصقول المنمق ،

ولذلك خُصَّ هـذا النوع باسم : وهو النثر الفنى . ويتميز من الشعر بأنه لا يتقيد بوزن ولا قافية ، ومن ثم كان الناثر أكثر مطالبة بترتيب الألفاظ والجمل ، والشعر أكثر ما يعتمد على عاطفة الشاعر وشعوره وخياله ، والنثر المنمق أكثر ما يعتمد على العقل والمنطق والمعانى ، ومن أجل هـذا كان الشاعر يغذى المشاعر والخيال أكثر مما يغذى العقل ، وعلى العكس من ذلك النثر . ومن أجل هذا أيضا كانت مطالبة الناثر بمراعاة المنطق ، وتسلسل التفكير ، ووضوح المعانى أقوى . ومطالبة الشاعر بجمال اللفظ والمعنى وحسن الموسيقى وسمو الخيال أقوى .

والنثر الفنى أنواع كثيرة ، منها : الرسائل والمقالات . ومنها التاريخ الأدبى وتراجم الرجال . ومنها القصة ، ومن أهم أنواعه الخطابة .

الخطابة — هى نوع من النثر ، الغرض منه إقناع السامع بما يريده الخطيب ؛ ذلك أن الغـاية من الخطبة إثارة أذهان السامعين فى الموضوع الذى يتكلم فيه الخطيب ، وإثارة مشاعرهم حتى يشتركوا مع الخطيب فى الشعور بما يشعر به ، وتوجيههم لما يريد من عمل .

ويقسمونها — عادة — الى خطب سياسية كخطب مجالس النواب والأحزاب السياسـية ونحوها ، وخطب دينية كخطب الوعظ والإرشاد ، وخطب قضائيـة كخطب أعضاء النيابة .

ولا بد للخطيب فى جميع الأنواع من معرفة نفوس السامعين ، وعلم تام بالموضوع الذى يخطب فيه ، وقوة لسانية يستطيع بهـا أن يثير مشاعر السامعين ، ويدفعهم للعمل وفق ما يريد .

والخطابة عند العرب ركن عظيم من أركان أدبهم كما سيأتى بيانه ، وقد تفوق الجاهليون فى الشعر أكثر من تفوقهم فى النثر من خطب وأمثال ، والسبب

فى ذلك أن صناعة الشعر فى الأمم تسبق صناعة النثر الفنى ، لما ذكرنا من أن النثر الفنى الأنيق أحوج الى العقل والمنطق ، ولا تصل الأمة الى هذه الدرجة حتى تمر بدور العواطف والخيال ، ولأن أجلى ما فى مظاهر الحياة الاجتماعية فى الجاهلية عواطفها : من فخر بين القبائل ، ودعوة إلى الانتقام والأخذ بالثأر والتمدح بالكرم والغزل ، وهذه العواطف كلها إنما يعبر عنها أحسن تعبير الشعر ، لا النثر ، أما النثر فيعبر عن العقل الهادئ المفكر المثقف بالعلوم . وهذا ما لم يكن كثيرا فى الجاهلية .

الشعر الجاهلى

أوليته ، موطنه ، أثره فى الحياة العربية ، خصائصه ، فنونه
ألفاظه وأساليبه ، معانيه

أوليته — من العسير تحديد تاريخ لبدء الشعر الجاهلى،ذلك لأنه من الطبيعى أن كل علم وفن يبدأ بمحاولات ناقصة ترقى وتتم على مر الزمان . والشعر الجاهلى الذى وصل إلينا كامل فى أوزانه ، راق فى تعبيره ، راق فى معانيه ؛ فلا بد أن يكون قد سبق ذلك كله أقوال من الشعر لم يكن وزنها كاملا ، ولا نسجها محكما ، ولا معانيها راقية . ثم أخذت ترقى ويزول ما فيها من نقص حتى كانت القصائد والمعلقات بحالتها التى نقلت إلينا، وفى أقوال أقدم الشعراء الذين وصل إلينا شعرهم ما يدل على ذلك ، فقد رُوِى لامرئ القيس قولُه :

عُوجَا عَلَى الطَّلَلِ الْمُحِيلِ لَعَلَّنَا نَبْكِي الدِّيارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خِذَامِ

وابنُ خِذام هذا شاعر كان قبل امرئ القيس لم نسمع له شعرا . ويقول عنترة :

* هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ *

وأقدم شعر وصل إلينا كان أيام حرب البَسُوس ، أو قبل ذلك بقليل ، أى أنه لا يعدو مائة وثلاثين سنة قبل الهجرة .

وكان الشعراء الأولون يقولون الأبيات عند الحادث يعرض لهم ، أو عاطفة تهيج لها نفوسهم ثم ارتقوا فى هذا الباب ، فكانوا يقصِّدون القصائد . وقد ذكروا أن أول من فعل ذلك المُهَلْهِل بن ربيعة (خال امرئ القيس) وامرؤ القيس ، فى أواخر القرن الخامس الميلادى .

وكان الذى أثار المهلهل لقول الشعر قتل أخيه كُلَيْب وما تبعه من حرب بين بكر وتغلب . كما ذكر بعضهم أن الشعر بدأ بالرجز لسهولة وزنه (وهو : مستفعلن مستفعلن مستفعلن) ، ثم تنقل الشعراء إلى بحور الشعر الأخرى .

موطنه — وقد كثر الشعراء فى الجاهلية حتى ليكاد يكون لكل قبيلة شاعر أو شعراء ، ولكن ليسوا كلهم نابهين . وكل الشعراء الذين علا صيتهم كانوا فى الشمال — الحجاز وما إليها — فمنهم من كان من أصل يمنى رحل إلى الشمال كامرئ القيس من كِنْدَة ، والأَفْوَه الأَوْدِى مَن مَذْحِج ، وحاتم الطائى من طيئ . ومنهم من كان من أصل عدنانى إما من ربيعة كالمهَلْهِل ، والمُرَقِّش الأكبر والأصغر ، وطَرَفَة والحارث ابن حلِّزَة والمُتَلَمِّس والأعشى . وإما من مُضر ، وأشهر فروعها فى الشعر :

(١) فرع قيس : وكان منهم النابغة الذُّبيانى ، وزهير بن أبى سُلْمَى وابنه كَعْب ، ولَبِيد والحُطَيْئَة .

(٢) فرع تميم : وكان منهم أَوْس بن حَجَر ، وقد ذكر بعض مؤرخى الأدب أن الشعر كان أول أمره فى ربيعة ، ثم تحول إلى قيس ، ثم استقر فى تميم .

أثر الشعر فى الحياة العربية — كان الشاعر من ضرورات القبيلة ، يعلن مناقبها ، ويرد بشعره كيد أعدائها ، ويُحَمِّسها فى الحرب ، ويهديها فى السلم . فكان مقامه منها مقام صحف الأحزاب اليوم ، كل صحيفة تبين وجهة نظر حزبها ، وتدافع عن آرائه ، وتصد هجوم اعدائه ، وتنشر ما استطاعت مبادئه ، وتشيد بذكر مزاياه ومناقبه . كذلك كان الشعراء فى الحرب كموسيقى الجيش تثير فى النفوس الميل للقتال ، وتبعث على الاستماتة للانتصار . لذلك كانت القبيلة تغتبط بالشاعر ينبغ فيها وتعتقد أنه الذائد عن حوضها ، والرافع لشأنها . قال ابن رشيق فى كتابه العمدة : ”كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعون فى الأعراس ، ويتباشر الرجال والوِلدان ، لأنه حماية لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم“ ، يشيد بالخامل فيرفعه ، ويثلب الرفيع فيضعه ، ويسير قوله فى الناس فيكون له الأثر البعيد . لذلك كان الناس يتسابقون إلى إكرام الشعراء اتقاء لذمهم ،

أو رغبة فى مدحهم . والقصص كثيرة فى قبائل وأفراد خَمَلَتْ بهجاء الشعراء لها ، وآخرين نَبُهوا بإشادة الشعراء بذكرهم .

كذلك الشعراء كانوا — فى الجاهلية — من أرق الطبقات عقلا ، وأدقهم شعورا ، كما يدل على ذلك اشتقاق اسمهم ، سبقوا قومهم إلى إدراك كثير من حقائق الحياة ، فصاغوها فى شعرهم ، كما فعل زُهَيْر بن أبى سُلْمَى فى حِكَمِه ، وشعروا بما لم يشعر به الناس أو بما شعروا به ولكن لم يستطيعوا التعبير عنه ، فعبر الشعراء عن شعورهم ، وتغنوا بما فى نفوسهم ، فأرووا رغباتهم . والشعراء فى الأمم المتبدية يقومون بما يقوم به الفلاسفة والعلماء فى الأمم المتحضرة ، يرسمون المثل الأعلى ، ويفتحون أعين الناس لإدراك ما حولهم من شؤون الحياة ونقدها . وكذلك فعل الشعراء الجاهليون كما سنرى بعد .

فنون الشعر الجاهلى — قسم العرب الشعر إلى أبواب : حماسة وأدب وغزل وهجاء الخ . والفرنج يقسمون الشعر عادة إلى شعر الملاحم أو الشعر القصصى : ويعنون به الشعر الذى قيل فى الوقائع الحربية ، والمناقب القومية فى شكل قصة كإلياذة هوميروس ، وشاهنامة الفِرْدَوْسى . وشعر غنائى : وهو الشعر الذى يعبر به الشاعر عن شعوره ، وما يضطرب فى قلبه من عواطف كشعر الغزل والفخر . وشعر تمثيلى : وهو الشعر يصور حادثة ويتصور لها أشخاصا يُنْطِق كلا منهم بما يتفق وشخصيته وموقفه .

والشعر الجاهلى ليس فيه ملاحم طويلة مع كثرة حروب العرب وأيامهم ، فقد كان لهم من الوقائع الحربية ما لو نظم لكان ملحمة من أوفى الملاحم وأطولها ، وقد عللوا ذلك بضيق الخيال العربى ؛ ولكن يظهر أن السبب أن الملحمة نوع من أنواع التاريخ الأدبى ، أعنى تاريخا فى قالب شعرى ، وتدوين التاريخ وما يتطلبه من تحليل للأشخاص ، وربط الحوادث درجة لا تكون إلا مع قدر صالح من الحضارة .

ومع هذا فقد ورد قليل من القصص الصغيرة الساذجة فى شعرهم كالتى وردت فى معلقة عمرو بن كلثوم :

أبا هنـــد فلا تعجل علينـا ... وأنظـــرنا نخـــبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضًـا ... ونصدرهن حمرًا قد روينا (١)

وكقول الحارث بن حلزة :

أيهـا الشانئ المبـــلغ عنـا ... عند عمرو وهل لذاك بقـاء
من لنـا عنده من الخير آيا ... تٌ ثلاث فى كلهن القضـاء
آية شارق الشقيقـة إذ جا ... ءوا جميعًا لــكل حى لـواء
حول قيس مستلئمين بكبش ... قـــرظى كأنـه عبــلاء
وصتيت من العــواتك ماتنـ ... هاه إلا مبيضـــة رعـلاء
فرددناهم بضرب كما يخـ ... رج من خربة المـزاد المـاء
وحملناهم على حزن ثهـلا ... ن شلالا ودمى الأنسـاء
وجبهنـاهم بطعن كما تنـ ... هز عن جمـة الطوى الدلاء
وفعلنـا بهم كما علم اللـــ ... ـه وما إن للحائنين دماء الخ

وقول الأعشى فى حادثة السموءل :

شريح لا تتركنى بعد ما علقت ... حبالك اليوم بعد القد أظفارى
قد جلت ما بين بانقيا إلى عدن ... وطال فى العجم تردادى وتسيارى
فــكان أكرمهم عهدا وأوثقهم ... مجدا أبوك بعرف غير إنكار
كالغيث ما استمطروه جاد وابله ... وفى الشدائد كالمستأسد الضارى
كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... فى جحفل كهزيع الليل جرار
إذ سامه خطتى خسف فقال له : ... قل ما تشاء فإنى سامع حار
فقال : غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر ، وما فيهما حظ لمختـار
فشك غير طويل ثم قال له : ... اقتل أسيرك إنى مانع جارى
فاختار أدراعه كى لا يسب بها ... ولم يكن وعده فيهـا بختـار

---

(١) انظر بقية الأبيات فى المنتخب ج ٢ ص ١٢

أما أكثر أنواع الشعر الجاهلي فغنائي من هجاء وفخر وغزل ورثاء ووصف .

فالهجاء ربما كان أوضح مظهر من مظاهر الشعر الجاهلي وأكثر فنونه ، وذلك راجع إلى ماقدمنا من أن الحروب بين القبائل تكاد تكون متواصلة ، وكان حرب اللسان من طريق الشعراء صدى لصليل السيوف ووقع السهام . فالشاعر من قبيلة يهجو القبائل الأخرى ، ويعيرها بأفعالها ، وما صدر من أفرادها ، ويؤول ماصدر عنها تأويلا سيئا ، وقد يختلق عليها جرائم لم ترتكبها فيفعل الشعراء الآخرون فعله وينقضون عليه قوله [١] .

ويتبع ذلك الفخر بنفسه وبقومه،وما أتى وأتوا من مناقب وأعمال عظام [٢] .

---

(١) من أمثلة الهجاء :

قول النابغة الذبياني :

عَيَّرْتَنِي نَسَبَ الكِرَامِ وَإِنَّمَا ... فَخْرُ المَفَاخِرِ أَنْ يُعَدَّ كَرِيمَا
وَلَحِقْتَ بِالنَّسَبِ الَّذِي عَيَّرْتَنِي ... وَتَرَكْتَ أَصْلَكَ يَا يَزِيدُ ذَمِيمَا
لَوْلَا بَنُو عَوْفِ بْنِ بُهْثَةَ أَصْبَحَتْ ... بِالنَّعْفِ أُمُّ بَنِي أَبِيكَ عَقِيمَا

(٢) من ذلك قول امرئ القيس :

مَا يُنْكِرُ النَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ ... كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَهْ

وقول النابغة يفخر بنفسه بعد هجاء زُرْعة :

نُبِّئْتُ زُرْعَةَ وَالسَّفَاهَةُ كَاسْمِهَا ... يُهْدِي إِلَيَّ غَرَائِبَ الأَشْعَارِ
فَحَلَفْتُ يَا زُرْعَ بْنَ عَمْرٍو أَنَّنِي ... رَجُلٌ يَشُقُّ عَلَى العَدُوِّ ضِرَارِي
أَرَأَيْتَ يَوْمَ عُكَاظَ حِينَ لَقِيتَنِي ... تَحْتَ العَجَاجِ فَمَا شَقَقْتَ غُبَارِي
إِنَّا اقْتَسَمْنَا خُطَّتَيْنَا بَيْنَنَا ... فَحَمَلْتُ بَرَّةَ وَاحْتَمَلْتَ فَجَارِ

وكذلك قول السموءل :

وَإِنَّا أُنَاسٌ لَا نَرَى المَوْتَ سُبَّةً ... إِذَا مَا رَأَتْهُ عَامِرٌ وَسَلُولُ
يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجَالَنَا لَنَا ... وَتَكْرَهُهُ آجَالُهُمْ فَتَطُولُ
وَمَا مَاتَ مِنَّا وَاحِدٌ حَتْفَ أَنْفِهِ ... وَلَا طُلَّ مِنَّا حَيْثُ كَانَ قَتِيلُ

كذلك الغزل فقد شببوا بالنساء ، ووصفوا جمالهن ، كما وصفوا فعل الهوى بهن . والشعراء فى ذلك بين متهتك فى شعره فاحش ، كامرئ القيس ، وعفيف مثل عنترة وزهير .

ولهم شعر الحِكَم ، صاغوا فيه تجاربهم فى الحياة ، ونظراتهم إلى العالم ؛ وأخلاق من حولهم من الناس ، وقد نبغ فى ذلك الشَّنْفَرَى وزهير بن أبى سلمى فى معلقته .

وأجادوا فى وصف ما يحيط بهم من مناظر كوصف امرئ القيس لليل ، ولبيد وطرفة للناقة ، والشنفرى للذئاب الجائعة ، والنابغة لنهر الفرات ، وعنترة للرماح ، واستخدموا فى هذا الوصف تشبيهات رائعة ، اشتقها خيالهم من بيئتهم ، ولم يمعنوا فى التصورات الخيالية ، بل كانوا أقرب إلى وصف الواقع كما هو ، مستعينين بالخيال القريب .

خصائص الشعر الجاهلى وألفاظه ومعانيه — كان الشعر الجاهلى صورة صادقة لحياة العرب الاجتماعية التى شرحناها قبل ، ومن ثم قالوا : إن الشعر ديوان العرب سجلوا فيه حروبهم واخبارهم وعاداتهم وعقليتهم ، ودوّن فيه الشاعر ما رأى وما شعر ، ومزج فيه الحياه التى حوله بمشاعره ، وعبر عن ذلك بأصدق لفظ وأقربه ، وهو فى هذا يمتاز عن كل شعر عربى ظهر بعد ، لأن الشعر الجاهلى كله كان منبعثا عن النفس مُبْتَكَرًا خاليا من التقليد ، وما أتى بعده من شعر كان يحتذى حذوه ، ويسير على منهجه ، فلم يكن كله يعبر تعبيرا صادقا عن الحياة التى يحياها أهله .

ويمتاز الشعر الجاهلى بقلة التكلف ، وهذه نتيجة الحياة البدوية فكلما كانت الحياة ساذجة لا تكلف فيها ولا تعقيد ، كان الشعر خاليا من التكلف إلا فى القليل ، ومن نتائج ذلك القصد فى المبالغة ، فالشاعر الجاهلى أميل إلى الإيجاز يعبر عما يقصده بأقرب لفظ وأوجزه ، غير ميال إلى الإغراب . فان كانت هناك ألفاظ غريبة علينا فذلك لبعد عهدنا بالشاعر ، وعدم وقوفنا تاما على نوع حياته ومرمى ألفاظه . وهو أزهد ما يكون فى تزويق اللفظ وتجميله ، لا يتعمد إلى جناس أو ضرب آخر من البديع إلا أن يأتى عفوا .

تسير القصيدة فيه على منهج واحد تقريبا فهى — إذا استثنينا قصائد الرثاء وأمثالها — تبتدئ بالتشبيب بالمرأة ، وقد يصف انتقالها من مكانها ووقوفه على أطلالها ، وبكاء دمنها .وقد يصف جمالها ، ولوعته من حبها ، ثم يصف فرسه أو ناقته ، وسرعتها وسهولة سيرها .وقد يشبهها بما يعرف من الحيوانات الوحشية من وَعْل ونحوه ، ويخترع فى ذلك التشبيهات تدل على معرفته لعاداتها ، وأنواع معيشتها وقد يصف ما مر عليه فى طريقه . ثم ينتقل إلى غرضه من القصيدة بجاءة من غير تكلف فى الربط غالبا ، من فخر بقبيلته أو هجاء لغيرها ، أو وصف وقعة ، أو تحذير لقوم أو شخص من أن تحدثه نفسه بالتعدى على قومه .

ثم يقف فى قصيدته كذلك من غير تكلف فى الوقف . وقد يسوق أبياتا من الحكمة يختم بها قصيدته .

وأوضح ما يمثل هذه الخصائص ما روى لنا من المعلقات ، وقد بلغ أطولها مائة بيت وخمسة أبيات ، وأقصرها أربعة وستين بيتا .

*
* *

وهنا أمران يجب التنبه اليهما :

الأول — ان الشعر الجاهلي لم يدوَّن كتابة إلا في العصر العباسي الأول ، وقبل ذلك كان يتلقاه الناس شفاها ، وكان لكل شاعر في الجاهلية راوية يحفظ شعره ويروي عنه ، وكثيرا ما يكون الراوي نفسه شاعرا ، فقد ذكروا أن امرأ القيس كان راوية لأبي دُوَاد الإيادي ، وكان زهير راوية أوس بن حجر التميمي ، وكان الحطيئة العبسي راوية زهير المزني ، وهكذا .

وعدم تدوين الشعر الجاهلي عقيب صدوره جعل بعضه محلا للشك ، وجعل كثيرا من أبياته تروى على أوجه شتى من اختلاف في اللفظ ونحوه .

الثاني — ان الشعر الجاهلي كله ورد بلغة عدنان ولم يصل الينا شعر يمني . وقد ذكرنا قبل أن اليمنيين كانت لهم لغة تخالف لغة العدنانيين في كثير من شؤونها . وسبب ذلك أن موطن الشعر الجاهلي — كما أشرنا — كان شمال الجزيرة ، وأن هناك عوامل منذ أزمان قبل الإسلام عملت على توحيد لغات العرب وسيادة لغة قريش ، أهمها :

(١) هجرة كثير من اليمانية إلى ديار المضرية بالشمال وتكلمهم بلغتهم ، وقصد القبائل المختلفة مكة موطن قريش لزيارة الكعبة .

(٢) تجمع القبائل في الأسواق المختلفة ، وأهمها : سوق عُكاظ قرب مكة ، وعرضهم فيه خطبهم وشعرهم .

(٣) عدم الاهتمام برواية شعر لغة غير لغة القرآن ، إذ لا فائدة من الاستشهاد به لأن لغة حمير في حكم الأعجمية بالإضافة إلى لغة مضر . على أن شعر اليمانيين لم يكن يخلو من ألفاظ حميرية كقول امرئ القيس :

"وإنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ" . ففعل (هَرَاقَ) حميري و (أَرَاقَ) مضري .

فهذا كله جعل اللغات تتوحد ويزول تدريجيا ما بينهما من خلاف .

المعلقـات

اسم أطلق على قصائد طوال من الشعر الجاهلى . وسبب تسميتها بهذا الاسم ما رواه بعضهم من " أن العرب عمدت إلى سبع قصائد اختارتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القَبَاطِىّ المدرجة، وعلقتها فى أستار الكعبة، فمنه يقال مذهبة امرئ القيس ومذهبة زهير والمذهبات سبع ، وقد يقال لهـا المعلقات " وممن أيد هذا الرأى ابن عبد ربه صاحب العقد الفريد، وابن رشيق صاحب العمدة، وابن خلدون فى مقدمته وكلهم من المغاربة .

ومن العلماء من أنكر تعليقها على الكعبة ورأى أن هذه القصائد الطوال إنمـا جمعت فى العصر العباسى ، جمعها حَمّاد الراوية (أحد علماء الأدب ورواته والمتوفى سنة ١٥٦) ذلك أنه لمـا رأى زهد الناس فى الشعر جمع هذه القصائد وقال لهم انها هى المشهورات ، فسميت القصائد المشهورة . ولم يصح عند هؤلاء العلماء قول من قال إنها علقت على الكعبة .

وممن ذهب إلى هذا الرأى أبو جعفر النحاس أحد علماء اللغة والأدب المتوفى سـنة ٣٣٨ هـ . وكذلك الباحثون المحدثون ينقسمون إلى مذهبين ولكل على قوله أدلة لا محل لذكرها هنا .

كذلك يختلفون فى عدد المعلقات أو الطوال وعدد أصحابها فبعضهم يجعلها ثمانيا، وبعضهم يجعلها عشرا . والقول المشهور انها سبع وأن أصحابها هم امرؤ القيس وزهير وطرفة ولبيد وعنترة وعمرو بن كلثوم والحارس بن حِلِّزَة .

وعلى الجملة فهى من خير شـعر العرب وأدله على لغتهم ، وبلاغتهم ووصف حياتهم الاجتماعية ومناحيهم فى الحياة . عنى العلماء بجمعها وشرحوها شروحا مختلفة ، مختصرة ومطولة ، كما عنى كثير من المستشرقين بترجمـة بعضها إلى لغات مختلفة ودراستها والتعليق عليها .

أصحاب المعلقات

(١) امرؤ القيس[1]

هو من قبيلة كِنْدة ، وكندة قبيلة يمنية ، كانت تسكن قبل الاسلام غربى حضرموت ، وكانت على اتصال بالحميريين ، وفى عهد حسان بن تُبَّع ملك حمير كان حُجْر بن عمرو سيدُ كندة فى حاشية حسان . وقد فتح حسان فتوحا كثيرة فى جزيرة العرب ، فولَّى حُجْراً بعض قبائلها ودانت كلها لحُجْر الكندى ، كما دان حجر بالولاء لحمير . ونزل حجر نجدا ، وكان اللخميون ملوك الحيرة قد بسطوا نفوذهم على تلك البلاد ، وخاصة بلادَ بكر بن وائل ، فحارب حجر اللخميين وأزال نفوذهم .

وفى عهد الحارث بن عمرو بن حجر اتسع سلطان كندة ، واتصل الحارث بُقبَاذ ملك الفرس ، فولاه الِحيرَة مكان اللخميين ، ونشر نفوذه — وسط الجزيرة — على كثير من قبائل العرب ، وفرق الملك فى أبنائه الأربعة ، فولى ابنه حُجْراً (أبا امرئ القيس) بنى أسد ، وابنَه شُرَحْبِيل بكر بن وائل ، وابنه مَعْدِ يكَرِب قبيلة قيس وكنانة ، وابنه سَلِمَةَ قبيلتى تغلب والنَّمِر بن قاسط .

ولكن هذه السلطة لم تدم طويلا ؛ فقد عاد اللخميون إلى نفوذهم فى الحيرة وقربهم من ملك فارس ، ودسوا الدسائس لأولاد الحارث فقتل سلمة وشرحبيل ، وتنكر بنو أسد لحجر ، ونبذوا طاعته ، وأمسكوا عن دفع الإتاوَة له . واستعان حجر بجند من ربيعة وأعمل فى بنى أسد السيف ، واستباح أموالهم ، وحبس أشرافهم ، ومنهم عَبِيد بن الأبرص الشاعر ، ثم رق لهم وأطلق سراحهم فحقدوا

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو بن حجر بن عمرو بن معاوية بن الحارث الاكبر .

عليه واغتالوه ، وقد جاء فى أخبار الرومان أن حجرا هـذا (Ogdros) وأخاه معد يكرب قاما ببعض غزوات على حدود المملكة البيزنطية فى أواخر القرن الخامس الميلادى ، و بموت حجر تضعضعت سلطة كندة .

قُتل حُجْر وابنه امرؤ القيس غائب ، وقد وقع عليه عبء الأخذ بثأر أبيه من بنى أسد ، واسترداد ملكه .

من هذا نرى أن امرأ القيس نشأ فى بيت ملك واسع الجاه ، وأنه — وإن كان من أصل يمنى — قـد نشأ فى نجد وسط قوم عدنانيين يتكلم بلغتهم ويشعر بلسانهم . وأنه وقومه ورثوا العداء للخميين ، وكانت حياة ملوك كندة سلسلة حروب ومكايد بينهم و بين ملوك الحيرة .

وحياة امرئ القيس يحيط بها كثير من الغموض ،وتختلف فيها روايات الأدباء لبعد عهده و بداوة قومه . وتقول احدى هذه الروايات إنه نشأ نشأة ترف ، يحب اللهو ويشبب بالنساء، ويقول فى ذلك الشعر الماجن فطرده أبوه ، وآلى ألا يقيم معه ، فكان يسير فى أحياء العرب ، ومعه طائفة من شباب القبائل الأخرى، كطيء ، وكلْب ، و بكر بن وائل ، يجتمعون على الشراب والغناء عنـد روضة أو غدير ، ويخرج هو للصيد فيصيد و يطعمهم من صيده . وظل كذلك حتى جاءه نعى أبيه وهو بدَمُّون (قرية بالشام وقيل فى اليمن) فرووا أنه قال : " ضيعنى أبى صغيرا ، وحمّلنى دمه كبيرا ، لا صَحْوَ اليوم، ولا سُكْرَ غدا ، اليوم خمر وغدا أمر".

رحل امرؤ القيس يستنصر القبائل للأخذ بثأر أبيه من بنى أسـد فاستنجد بقبيلتى بكر وتغلب ،فأعانوه وأوقعوا ببنى أسد، وقتلوا منهم ، واكتفت بكر وتَغْلِب بذلك ، وقالوا له قد أصبت ثأرك وتركوه . ولكن امرأ القيس كان يريد التنكيل ببنى أسد، و يحاول ان يعيد لنفسه ملك أبيه ،فلم يقنعه ما فعلت بكر وتغلب،فذهب الى أهله فى اليمن يستنصرهم ، فأعانوه بجنود ذهب بهم إلى بنى أسد ، ولكن ملك

الحيرة أخذ يؤلب عليه ويدس الدسائس له حتى فشل — وظل شريدا يتنقل بين أمراء العرب — حتى نزل أخيرا على السموءل بتَيْماء فأجاره . وطلب إليه امرؤ القيس أن يكتب إلى الحارث — أمير الغساسنة بالشام — ليوصله إلى قيصر ملك الرومان ويمهد لامرئ القيس السبيل للسفر إلى القسطنطينية، يطلب المعونة منه ليعيد إليه ملكه ،فأجاب السموءل طلبه ،فأودعه امرؤ القيس امرأته وماله ودروعا كان يتوارثها ملوك كندة ، ورحل إلى قيصر،وكان ذلك فى عهد القيصر "يوستنيانوس".

وقد رووا أن القيصر أحسن وفادته، وكان السبب فى ذلك — على ما يظهر — أن امرأ القيس كان طريد اللخميين فى الحيرة ، وأمراء الحيرة فى كَنَف الفرس ، والفرس أعداء الروم ،فلعل "يوستنيانوس" أراد أن يعينه ويجعل منه ومن أعوانه جيشا ينتقم بهم من أمراء الحيرة ، ويصطنعه كما اصطنع غساسنة الشام .

وقد ذكر بعض مؤرخى الرومان خبر رحلته إلى القسطنطينية ، وسموه "قيسا" لا امرأ القيس ، وذكروا أن القيصر وعده بإعادة ملكه ثم ولاه فلسطين. ولكن هذا لم يرض امرأ القيس فقفل راجعا .

ولكن مؤرخى العرب يروون أن القيصر قَبِلَ وفادته وضم إليه جيشا ، وفيهم جماعة من أبناء الملوك ،وأن قوما من أصحاب قيصر قالوا له : "إن العرب قوم غدر، ولا تأمن أن يظفر بما يريد ثم يغزوك بمن بعثت معه" .

وآخرون يروون أن بعض العرب ممن كان مع امرئ القيس ذكروا للقيصر أن امرأ القيس قال لقومه إنه كان يراسل ابنتك ويواصلها ، فأرسل قيصر إليه حلة مسمومة فلما لبسها أسرع فيه السم وسقط جلده،ومن أجل هذا سمى "ذا القروح" ومات بأنقره وهو عائد من القسطنطينية . والظاهر أن امرأ القيس أصيب فى أثناء عودته بمرض جلدى سبب له قروحا فنسج الرواة حول ذلك هذه الأسطورة .

على كل حال من المرجح أنه سافر إلى القسطنطينية ، وأنه لم يفز بكل ما أمّل من قيصر ، وأنه مات فى أثناء عودته ، وأن ذلك كان حول سنة ٥٤٠ م أو بعد ذلك بقليل .

*
* *

ويظهر أن دين امرئ القيس كان الوثنية ، وان كان غير مخلص لها ، فقد رووا أنه لما خرج للأخذ بثأر أبيه مر بصنم للعرب تعظمه يقال له ذو خَلَصَة ، فاستقسم بقداحه ، وهى ثلاثة : الآمر والناهى والمتربص . فأجالها فخرج الناهى ، فعل ذلك ثلاثا فجمعها وكسرها ، وضرب بها وجه الصنم وقال : " لو كان أبوك قتل ما عُقْتَنِى " .

وكان امرؤ القيس يلقب بالملك الضِّلِّيل لغوايته وعهره ، وبذى القروح لما أصيب به فى مرضه كما أسلفنا .

شـــعره

أجمع مؤرخو الأدب على أن امرأ القيس أسبق شعراء العربية إلى ابتداع المعانى ، والتعبير عنها ، وأنه افتتح أبوابا من الشعر ، ووفق إلى تشبيهات ، وطَرَق موضوعات لم يُسبق إليها ؛ ففتح باب الغزل وأطال الوصف ، وأمعن فيه ، وأبدع فى تصويره . هـذا إلى لفظ جزل موجز ، وسبك مُحْكَم يتخلله مثل مرسل ، وحكمة بالغة .

وكان شعره مرآة لحياته ، وتاريخ قومه ، فقد ذكرنا أنه كان لاهيا مولعا بالشراب ، وما إليه ، فكذلك كان شعره فى شبابه ؛ خمر ونساء وصيد [1] .

وهو مُتْرَف أشد الترف يخرج إلى الصيد بالطهاة يطهون له واصحبه ما يصيد :

وظل طُهاةُ اللّحمِ ما بينَ مُنْضِجٍ   صَفِيفَ شِـواءٍ أَوْ قَدِيرٍ مُعجَّلِ

حتى إذا انتهت حياة اللهو والترف و مل عبء أبيه كان شعره صورة لآماله :

فَلَوْ أنَّ مَا أسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ   كَفَانِي ـ ولَمْ أَطْلُبْ ـ قَلِيلٌ مِنَ المَـالِ

وَلَكِنَّما أَسْـعَى لِمَجْدٍ مُؤَثَّلٍ   وَقَدْ يُدْرِكُ المَجْـدَ المُؤَثَّلَ أَمْثَالِي

---

(١) من ذلك قوله فى النساء :

وبيضةِ خِدْرٍ لا يُرامُ خِباؤُها   تَمتعتُ مِنْ لَهْوٍ بها غيرَ معجلِ

تجاوزتُ أحْراسًا إليها ومَعْشَرًا   عليَّ حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

الخ الأبيات .   (انظر الأبيات فى المنتخب ج ٢ — ص ٣) .

وهو يصف حزنه على أبيه ، وتهديده لقتلته بني أسد :

تَطَاوَلَ لَيْلُكَ بِالأَثْمُدِ ... وَنَامَ الخَلِيُّ وَلَمْ تَرْقُدِ (١)
وباتَ وباتَتْ له لَيْلَةٌ ... كَلَيْلَةِ ذِي العَائِرِ الأَرْمَدِ (٢)
وذلك مِن نَبَإٍ جاءني ... وخُبِّرْتُهُ عَن أَبِي الأَسْوَدِ
وَلَوْ عَنْ نَثَا غَيْرِهِ جاءَنِي ... وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ (٣)
لَقُلْتُ مِنَ القَوْلِ ما لا يَزَا ... لُ يُؤْثَرُ عَنِّي يَدَ المُسْنَدِ (٤)

* * *

فَإِنْ تَدْفِنُوا الدَّاءَ لا نُخْفِهِ ... وَإِنْ تَبْعَثُوا الحَرْبَ لا نَقْعُدِ
وَإِنْ تَقْتُلُونَا نُقَتِّلْكُمُو ... وَإِنْ تَقْصِدُوا لِدَمٍ نَقْصِدِ

* * *

وأَعْدَدْتُ لِلْحَرْبِ وَثَّابَةً ... جَوَادَ المُحَثَّةِ وَالمُرْوَدِ

وهو يتردد فى القبائل يستصرخها ، يمدح من نصره ، ويذم من خذله ، فيمدح سعد بن ضَبَاب الإيادى ، وكان قد نزل به فأنجده :

سأشكُرُكَ الذِي دافعتَ عَنِّي ... وما يَجْزِيكَ مِنِّي غيرُ شُكْرِي
فما جارٌ بِأَوْثَقَ مِنكَ جاراً ... ونَصْرُكَ للفَرِيدِ أَعَزُّ نَصْرِ

ويهجو سُبَيْع بن عوف :

أَبْلِغْ سُبَيْعاً إِنْ عَرَضْتَ رِسَالَةً ... إِنِّي كَظَنِّكَ إِنْ عَشَوْتَ أَمَامِي
أَقْصِرْ إِلَيْكَ مِنَ الوَعِيدِ فَإِنَّنِي ... مِمَّا أُلاقِي لا أَشُدُّ حِزَامِي

ثم هو يذهب إلى قيصر فيصف ذلك فى شعره :

بكى صاحِبِي لمَّا رأى الدَّرْبَ دُونَهُ ... وأَيْقَنَ أَنَّا لاحِقَانِ بِقَيْصَرَا
فقلتُ لَهُ لا تَبْكِ عَيْنُكَ إِنَّمَا ... نُحَاوِلُ مُلْكاً أَوْ نَمُوتَ فَنُعْذَرَا

وهكذا كان شعره صورة صحيحة لما روى من حياته .

---

(١) الأثمد اسم موضع . (٢) العائر الذى يجد وجعا فى عينه وهو فى هذا البيت الوجع نفسه .
(٣) النثا الحديث . (٤) المسند الدهر يريد أبدا .

وأشهر شعره معلقته وهى من البحر الطويل ، مطلعها :

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ بِسِقْطِ اللِّوَى بَيْنَ الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

وتقع فى واحد وثمانين بيتا . والظاهر أنه قالها أو أكثرها فى أيام شبابه ولهوه وأن موضوعها الغزل فى بنت عمه عُنَيْزة .

وقد بدأها بالبكاء على الأطلال ، وتبريح الهوى به :

وُقُوفًا بها صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهُمْ يقولون لا تَهْلِكْ أَسًى وَتَجَمَّلِ
وَإِنَّ شِفَائِى عَبْرَةٌ مُهَرَاقَةٌ فَهَلْ عِنْدَ رَسْمٍ دَارِسٍ مِنْ مُعَوَّلِ

ثم ينتقل إلى الغزل ، ويذكر أيام لهوه مع أحبته ولا سيما يومه بدارة جُلْجُل . وهو فى غزله هذا فاجر داعر، لا يتعفف عن وصف ولا يكتفى بإيماء ، ويستمر فى هذا إلى البيت الثانى والأربعين ، ثم ينتقل إلى سلسلة من الأوصاف فيصف الليل :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ أَرْخَى سُدُولَهُ عَلَىَّ بِأَنْوَاعِ الْهُمُومِ لِيَبْتَلِى
فَقُلْتُ لَهُ لَمَّا تَمَطَّى بِصُلْبِهِ وَأَرْدَفَ أَعْجَازًا وَنَاءَ بِكَلْكَلِ
أَلَا أَيُّهَا اللَّيْلُ الطَّوِيلُ أَلَا انْجَلِى بِصُبْحٍ وَمَا الْإِصْبَاحُ مِنْكَ بِأَمْثَلِ
فَيَا لَكَ مِنْ لَيْلٍ كَأَنَّ نُجُومَهُ بِكُلِّ مُغَارِ الْفَتْلِ شُدَّتْ بِيَذْبُلِ

حتى إذا بلغ غايته أخذ فى وصف واد مقفر تعوى فيه الذئاب :

وَوَادٍ كَجَوْفِ الْعَيْرِ قَفْرٍ قَطَعْتُهُ بِهِ الذِّئْبُ يَعْوِى كَالْخَلِيعِ الْمُعَيَّلِ

ثم وصف فرسه ، وسرعة عدوه :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقْبِلٍ مُدْبِرٍ مَعًا كَجُلْمُودِ صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ مِنْ عَلِ

إلى أن يقول :

لَهُ أَيْطَلَا ظَبْىٍ وَسَاقَا نَعَامَةٍ وَإِرْخَاءُ سِرْحَانٍ وَتَقْرِيبُ تَتْفُلِ

ثم يصف صيده لبقر الوحش :

فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نِعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِى مُلَاءٍ مُذَيَّلِ

و ينتقل من ذلك الى وصف البرق :

أَصَاحِ تَرَى بَرْقاً أُرِيكَ وَمِيضَهُ كَلَمْعِ الْيَدَيْنِ فِى حَبِيٍّ مُكَلَّلِ
يُضِىءُ سَنَاهُ أَوْ مَصَابِيحُ رَاهِبٍ أَهَانَ السَّلِيطَ بِالذُّبَالِ الْمُفَتَّلِ

ويظهر أن البرق تبعـــه المطر ، فانتقل من وصف البرق إلى وصف المطر وآثاره :

كَأَنَّ ثَبِيراً فِى عَرَانِينِ وَبْلِهِ كَبِيرُ أُنَاسٍ فِى بِجَادٍ مُزَمَّلِ
كَأَنَّ ذُرَا رَأْسِ الْمُجَيْمِرِ غُدْوَةً مِنَ السَّيْلِ وَالْغُثَّاءِ فَلْكَةُ مِغْزَلِ

ويختتمها بأن الطيور لما رأت الخصب والمطر فرحت وغنت كانها سكارى :

كَأَنَّ مَكَاكِىَّ الْجِوَاءِ غُدَيَّةً صُبِحْنَ سُلَافاً مِنْ رَحِيقٍ مُفَلْفَلِ

*
* *

وله مطولات أخرى ذكرت فى ديوانه . وهو على كل حال قد امتاز بجودة الوصف ، ولا سيما النساء والفرس والصيد ، كما امتاز بكثرة التشبيه المبتكر ، فشبه النساء بالظباء والبَيْض . وشبه الخيل بالعِقْبان والعِصِىّ إلى كثير من أمثال ذلك . وقلَّ أن ترى له أبياتا خلت من التشبيه . وكان لرحلاته الكثيرة إلى الشام واليمن وغيرهما أثر فى سعة خياله ، وحسن تصويره ، واستعمال ألفاظ جديدة ، فشبه فى معلقته إشراق محبوبته بسراج الراهب [١] وشبه ترائبها (وهى موضع القلادة منها) بالسَّجَنْجَل (وهى كلمة رومية معناها المرآة [٢]) وهكذا .

---

(١) تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة مُمْسَى راهب متبتل

(٢) مهفهفة بيضاء غيرُ مُفاضة ترائبها مصقولة كالسجنجل

وأورث امرؤ القيس الأدب العربى أبياتا كثيرة يتمثل بها كقوله : "وحَسْبُكَ من غِنًى شِبعٌ ورِىٌّ". وقوله :

وقـد طَوَّفْتُ فى الآفاق حتى رضِيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

وقوله :

بَنُــو أَسَــدٍ قَتَــلُوا رَبَّهُمْ ألا كلُّ شىءٍ سِــواهُ جَلَلْ

وقوله :

وإنَّكَ لم يَفْخَرْ عليك كفاخِرٍ ضَعِيفٍ ولمْ يغلِبْكَ مِثلُ مُغَلَّبِ

وقوله :

كذلك جَدِّى لا أُصَاحِبُ صاحِبًا مِنَ النَّاسِ إلا خَانَنِى وتَغيَّرَا

وديوان امرئ القيس مشروح عدة شروح طبع فى باريس ومصر فارجع إليه .

***

وقد شك العلماء فى بعض قصائد وأبيات نسبت إليه ؛ إما لأنها لم تنقل عن الرواة الثقات ، وإما لأنها لا تناسب ما عرف عن حياة امرئ القيس . كالذى ينسب إليه فى المعلقة :

وقِرْبَةِ أقوام جَعَلْتُ عِصَامَها على كاهِلٍ مِنى ذَلُولٍ مُرَحَّلِ

الأبيات .

فإنه فى هذه الأبيات يذكر أنه يحمل القربة ويقطع الأودية الخالية ويعاشر الذئاب . هذا إلى فقر وهزال عيش ، وذلك كله لا يناسب ما عرف من حياة امرئ القيس ، وإنما هى بحياة الشَّنْفَرى وتَأَبَّطَ شرًّا وأشباهِهما من صعاليك العرب أَشْبَهُ .

(٢) طرفة

طرفةُ بن العَبْد من قبيلة بكْر بن وائل ، وبكر من ربيعة ، فهو شاعر رَبَعِيّ . وكان هو وقومه يعيشون فى البحرين (على الخليج الفارسى) وقد رووا أن أباه مات وهو صغير فظلمه أعمامه واغتصبوا حقا لأمه (واسمها وَرْدَة) فنطق بالشعر فى هجائهم وقال :

ما تَنْظُرُونَ بِحَقِّ وَرْدَةَ فِيكُمُ　　صَغُرَ البَنُونَ ورَهْطُ وَرْدَةَ غُيَّبُ
قَدْ يَبْعَثُ الأَمْرَ العَظِيمَ صَغِيرُهُ　　حَتَّى تَظَلَّ لَهُ الدِّمَاءُ تَصَبَّبُ
والظُّلْمُ فَرَّقَ بَيْنَ حَيَّيْ وَائِلٍ　　بَكْرٍ تُسَاقِيهَا المَنَايَا تَغْلِبُ
قَدْ يُورِدُ الظُّلْمُ المُبِينُ آجِنًا　　مِلْحًا يُخَالَطُ بِالذُّعَافِ وَيُقْشَبُ

وعاش عيشة لهو ينفق أمواله فى الخمر وما إليها متنقلا فى البلاد ، حتى أضاع ماله ، ثم عاد إلى أهله فأمده أخوه بمال أتلفه كذلك ، فقصد إلى ملك الحِيرَة — عمرو بن هند — الذى تبوأ الملك سنة ٥٥٤ م وكان الشعراء يرحلون إليه وينشدونه قصائدهم فى مدحه فيعطيهم ، فوفد عليه طرفة مع خاله المُتَلَمِّس فأحسن وفادتهما وجعلهما فى صحابة أخيه قابوس . وكان قابوس مرشحا للملك بعده ، وكان شابا يعجبه اللهو ويخرج للصيد ، فكان يخرج معه طرفة إذا خرج ، وينادمه إذا شرب . ولكنه وقد نشأ حرا طليقا مل هذا النوع من الحياة ، مل أن يخرج معه للصيد تابعا ، ويقف ببابه حتى يؤذن له ، فانطلق لسانه فى هجاء عمرو بن هند وأخيه قابوس . وبلغ ذلك عمرا فكتم ذلك وبعث طرفة إلى عامله بالبحرين وأعطاه صحيفة فيها الأمر بقتله ، موهما له أنه كتب إليه بجائزة . فقتله عامل البحرين ولم يتجاوز السادسة والعشرين من عمره .

شعره — أكبر آثاره معلقته الدالية وهى أطول معلقة ، فتقع فى خمسة ومائة بيت . والظاهر أنه قالها قبل اتصاله بعمرو بن هند وبعد أن أنفق ماله فى اللهو وعاد

إلى قومه صِفْرَ اليدين . وموضوع المعلقة نفسه وشرح حالته ونظره الى الحياة ، لم يقصد فيها إلى مديح ، وما أتى فيها من غزل يجرى على المألوف وليس هوموضوع القصيدة — مطلعها فى وصف الفراق :

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ تَلُوحُ كَبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وُقُوفًا بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ يقولون لاتهلِكْ أسًى وتَجَلَّدِ

وفى شعره فى هذه القصيدة ظاهرة واضحة ، فقد ذكرنا أن مسكنه وقومه على الخليج الفارسى حيث الماءُ والأمواجُ والسفنُ والملاحة . لذلك كانت تشبيهاته مشتقة من بيئته . فشبه حُدُوجَ المالِكيّة وهو مَرْكَبُ "خَوْلَةَ" بالسفينة ، وشبه سير الإبل وأنها تضل أحيانا وتهتدى أحيانا بالسفين "يجور بها الملاح طورا ويهتدى" فيقول :

كَأَنَّ حُدُوجَ الْمَالِكِيَّةِ غُدْوَةً خَلَايَا سَفِينٍ بِالنَّوَاصِفِ مِن دَدِ
عَدَوْلِيَّةٌ أو مِنْ سَفِينِ ابنِ يامِنٍ يَجُورُ بِهَا الْمَلَّاحُ طَوْرًا وَيَهْتَدِي
يَشُقُّ حُبَابَ الْمَاءِ حَيْزُومُهَا بِهَا كما قَسَمَ التُّرْبَ الْمُفَايِلُ بِالْيَدِ(١)

وكما فعل فى ناقة خَوْلَةَ فَعَلَ فى ناقته هو ، فقد وصف ناقته وأطال فى ذلك ، فقد استغرق وصفها ثمانية وعشرين بيتا ، ووصف كل عضو واخترع له تشبيها ؛ فعِظَامُها كألواح الْإرانِ — وهو تابوت كان العرب يحملون فيه سادتهم وكبراءهم — وشعر ذنبها بجناحَىْ نَسْرٍ يضرب إلى البياض ، وفخذاها كبابى قصر منيف :

لَهَا فَخِذَانِ أُكْمِلَ النَّحْضُ فِيهِمَا كَأَنَّهُمَا بَابَا مُنِيفٍ مُمَرَّدِ

وشبه علوها بقنطرة الرومى ، وعنقها — إذا رفعته — بِسُكَّانِ سفينة تجرى فى نهر دجلة :

وَأَتْلَعُ نَهَّاضٌ إذا صَعَّدَتْ بِهِ كَسُكَّانِ بُوصِيٍّ بِدِجْلَةَ مُصْعِدِ

وهكذا حتى يستتم وصفها .

---

(١) انظر المنتخب جزء ٢ ص ٣٨

ثم انتقل الى الغرض الذى رمى إليه من المعلقة ، وهو الفخر بنفسه والاعتداد بصفاته ، ونظراته إلى الحياة ، فهو فتى الفتيان :

إذا القومُ قالوا مَنْ فتىً خِلت أننى ... عُنِيتُ فلم أكْسَلْ ولم أتبَلَّدِ

وهو كريم لا يبخل بالعطاء ، وذو رأى فى المشورة يُلْجَأُ إليه ، وذو نسب رفيع يعز من انتسب إليه :

ولست بِحَلَّالِ التِّلاع مخافةً ... ولكنْ متى يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِدِ
وإنْ تَبْغِنِى فى حَلْقةِ القومِ تَلْقَنِى ... وإن تقتنِصْنى فى الحوانيتِ تصطدِ
متى تأْتِنى أَصْبَحْكَ كأسا رَوِيَّةً ... وانْ كنت عنها غانِيًا فاغْنَ وازْدَدِ
وإنْ يَلْتَقِ الحَىُّ الجميعُ تُلاقِنِى ... إلى ذِرْوَةِ البيتِ الرفيعِ المُصَمَّدِ

ثم يصف انهماكه فى اللهو والشراب وإتلافه أمواله حتى تحامته العشيرة وأفردته إفراد البعير الأجرب . ثم يرد على من عنفه فى سلوكه و إنفاقه حياته بين غشيان الوغى وشهود اللذات بأن الحياة فانية والخلود محال :

أَلا أَيُّهذا الزَّاجِرِى أَحْضُرَ الوَغَى ... وأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَّاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدِى
فإنْ كنتَ لا تَسْطِيعُ دَفْعَ مَنِيَّتِى ... فَدَعْنِى أُبَادِرْها بما مَلَكَتْ يدى

ويستمر فى شرح مذهبه فى اللهو واللذة ، ومذهبه فى الموت وأنه يسوى بين البخيل والمسرف :

أَرَى قَبْرَ نَحَّامٍ بَخِيلٍ بِمالِهِ ... كَقَبْرِ غَوِىٍّ فِى البَطَالَةِ مُفْسِدِ
تَرَى جُثْوَتَيْنِ مِن تُرَابٍ عليهما ... صفائحُ صُمٌّ مِن صَفِيحٍ مُنَضَّدِ
أَرَى الموْتَ يَعْتَامُ الكِرَامَ وَيَصْطَفِى ... عَقِيلَةَ مالِ الفَاحِشِ المُتَشَدِّدِ
أَرَى العَيْشَ كَنْزًا ناقِصًا كُلَّ لَيْلَةٍ ... وما تَنْقُصِ الأَيَّامُ وَالدَّهْرُ يَنْفَدِ
لعمرُكَ إنَّ المَوْتَ ما أَخْطَأَ الفَتَى ... لَكَالطِّوَلِ المُرْخَى وثِنْيَاهُ بِاليَدِ

ثم ينتقل إلى عتاب ابن عمه لأنه لم يعنه على استرداد إبل لأخيه مَعْبَد قد سلبت ، ويشكو من ظلم قومه له :

وَظُلْمُ ذَوِى الْقُرْبَى أَشَدُّ مَضَاضَةً   عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقْعِ الْحُسَامِ الْمُهَنَّدِ

وبعد أن ينتابه الحزن من استعراض ذلك تأبى نفسه الاستسلام لليأس فيرفع رأسه ويفخر بنفسه :

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الذى تَعْرِفُونَه   خَشَاشٌ كَرَأْسِ الْحَيَّـةِ الْمُتَوَقِّدِ
فَآلَيْتُ لا يَنْفَكُّ كَشْحِى بِطَانَةً   لِعَضْبٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ مُهَنَّـدِ

وختمها بأبيات حكيمة كما فعل زهير :

سَتُبْدِى لَكَ الأيامُ ما كُنْتَ جَاهِلاً   وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ
وَيَأْتِيكَ بِالأَنْبَاءِ مَنْ لَمْ تَبِعْ لَهُ   بَتَاتًا وَلَمْ تَضْرِبْ لَهُ وَقْتَ مَوْعِدِ

وعلى الجملة فقد عدت معلقة طرفة من خير القصائد ، لما فيها من معان جديدة فتحت على الشعراء شرح حالات النفس ، وأتت بمعان جديدة لم يسبق إليها ، هذا إلى سلاسة فى اللفظ ووضوح المعنى من غير إسفاف . ولم يشذ عن ذلك إلا وصفه للناقة ففيه نوع إغراب ، ويكاد يكون شعر ربيعة كله ممتازا بهذا الوصف : سهولة اللفظ ووضوح المعنى ، كما امتاز شعر مضر بالمتانة والقوة . كما تمتاز هذه المعلقة بأنها تصف وصفا دقيقا حياة اجتماعية لطبقة خاصة من طبقات العرب ؛ طبقة فتيان يضيعون أموالهم فى اللهو والشراب ولا يعبئون بالحياة ؛ يطلبون المجد من طريق الكرم وبذل المال فى الحروب ، ثم لتكن النتيجة بعد ما تكون ، فالموت يسوى بين الغنى والفقير ، والبخيل والكريم . وليس هذا — من غير شك — وصفا لكل حياة الطبقات ؛ فهناك طبقة أخرى يمثلها شعر زهير كما سترى ، وكل شاعر كان يعبر عن حياته وبيئته وطبقته والحالة النفسية الغالبة عليه .

ولطرفة ديوان جمعت فيه أشعاره ومن مطولاته غير المعلقة قصيدة رائية مطلعها :

أَصَحَوْتَ الْيَوْمَ أَمْ شَاقَتْكَ هِرْ ... وَمِنَ الْحُبِّ جُنُونٌ مُسْتَعِرْ

وقصيدة أخرى يشك فيها بعض العلماء مطلعها :

سائلوا عنا الذى يعرفنا ... بِخَزَازٍ يَوْمَ تَحْلاقِ اللِّمَمْ

يفتخر فيها بيوم تحلاق اللمم ، وهو يوم انتصرت فيه بكر على تغلب .

وفيها يقول :

خَيْرُ حَيٍّ مِنْ مَعَدٍّ عَلِمُوا ... لِكَفِيٍّ وبِجَارٍ وابنِ عَمْ

يَجْبُرُ الْمَحْرُوبُ فِينا مَالَهُ ... بِبِنَاءٍ وَسَوَامٍ وَخَدَمْ

نُقُلٌ لِلشَّحْمِ فِي مَشْتَاتِنَا ... نُحُرٌ لِلنِّيبِ طُرَّادُ الْقَرِمْ

نَزَعُ الْجَاهِلَ فِي مَجْلِسِنَا ... فَتَرَى الْمَجْلِسَ فِينا كَالْحَرَمْ (الخ)

ومما ينسب إليه قوله يخاطب عمرو بن هند :

أَبَا مُنْذِرٍ أَفْنَيْتَ فاستبقِ بَعْضَنَا

حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وقوله :

وَإِنَّ أَحْسَنَ بيتٍ أنت قائِلُهُ ... بيتٌ يقال إذا أَنْشَدْتَهُ صَدَقَا

وقوله :

خَالِطِ النَّاسَ بِخُلْقٍ واسعٍ ... لا تَكُنْ كَلْبًا على الناسِ تَهِر

وقوله :

نَحْنُ فِي الْمَشْتَاةِ نَدْعُو الْجَفَلَى ... لَا تَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرْ

وعلى الجملة فما صح من شعره قليل لموته شابا كما ذكرنا .

(٣) عَمْرُو بن كُلْثُوم

عمرو بن كلثوم من قبيلة تَغْلِب، كان أبوه كُلثوم سيد قومه، وأمه ليلى بنت المهلهلِ أحدِ الشعراء المشهورين. وتغلب كانت تسكن الجزيرة وما حولها، وكانت من أعز قبائل العرب حتى قالوا: "لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس".

وكانت تغلب فى نزاع مع بكر، وكان بينهما حرب البَسُوس كما قدمنا، حتى أصلح بينهما المنذر ملك الحيرة، واتخذ من كل منهما رهينة من الغلمان حتى لا يعودوا إلى القتال. ولما تولى الحيرة عمرو بن هند حذا حذو أبيه، فحدث أن عمرو بن هند وجه قوما من بكر وتغلب إلى جبل طيئ فى أمر من أموره، فنزلوا على ماء لبنى شَيْبان وهم من بكر، فأبعدو التغلبيين عن الماء حتى ماتوا عطشا. فطلب التغلبون ديتهم من بكر، واختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند — وكان سيد تغلب هو عمرو بن كلثوم — وشاعر بكر الحارث بن حِلِّزة؛ وتفاخرت القبيلتان بين يديه، وفى هذا الموقف قال عمرو بن كلثوم بعض معلقته يفتخر فيها بتغلب، وقال الحارث بن حلزة جزءا من معلقته يفخَر فيها ببكر.

وقد رووا أن عمرو بن هند ملك الحيرة. قال يوما لندمائه: "هل تعلمون أحدا من العرب تأنف أمه من خدمة أمى؟" قالوا: "لا نعلمها إلا ليلى أم عمرو ابن كلثوم، لأن أباها مهلهل ربيعة، وعمها كليب وائل أعز العرب، وبعلها كلثوم ابن عَتّاب فارس العرب، وابنها عمرو بن كلثوم سيد قومه" فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيره ويسأل أن يزير أمه أمه ففعل، وكان عمرو بن هند قد أوعز إلى أمه أن تُنَحِّىَ الخدم وتستخدم ليلى. فقالت هند: "يا ليلى ناولينى ذلك الطبق" فقالت: "لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها" فأعادت عليها فصاحت ليلى "واذلاه يا لتغلب!" فسمعها عمرو بن كلثوم فثار الدم فى وجهه فقام إلى سيف لعمرو

ابن هند معلق بالرواق ، وليس هناك سيف غيره ، فضرب به رأس عمرو بن هند حتى قتله وسار وقومه إلى الجزيرة . وفى هذا قال بعض معلقته .

وقد عُمِّرَ عمرو بن كلثوم عمرا طويلا .

ولم يبق من شعره كذلك إلا قليل أشهره معلقته التى مطلعها :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكِ فاصْبَحِينا ولا تُبْقِي خُمُورَ الْأَنْدَرِينَا

يبدؤها بوصف الخمر وينتقل منها إلى الغزل إذ يقول :

قِفِي قَبْلَ التَّفَرُّقِ ياظَعِينا نُخَبِّرْكِ اليَقِينَ وتُخْبِرِينا (الخ)

ثم ينتقل إلى موضوع المعلقة ، ويظهر أن هذا مقسم إلى قسمين ، عُمِلا فى زمنين مختلفين : أولها عمل أيام التحاكم أمام عمرو بن هند والمفاخرة بين تغلب وبكر ، ويبتدئ من قوله :

أَبَا هِنْدٍ فلا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نُخَبِّرْكَ الْيَقِينَا[1]

بِأَنَّا نُورِدُ الرَّايَاتِ بِيضًا وَنُصْدِرُهُنَّ حُمْرًا قَدْ رَوِينَا

ويفخر فيه بنفسه وقومه :

وَرِثْنَا الْمَجْدَ قد عَلِمَتْ مَعَدٌّ نُطَاعِنُ دُونَهُ حَتَّى يَبِينَا (الخ)

والثانى عمل بعد قتله عمرو بن هند ، وأوله :

بِأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمْرَو بْنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بِنَا الْوُشَاةَ وَتَزْدَرِينَا

بأَيِّ مشيئة عمرو بن هند نكون لِقَيْلِكم فيها قَطِينا

تَهَدَّدْنَا وتُوعِدُنا رُوَيْدًا مَتَى كُنَّا لِأُمِّكَ مَقْتَوِينَا !

فإِنَّ قَنَاتَنَا يا عَمْرُو أَعْيَتْ على الأعداءِ قَبْلَكَ أن تَلِينَا

---

(1) انظر المنتخب جزء ٢ ص ١٢

ثم ينتقل إلى وقائع قومه مفتخرا بها على بكر :

وَنَحْنُ غَدَاةَ أُوقِدَ فِى خَزَازٍ   رَفَدْنَا فَوْقَ رِفْدِ الرَّافِدِينَا
وَكُنَّا الأَيْمَنِينَ إذا الْتَقَيْنَا   وَكانَ الأَيْسَرِينَ بَنُو أَبِينَا
فَصَالُوا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِيهِمْ   وَصُلْنَا صَوْلَةً فِيمَنْ يَلِينَا
فَآبُوا بِالنِّهَابِ وبالسَّبَايا   وَأُبْنَا بِالْمُلُوكِ مُصَفَّدِينَا

واختتمها بفخر قوى :

مَلأْنَا الْبَرَّ حتى ضَاقَ عَنَّا   وَظَهْرَ الْبَحْرِ نَمْلَؤُهُ سَفِينَا
لَنَا الدُّنْيَا ومَنْ أَضْحَى عَلَيْهَا   وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرِينَا
إِذَا بَلَغَ الفِطَامَ لَنَا صَغِيرٌ   تَخِرُّ لَهُ الْجَبَابِرُ سَاجِدِينَا

والميزة الواضحة فى شعره : السهولة والقوة؛ والاعتداد بالنفس والقبيلة، والمبالغة فى الفخر، وأنه شعر صدر عن سيد قومه يعتز بسيادته وسيادة قبيلته ويتغنى بفعالها وفعاله. وقد أثرت هذه القصيدة فى نفوس قبيلة تغلب وفخروا بها واتخذوها أنشودتهم حتى قال فيهم بعض البكريين :

أَلْهَى بنى تغلبٍ عَنْ كُلِّ مَكْرُمَةٍ   قصيدةٌ قالها عمرو بن كلثوم
يُفَاخِرُونَ بها مُذْ كانَ أَوَّلُهُمْ   يا لَلرِّجال لِشِعْرٍ غيرِ مَسْئُومِ

وروى صاحب ديوان الحماسة لعمرو بن كلثوم أبياتا له من خير الأبيات يتمدح فيها بقومه وهى :

مَعَاذَ الإله أَنْ تَنُوحَ نِسَاؤُنا   عَلَى هَالِكٍ أَوْ أن نَضِجَّ من الْقَتْلِ
قِرَاعُ السيوفِ بالسيوفِ أَحَلَّنَا   بأرضٍ بَرَاحٍ ذى أراكٍ وذى أَثْلِ
فَمَا أَبْقَتِ الايامُ مِلْمَالِ عِنْدَنا   سِوَى جِذْمِ أَذْوَادٍ مُحَذَّفَةِ النَّسْلِ
ثلاثةُ أثلاثٍ ، فَأَثْمَانُ خَيلِنا   وأقواتُنا وَمَا نَسُوقُ إلى القتلِ

(٤) الحارث بن حِلِّزة

كان الحارث بن حلزة من سادات بكر ، وبكر وتغلب — كما ذكرنا قبل — أخوان متعاديان طالت بينهما الحروب ويسعى الساعون بينهما فى الصلح فلا يلبث أن يُنْقَضَ .

وقد رأينـا فى ترجمة عمرو بن كلثوم أن عمرا كان سيد تغلب وشاعرها حين تحاكمت بكر وتغلب إلى عمرو بن هند ، وكان الحارث بن حلزة شاعر بكر ، وقال عمرو بن كلثوم جزءا من معلقته فى هذا الموقف يشيد بذكر قومه ويفخر على بكر ، وكذلك فعل الحارث بن حلزة ينقض قول عمرو بن كلثوم ويفخر ببكر وفعالها .

وقد ذكر الرواة أن الحارث أنشد معلقته أمام عمرو بن هند ، وكان شيخا هرما وبه وضح ، ولئن كان عمرو بن كلثوم فى قصيدته فخورا أشد الفخر ، معجبا بنفسه وقومـه أشد الإعجاب ، لا يرعى فى قوله عمرو بن هنـد ، ولا يعترف له ولقوته بعظمة وسلطان ، ويغلب على قوله النزق ، لَلْحَارِثُ بن حلزة وقور حليم فيـه رزانة السن، وحكمة الشيوخ ، يرد على عمرو بن كلثوم فى أناة وهدوء ، ولكنه هدوء لاذع ، يفنـد قوله ، ويعدد مواقف قومه ، ويُحَمِّل تغلب تبعـة الحروب . ويسـتدرج عمرو بن هند إلى أن يكون فى جانبه فيمدحه ويمدح قومه حتى يبلغ ما يريد . ولهذا يذكرون أن عمرو بن هند قضى لبكر على تغلب .

بدأ معلقته بالغزل ووصف الناقة :

آذَنَتْنـا بِبَيْنِهـا أَسْمـاءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْـهُ الثَّوَاءُ

ويشبه ناقته بالنعامة :

غَيْرَ أَنِّى قد أَسْتَعِينُ على الْهَـمِّ إِذا خَفَّ بِالثَّوِىِّ النَّجاءُ
بِزَفُوفٍ كَأَنَّهـا هِقْلَةٌ أُمُّ رِئالٍ دَوِّيَّةٌ سَـقْفَاءُ

ولكنه يمر بالغزل ووصف الناقة سريعا حتى يصل إلى غرضه فى دعوى تغلب وبكر :

وَأَتَانَا عَنِ الْأَرَاقِمِ أَنْبَا ءٌ وَخَطْبٌ نُعْنَى بِهِ ونساء[1] (الخ)

ويرد على عمرو بن كلثوم فى قوله :

أَيُّهَا النَّاطِقُ الْمُرَقِّشُ عَنَّا عِنْدَ عمرٍو وَهَلْ لِذاكَ بَقَاءُ؟ (الخ)

ثم يأخذ فى مدح عمرو بن هند :

فَمَلَكْنَا بِذَلِكَ النَّاسَ حتى مَلَكَ المنذرُ بنُ ماءِ السماء
مَلِكٌ أَضْلَعُ البريةِ لا يو جد فِيهَا لِمَا لديهِ كِفَاءُ

وفى المعلقة بعد ذلك أبيات لها قيمة كبيرة فى شرح أحداث تاريخية وسياسية : من صلح كان بين بكر وتغلب :

واذْكُرُوا حِلْفَ ذِى الْمَجَازِ وما قُدِّ مَ فيهِ العهودُ والكُفَلَاءُ

وأيام كانت بين تغلب وقبائل أخرى غلبت فيها تغلب :

أَعَلَيْنَا جُنَاحُ كِنْدَةَ ان يَغْـ ـنَمَ غازيهمُ ومِنَّا الجزاء ؟ (الخ)

وعداء قديم كان بين المنذر ملك الحيرة والتغلبيين لما امتنعوا عن نصرته، وعلى العكس من ذلك ولاء البكريين لملوك الحيرة ، وينتقل من ذلك الى مدح عمرو ابن هند وآبائه :

أَيُّهَا الناطقُ المُبَلِّغُ عَنَّا عِنْدَ عَمْرٍو وَهَلْ لِذَاكَ انْتِهَاءُ ؟
مَلِكٌ مُقْسِطٌ وَأَفْضَلُ مَنْ يَمْشِـ ـى وَمِنْ دُونِ مَا لَدَيْهِ الثَّنَاءُ
مَنْ لَهُ عِنْدَنَا مِنَ الْخَيْرِ آيَا تٌ ثَلَاثٌ فِي كُلِّهِنَّ الْقَضَاءُ

---

(١) اقرأ المنتخب جزء ٢ ص ٥٠

ثم يعدد هذه الآيات الثلاث .

وعلى الجملة فقد كان عمر بن كلثوم فى قوله أعز نفسا وأعلى قدرا ؛ وضع نفسه وقومه موضع الند لعمرو بن هند وقومه ، وكان الحارث أمهر وأمكر ؛ وضع أمام نفسه غرضا تحايل على الوصول اليه فى دهاء وإيماء وملق حتى وصل إليه ، فحكم له ولقومه .

(٥) عَنْتَرَة

هو عَنْتَرة بن شَدَّاد من قبيلة عَبْس ، وعَبس إحدى قبائل مضر . وكان هو وقومه يسكنون نجدا ، وكانت أمه أَمَةً حَبَشِيَّةً سوداء اسمها "زَبيبة" ، سباها أبوه فى إحدى غزواته فأولدها عنترة . وكانت عادة العرب أن تستعبد أولاد الإماء أى تتخذهم عبيدا لا أولادا ، إلا إذا أتوا بأعمال عظيمة فحينئذ يعترفون ببنوتهم . وكذلك كان عنترة ؛ ظل أبوه يستعبده حتى أغار يوما قوم من طيئ على عبس فأصابوا منهم واستاقوا إبلا فكَرَّ عنترة عليهم واسترد الإبل فحرره أبوه وأقر ببنوته .

وكان عنترة أسود كأمه ، ولذلك عد من أغربة العرب. وكان يشعر بأن ما فيه من عيب سواده تغسله شجاعته وفعاله وفى ذلك يقول :

إِنِّى أمْرُؤٌ مِن خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً   شَطْرِى ، وأَحْمِى سائِرِى بالمُنْصُلِ
وَ إِذَا الْكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وتَلَاحَظَتْ   أُلْفِيتُ خَيْراً مِنْ مُعَمٍّ مُخْوَلِ

وقد عشق فى شبابه بنت عمه "عَبْلَة" ، وكان ذلك قبل أن يحرره أبوه ويَدَّعِيَه ، فأبى عمه أن يزوجه ابنته وهو عبد ، فحفزه ذلك للمعالى يتطلبها ، والمجد ينشده ، وهاج ذلك من شاعريته ، فاجتمع له الشعر السلس القوى ، والشجاعة النادرة ، والمروءة ، حتى إذا أصبح سيدا حرا زوجه عمه عبلة .

وقد اشترك فى حرب داحِس والغبراء — وهى التى قال فيها زهير بن أبى سلمى معلقته — وأبلى فيها بلاء حسنا ، وأعلى فيها شأن قومه .

وأشهر شعره معلقته التى مطلعها :

هَلْ غَادَرَ الشُّعَرَاءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ   أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ؟

وتمتاز بالتمدح بالشجاعة ، وصفات البدو من كرم ومروءة ، والتغنى بمواقفه فى الحروب .

تغزل فيها بعبلة وحاول أن يسترضيها بوقائعه ومشاهده ، إذ عجز أن يسترضيها بجمال لونه وكرم محتده من ناحية أمه :

إنْ تُغْدِفِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإنَّنِي   طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْئِمِ
أثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فإنني   سَمْحٌ مُخَالَقَتِي إذا لم أُظْلَمِ
فإذا ظُلِمْتُ فان ظُلْمِيَ باسِلٌ   مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كطعمِ الْعَلْقَمِ

*
* *

هَلَّا سَأَلْتِ الخيلَ يا ابْنَةَ مالكٍ   إن كنتِ جاهلةً بما لم تَعْلَمِي
يُخْبِرْكِ من شَهِدَ الوقيعةَ أنني   أَغْشَى الْوَغَى وأعِفُّ عند المغنمِ

ويصف موقعة من وقائعه ، والأعداء تقبل ، والناس يلهجون باسمه ، حتى إذا نازلهم نال منهم كل منال :

لما رأيتُ القومَ أَقْبَلَ جمعُهُمْ   يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غيرَ مُذَمَّمِ
يَدْعُونَ عَنْتَرَ ، والرماحُ كأنَّها   أَشْطَانُ بئرٍ في لَبَانِ الْأَدْهَمِ
ما زلتُ أرميهم بثُغْرَةِ نَحْرِهِ   ولَبانِهِ حتى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ
فَازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا فزجرتُهُ   فشكا إلَيَّ بِعَبْرَةٍ وتَحَمْحُمِ
لَوْ كان يَدْرِي ما المحاورةُ اشْتَكَى   ولَكَانَ لو علِمَ الكلامَ مُكَلِّمِي
ولَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُقْمَهَا   قِيلُ الْفَوارِسِ وَيْكَ عَنْتَرَ أَقْدِمِ (الخ)

وكثيرا ما يتغنى فى شعره بمكارم الأخلاق كقوله :

ولقد أَبِيتُ على الطَّوَى وَأَظَلُّهُ   حَتَّى أَنَالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

وقوله :

وَأَغُضُّ طَرْفِي مَا بَدَتْ لِي جَارَتِي   حَتَّى يوارِى جارتِى مأواها (الخ)

وكانت شجاعته فى حروبه مثارا للإعجاب حتى صيغت منها أساطير وقصص ، وامتلاء ديوانه بقصائد لم تصح عند الثقات وامتلاءت قصة عنترة بأحداث وأشعار كلها من نسج الخيال .

وقد قتل عنترة بعد ان أسر فى غارة له على قوم من طيئ .

(٦) زهـــير

هو زهير بن أبى سُلمى من قبيلة مُزَيْنَة ، ومزينة من مضر ، فهو شاعر مضرى ولم نعرف عن حياته ، كذلك ، إلا قليلا .

كان يقيم هو وقومه فى بلاد غَطَفان ، وهو من بيت كثر شعراؤه ، فكان خال أبيه — واسمه بَشَامة بن الْغَدِير — شاعرا ، وجمع الى الشعر الحكمة وجودة الرأى ، وكانت غطفان إذا أرادوا الغزو أتوه فاستشاروه وصدروا عن رأيه ، فإذا رجعوا من الحرب قسموا له مثل ما يقسمون لأفضلهم . وقد لازمه زهير وأخذ عنه الشعر وجودة الرأى ، وكان زوج أمه — أَوْسُ بن حَجَر — شاعرا ، وكان أبوه شاعرا ، وأخته سُلْمَى شاعرة ، وابناه — كَعْبٌ وبُجَيْر — شاعرين .

وكانت بلاد غطفان ساحة للعـــداء الشديد والحرب المستحرة بين قبيلتين من قبائلها : وهما عبس وذبيان ، وكانت هذه الحرب وهذا العداء سببا فى ثروة أدبية جاهلية كبيرة ؛ من شعر ملىء بالفخر والهجاء ، والتحريض على القتال والأخذ بالثأر ، ومن قصص تدور وقائعها على ما كان بين الفريقين . فكثير من شعر عنترة العبسى مثلا يصف الأطوار الأخيرة لهـذه الحرب الطاحنة . وكان كثير من شعر زهير يدور حول السلم بين القبيلتين والدعوة إليه وإظهار نتائجه ، والإعجاب برجلين عظيمين من رؤساء قبيلة ذبيان وهما : هَرِم بن سِنان ، والحارث بن عَوْف ، سعيا فى الصلح بين عبس وذبيان ، واحتملا ديات القتلى ، ونشرا السلام فى غطفان ، فكان هذا حافزا لزهير أن يتغنى بالسلام ، ويستفظع الحرب ، ويمدح الداعين إليه ، وخاصة هرم بن سنان ، وكان هرِم كذلك يجزل له العطاء حتى أغناه ، والظاهر أن زهيرا مات قبيل البعثة .

شعره — يمتاز زهير بأنه "كان أبعد الشعراء عن سُخْف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من اللفظ ، وأكثرهم أمثالا فى شعره" ، "وكان لا يتبع حُوشِىَّ الكلام ولا يقول إلا ما يعرف ، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه" .

وقد عرف بالروية فى شعره، رووا أنه كان ينظم القصيدة فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة، وكانت تسمى قصائده "حَوْلِيَّات زهير" ، والى هذا أشار البهاء زهير فى قوله من قصيدة :

هـذا زُهَيْرٌ لَا زُهَيْرُ مُزَيْنَةٍ ... وافاك لا هَرِمًا على عِلَّاتِهِ

دَعْهُ وحَوْلِيَّاتِهِ ثم استَمِعْ ... لِزُهَيْرِ عَصْرِكَ حُسْنَ لَيْلِيَّاتِهِ

والظاهر أن ذلك إنما كان فى معلقته وقصائده المطولات وهى أربع :

إحداها مطلعها :

قِفْ بِالديارِ التى لم يعفها القِدَمُ ... بَلَى وغَيَّرَها الأَرْوَاحُ والدِّيَمُ

والثانية :

إِنَّ الخَلِيطَ أَجَدَّ البَيْنَ فانفرقا ... وعُلِّقَ القَلْبُ مِنْ أَسْمَاءَ ما عَلِقَا

والثالثة :

بَانَ الخَلِيطُ ولم يَأْوُوا لِمَنْ تَرَكُوا ... وزَوَّدُوكَ اشْتِيَاقًا أَيَّةً سَلَكُوا

والرابعة :

لِمَنْ طَلَلٌ بِرامَةَ لا يَرِيمُ ... عَفَا وخَلَا لَهُ حُقُبٌ قَدِيمُ

تظهر هذه الروية فى شعره كل الظهور ، فهو هادئ رزين فى تفكيره ، يتخير المعانى التى تناسب موضوعه ، ويتخير لهذه المعانى خير الألفاظ ، يرفق فى مواضع الرفق ، ويشتد فى مواضع الشدة .

كذلك عرف بالميل إلى الحكمة ، جرب الدهر وحلب أشطره ، وخبر الناس وعرف نفوسهم ، فعمد إلى صياغة ذلك كله فى شعره — وكان ملهماً فأتى بما لم يُسبق إليه ، وقد أعجب المسلمون فى الصدر الأول بحِكَمه ، وفضله بعضهم من أجلها على سائر الشعراء ، لما فيها من صدق القول ، وحسن النظر ، ولما فيها من نظرات تتفق ومبادئ الإسلام كقوله :

فلا تَكْتُمُنَّ اللهَ ما فِى نُفُوسِكم ... لِيَخْفَى ومهما يُكْتَمِ اللهُ يَعْلَمِ
يُؤَخَّرْ فيوضَعْ فِى كِتَابٍ فَيُدَّخَرْ ... لِيومِ حِسابٍ أَوْ يُعجَّلْ فَيُنقَمِ

وخير شعره — كما أسلفنا — فى مدح هرم بن سنان كقوله :

قَدْ جَعَلَ المُبْتَغونَ الخيرَ فى هَرِمٍ ... والسَّائِلون إلى أَبْوابِهِ طُرُقَا
مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلَّاتِهِ هرماً ... يَلْقَ السَّماحةَ مِنه والنَّدَى خُلُقَا
لَيْثٌ بِعَثَّرَ يصطادُ الليوثَ إذا ... ما الليثُ كَذَّبَ عن أَقْرانِهِ صَدَقَا
يَطْعَنُهُم ما ارْتَمَوا حتَّى إذا اطَّعَنُوا ... ضارَبَ حتَّى إذا ما ضاربُوا اعْتَنَقَا

وقوله :

دَعْ ذا وَعَدِّ القَوْلَ فِى هَرِمٍ ... خيرِ البُدَاةِ وسيِّدِ الحَضَرِ
لو كنتَ مِن شىءٍ سوى بشرٍ ... كنتَ المُنوِّرَ لَيْلَةَ البدرِ
ولأنتَ أَوْصَلُ مَنْ سَمِعْتُ بِهِ ... لِشَوَابِكِ الأَرْحامِ والصِّهْرِ
وَلَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ أَنْتَ إذا ... دُعِيَتْ نَزَالِ وَلُجَّ فِى الذُّعْرِ
وأَراكَ تَفْرِى ما خَلَقْتَ وبعْـ ... ـضُ القَوْمِ يَخْلُقُ ثم لا يَفْرِى
أُثْنِى عَلَيْكَ بِما عَلِمتَ وما ... سَلَّفْتَ فِى النَّجَداتِ مِن ذِكْرِ
والسِّتْرُ دُونَ الفاحشاتِ وَلَا ... يَلْقَاكَ دُونَ الخَيْرِ مِن سِتْرِ

ولما مات هرم رثاه زهير بقصيدته :

إن الرَّزِيَّةَ لا رَزِيَّةَ مِثلُها مَا تَبْتغِى غطفانُ يوم أضلَّتِ
إن الرِّكاب لَتَبْتغِى ذا مِرَّةٍ بِجُنوبِ نَخْلَ إذا الشُّهورُ أحَلَّتِ
يَنْعَيْنَ خيرَ النَّاسِ عِند شديدةٍ عُظُمَتْ مُصيبتُه هُناكَ وجَلَّتِ
ولَنِعْمَ حَشْوُ الدِّرْعِ كانَ إذا سَطَا نَهِلَتْ مِنَ الْعَلَقِ الرِّماحُ وعَلَّتِ

وأشهر قصائده معلقته التى مطلعها :

أَمِنْ أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّمِ بِحَوْمانَةِ الدَّرَّاجِ فَالْمُتَثَلَّمِ

وهى فى تسعة وخمسين بيتا وموضوعها — كما سبق — تحسين الصلح بين عبس وذبيان ، ومدح هرم والحارث بن عوف لقيامهما بهذا العمل الجليل . وقد بدأها من البيت الأول إلى الخامس عشر فى الغزل بأم أوفى ، وهى زوجه أولدها بنين ماتوا صغارا ، ثم غضب عليها مرة ، فطلقها وندم ، وأراد أن يردها فأبت فبكاها و بكى ديارها :

دِيارٌ لها بالرَّقْمَتَيْنِ كأنَّها مَرَاجِعُ وَشْمٍ فى نَوَاشِرِ مِعْصَمِ

*
* *

وَقَفْتُ بها مِنْ بَعْدِ عِشْرينَ حِجَّةً فَلأْيًا عَرَفْتُ الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ
فَلَمَّا عَرَفْتُ الدَّارَ قلتُ لِرَبْعِها : أَلا انْعَمْ صَبَاحًا أَيُّها الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

و وصف الظعائن ، وهن النساء فى الهوادج ، وذكر أنهن فى أمن ومَنَعَةٍ ، فإذا نزلن نزلن آمنات كنزول من هو فى أهله و وطنه ، وختم ذلك بقوله :

وَفِيهِنَّ مَلْهًى لِلَّطِيفِ وَمَنْظَرٌ أَنِيقٌ لِعَيْنِ النَّاظِرِ الْمُتَوَسِّمِ

ومن البيت السادس عشر إلى الخامس والعشرين مدح هرما والحارث لسعيهما إلى الصلح وتحملهما الديات :

فأقسمتُ بالبيتِ الذى طافَ حوْلَه ... رجال بنوْهُ مِن قُريْش وجُرْهُم[١]

ثم انتقل يخاطب المتحاربين ويطلب منهما الحرص على الصلح بعد ماذاقوا من شدة الحرب واصطلوا بنارها ، وذلك إلى البيت الثالث والثلاثين[٢] .

وفى هذا الموضع أتى بأبيات من خير الشعر فى وصف الحرب وويلاتها والسلم ومزاياه .

ثم عرض لحُصيْن بن ضَمْضَم وفعله وقد قتل عدوه وكان يشعل نار الحرب ثانية بعد أن كانت القبيلتان تتأهبان للصلح :

لَعَمْرِى لَنِعْمَ الحىُّ جَرَّ عليهِمُ ... بِما لايُواتيهم حُصَيْنُ بنُ ضَمْضَمِ

حتى إذا وصل إلى البيت السابع والأربعين أتى بأبيات من الحكم ختم بها معلقته ، وبعض هذه الأبيات يناسب موضوعه وهو الدعوة إلى السلم كقوله :

ومن يَعْصِ أطراف الزِّجاج فإنه ... يُطيعُ الْعَوالِى رُكِّبَتْ كُلَّ لَهْذَمِ

يريد أن من لايقبل الصلح وهو الزُّجّ الذى لايقاتل به فانه يطيع الحرب ، ورمز اليها بالسنان الذى يقاتل به ، وكقوله :

ومَنْ يوفِ لايُذْمَمْ ومن يُفْضِ قَلْبُهُ ... إلى مُطْمَئِنِّ البِرِّ لايَتَجَمْجَمِ

وبعض الأبيات — فيما يظهر — لاتناسب موضوعه كقوله :

ومَنْ لايَذُدْ عَنْ حَوْضِهِ بِسلاحِهِ ... يُهدَّمْ ومَنْ لايَظْلِمِ النَّاسَ يُظْلَمِ

فإن ظاهره الحث على الظلم ، واستعمال السلاح ، ولعله فيه قد انتقل من موضوعه إلى وصف الحياة العربية على العموم .

ثم ذكر أنه سئم الحياة وتكاليفها ، وأن المنايا ليس لها قانون معروف وختمها بقوله :

ومهما تكن عِند امرئٍ من خليقة ... وَإنْ خالَهَا تَخْفى على النَّاسِ تُعْلَمِ

وَأَعْلَمُ مَا فِى الْيوْمِ وَالْأمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِى عَنْ عِلْمِ مَافِى غدٍ عَمِ

---

(١) انظر المنتخب ٢ — ٧/ (٢) المنتخب ٢ — ٩/

(٧) لبيد

هو لبيد بن ربيعة من بنى عامر بن صَعْصَعَة ، وهى قبيلة مضرية ، وأمه من بنى عبس ، كان فى الجاهلية شريفا جوادا شجاعا شاعرا ، وقد أدرك الإسلام وأسلم ، وعُمِّر طويلا حتى مات فى خلافة معاوية . وأكثر شعره قاله قبل الإسلام ، فلما أسلم لم يقل إلا قليلا .

وهو شاعر بدوى ، يصف فى شعره حياة بدوية صحراوية ولا سيما فى معلقته التى مطلعها :

عَفَتِ الدِّيارُ مَحَلُّها فَمُقَامُها ... بِمِنًى تَأَبَّدَ غَوْلُها فَرِجَامُها

ويظهر أنه قالها فى شبابه ، وهى تمثل الشعر المضرى فى متانته وقوته ، بدأها — كالعادة — ببكاء الأطلال وفعل السيول بها حتى لم يبق منها الا أثر كأثر الكتابة فى الحجارة إنما يتبين لمن يقرب منه ويطيل النظر . ثم ينتقل الى الغزل ووقوفه على الأطلال يسألها :

فوقفتُ أسألُها وكيفَ سؤالُنا ... صُمًّا خوالِدَ ما يبينُ كلامُها

ثم يصف ناقته وصفا طويلا رائعا ، فيكثر من تشبيه سرعتها ، تارة بالسحابة يرفعها ريح الجنوب ، وتارة بأتان وحشية ، وتارة ببقرة وحشية أضاعت ولدها فهى تسرع فى البحث عنه ، وفى كل تشبيه من هذه التشبيهات يستقصى وصف المشبه به حتى يصل إلى غايته . فيصف نفسه بالإباء :

تَرَّاكُ أَمْكِنَةٍ إذا لَمْ أَرْضَها ... أو يَرْتَبِطْ بَعْضَ النُّفُوسِ حِمَامُها

وبالكرم وأنه يلعب الميسر على الجُزُور وينحرها ويطعمها الناس :

وَجَزُورِ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَتْفِها ... بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَعْلَامُها

أَدْعُو بِهِنَّ لِعَاقِرٍ أو مُطْفِلٍ ... بُذِلَتْ لِجِيرانِ الجَمِيعِ لِحَامُها

ثم انتقل من وصف نفسه إلى وصف قومه بأنهم أهل كرم ونجدة وعقل وأمانة :

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّتْ لهم آباؤُهُمْ   ولِكُلِّ قوم سُنَّةٌ وإمَامُهَا
إنْ يَفْزَعُوا تُلْقَ المَغَافِرُ عِندَهُمْ   والسِّنُّ يلمعُ كالكواكبِ لامُهَا
لا يَطْبَعُونَ ولا يبورُ فعالُهم   إذ لا تَميلُ مَعَ الهَوى أحلامُهَا
فَبَنَوْا لنا بيتا رفيعا سَمْكُه   فسما إليه كَهلُهَا وغُلامُهَا

وهكذا إلى آخر المعلقة .

ولشعره بعد ذلك — وهو الذى عمله فى الكهولة والشيخوخة على ما يظهر — أثر الحكمة وقوة الشعور الدينى كزهير من مثل قوله :

وما المرءُ إلا كالشِّهابِ وضوئِه   يَحُورُ رَمَادًا بَعْدَ ما هُوَ سَاطِعُ
وما المالُ والأهلُونَ إلا وَدَائِعُ   ولابُدَّ يومًا أن تُرَدَّ الودائعُ
وما الناسُ الا عامِلانِ ؛ فعَامِلٌ   يتَبِّرُ ما يبنى ، وآخَرُ رَافِعُ

ومثل قصيدته التى مطلعها :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلَا اللهَ باطلُ   وكُلُّ نَعِيمٍ لا مَحَالَةَ زَائِلُ
وَكُلُّ أُنَاسٍ سَوْفَ تَدْخُلُ بينهم   دُوَيْهِيَةٌ تَصْفَرُّ منها الأنَامِلُ

ومثل قصيدته :

إنَّ تَقْوَى رَبِّنَا خَيْرُ نَفَلْ   وَبِإِذْنِ اللهِ رَيْثِي وَالعَجَلْ
أَحْمَدُ اللهَ ولا نِدَّ لَهُ   بِيَدَيْهِ الخيرُ ما شاءَ فَعَلْ
مَنْ هَدَاهُ سُبُلَ الخَيْرِ اهْتَدَى   ناعِمَ البَالِ وَمَنْ شَاءَ أَضَلْ

وكان لبيد أحدث أصحاب المعلقات عصرا وآخرهم موتا .

*
* *

وهناك غير أصحاب المعلقات شعراء جاهليون لا يقلون عنهم شهرة وشاعرية ؛ أشهرهم : النابغة الذبيانى والأعشى ، وقد عدهما بعض العلماء من أصحاب المعلقات وعد مطولتيهما معلقتين .

(٨) النابغة الذبيانى

النابغة شاعر ذبيان ، وذبيان من قيس ، وقيس من مضر .

وتاريخ حياته — كذلك — غامض ولا نعرف عنه إلا قليلا ، واسمه زياد ابن معاوية . ويكنى أبا أمامة ، وهو أحد فحول الشعراء الجاهليين ، ويعد فى الطبقة الأولى مع امرئ القيس .

وقد ذكروا فى تلقيبه بالنابغة أسبابا أقربها : أنه لم ينشأ شاعرا ولم يُرَبَّ تربية شعرية ، وإنما نبغ بالشعر دفعة واحدة ، وقاله وهو رجل أحكمته التجارب .

كان النابغة من أشراف قومه وهو — وإن تكسب بالشعر — لم يتبذل ، إنما كان يقصد الملوك ويمدحهم فى غير ضعة ، وهم يجزلون له العطاء .

اتصل بالنعمان بن المنذر أبى قابوس ملك الحيرة (الذى حكم من نحو سنة ٥٨٠ الى ٦٠٢ م) وقد مدحه بقصائد كثيرة وقربه النعمان إليه واتخذه نديما له ، وغمره بعطاياه حتى كان النابغة يأكل فى صحاف الفضة والذهب ، ثم غضب عليه . والرواة يختلفون فى سبب غضبه ، وأقرب الأسباب إلى العقل ما روى بعضهم من أن أعداء النابغة وضعوا شعرا على لسانه فيه تعريض بالنعمان ، وأن أمه بنت صائغ من فَدَك [1] فتبرأ النابغة من ذلك فى شعره ، ولكنه خاف على نفسه فهرب الى الغساسنة بالشام ، وكانو — كما رأينا — أعداء ملوك الحيرة ، فرحب به عمر بن

---

(١) فدك بلدة قريبة من المدينة ، والابيات هى :

قبح الله ثم ثنى بلعن　　وارث الصائغ الجبان الجهولا
من يضر الأدنى ويعجز عن ضر الأقاصى ومن يخون الخليلا
يجمع الجيش ذا الألوف ويغزو　　ثم لا يرزأ العدو فتيلا

الحارث الغسّانى وأكرمه . ومدحه النابغة بقصائد كثيرة ، ولكن هواه كان مع النعمان ملك الحيرة يحن إليه ويتبرأ مما رمى به ويعتذر مما كان . وبقى فى الشام الى أن مات عمرو بن الحارث الغسانى .

وكانت اعتذاراته تتوالى على النعمان حتى عفا عنه فعاد إليه وعاشره فى الحيرة .

كذلك كان يرحل إلى داخل جزيرة العرب ، فتراه فى سوق عُكاظ تُنْصَب له قبة من أَدَم ، ويجتمع إليه الشعراء ينشدونه قصائدهم فيفاضل بينهم ، ولم يعرف تاريخ موته ، ولكن المعروف أنه مات فى زمن النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يبعث.

شعره — قد امتاز شعره بحسن الديباجة ، وجمال الرونق ، وجزالة اللفظ ، وقلة التكلف .

وكان شعره — كذلك — مظهرا من مظاهر حياته فهو يمدح النعمان ، ويشير بملوك الحيرة وعظمتهم ، حتى إذا ساءت العلاقة بينه وبين النعمان ملء شعره عذرا ، واشتهرت بين الأدباء "اعتذاريات" النابغة ، وأن أحدا لم يقل مثلها .

من ذلك قوله :

نُبِّئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِى   وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ الْأَسَدِ
مَهْلًا فِدَاءٌ لَكَ الْأَقْوَامُ كُلُّهُمُ   وَمَا أُثَمِّرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدِ

وقوله

أَتَانِى أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِى   وَتِلْكَ الَّتِى تَسْتَكُّ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
مَقَالَةَ أَنْ قَدْ قُلْتُ سَوْفَ أَنَالُهُ   وَذَلِكَ مِنْ تِلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
لَعَمْرِى ، وَمَا عَمْرِى عَلَىَّ بِهَيِّنٍ   لَقَدْ نَطَقَتْ بُطْلًا عَلَىَّ الْأَقَارِعُ
أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لِى بِغْضَةً   لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلُ ذَلِكَ شَافِعُ
أَتَاكَ بِقَوْلٍ هَلْهَلِ النَّسْجِ كَاذِبٍ   وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الذى هُوَ نَاصِعُ
أَتَاكَ بِقولٍ لم أَكُنْ لِأَقُولَهُ   ولو كُبِّلَتْ فِى سَاعِدَىَّ الْجَوَامِعُ

إلى أن يقول :

فإن كنتَ لاذُو الضِّغْنِ عَنِّى مُكَذَّبٌ ... ولَا حَلِفِي عَلَى الْبَرَاءَةِ نَافِعُ
وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أقولُه ... وأنتَ بِأَمْرٍ لا محالَةَ واقِعُ
فإنكَ كاللَّيلِ الذى هو مُدرِكى ... وإنْ خِلْتُ أنَّ الْمُنتأَى عَنْكَ واسع

* * *

أتُوعِدُ عَبْدًا لم يَخُنْكَ أمانَةً ... وَيُتْرَكُ عَبْدٌ ظَالِمٌ وهو ظالِعُ
وأنتَ ربيعٌ يَنْعَشُ النَّاسَ سَيْبُه ... وسَيفٌ أُعِيرَتْه المَنِيَّةُ قاطِعُ
أبى الله إلا عَدْلَه وَوَفاءَه ... فَلَا النُّكْرُ معروفٌ ولا الْعُرْفُ ضائِعُ

فلما ارتحل إلى الغساسنة مدحهم ، ومن أشهر مدائحه فى عمرو بن الحارث قصيدته التى مطلعها :

كِلِينِى لِهَمٍّ يا أُمَيمَةَ ناصِبِ ... وَلَيْلٍ أُقاسِيهِ بَطِيءِ الكواكِبِ[1] (الخ)

ويظهر أن مدح النابغة للغساسنة زاد النعمان حفيظة ، لأنه يمدح أعداءه ويشيد بذكرهم ، فقال النابغة يعتذر للنعمان :

أتانِى أبَيْتَ اللَّعْنَ أنَّكَ لُمْتَنِى ... وتِلكَ التى أهْتَمُّ مِنها وأنْصَبُ[2]
فَبِتُّ كأنَّ الْعَائِدَاتِ فَرَشْنَنِى ... هَرَاسًا به يُعْلَى فِراشِى ويُقْشَبُ[3]
حَلَفْتُ فَلَمْ أتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً ... وليس وراء الله للمرء مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّى خِيانَةً ... لَمُبْلِغُكَ الواشِى أغَشُّ وأكْذَبُ
ولَكِنَّنِى كُنْتُ امْرَءًا لِىَ جانِبٌ ... مِنَ الأرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ ومَذْهَبُ
مُلُوكٌ وإخْوَانٌ إذا ما أتَيْتُهم ... أُحَكَّمُ فى أمْوالِهِم وأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فى قَوْمٍ أراكَ اصْطَنَعْتَهُم ... فَلَمْ تَرَهُمْ فى شُكْرِ ذلِكَ أذْنَبُوا

---

(١) انظر المنتخب ٢ — ٢٧

(٢) النصب : الإعياء والتعب . (٣) الهراس : نبت كثير الشوك . و يقشب : يجدد و يخلط .

فلا تَتْرُكَنِّى بالْوَعِيدِ كَأَنَّنى … إلى النـاس مَطْلِىٌّ به القارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أنَّ الله أعطاك سُورةً … تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهـا يتذَبْذَبُ
فإنك شمسٌ والملوكُ كواكبُ … إذا طلعَتْ لم يَبْدُ مِنهنّ كوكبُ
ولَسْتُ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّـه … عـلى شَعَثٍ أَىُّ الرِّجالِ الْمُهذَّبُ
فإن أكُ مَظْلُومًا فعبدٌ ظَلَمْتَه … وإنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فمِثْلُكَ يُعْتِبُ

وكان عظيم الشأن رفيع الجاه عند ملوك الحيرة وغسان ، ذا كلمة فيما يجرى بين القبائل من سلم وحرب كما يدل على ذلك شعره ، يتدخل فى أسرى بنى أسد وفزارة، ويركب إلى الحارث الغسانى ليفكهم ، ويقول فى ذلك بعض قصائده ، إلى كثير من أمثال ذلك .

ومن أوضح صفاته الشعرية أنه كثير الوصف ، واذا وصف استقصى القول عن الموصوف حتى يبلغ غايته ، فإذا وصف ناقته شبهها بالثور الوحشى ثم يستقصى حال الثور وشدته فى مصارعة الكلاب .

وقد عده بعض العلماء من شعراء المعلقات ، ومطلع معلقته :

يا دارَ مَيَّةَ بِالْعَلْيَاءِ فَالسَّنَدِ … أَقْوَتْ وطَالَ علَيْها سالِفُ الأَبَدِ

وتقع فى واحد وخمسين بيتا . وهى من قصائده الاعتذاريات ، بدأها ببكاء الأطلال كالمألوف من أشعار الجاهلية ثم انتقل من ذلك إلى وصف ناقته :

فَعَدِّ عَمَّا تَرَى إذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ … وَانْمِ الْقُتُودَ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجُدِ[1]

وشبهها بوحش وَجْرة ، ثم أفاض كعادته فى وصف المشبه به ، وهو وحش وجرة ، وما يفعله من صيد الكلاب ، ودخل من ذلك إلى النعمان :

فَتِلْكَ تُبْلِغُنِى النُّعمانَ إنَّ لَهُ … فَضْلًا عَلَى النَّاسِ فِى الْأَدْنَى وفِى الْبَعَدِ
وَلَا أَرَى فَاعِلًا فِى النَّاسِ يُشْبِهُهُ … وَمَا أُحاشِى مِنَ الأقوامِ مِن أَحَدِ

---

(١) القتود : خشب الرحل ، والعيرانة . الناقة المشبهة بالعير فى السرعة والنشاط ، والأجد : الموثقة .

ثم طلب إليه أن يكون حكيما فى أمره لا يقبل سعاية ساع ، ونفى عن نفسه ما اتهم به :

مَا إنْ أَتَيْتُ بِشَىْءٍ أَنتَ تَكْرَهُهُ ... إذًا فَلَا رَفَعَتْ صَوْتِى إلَىَّ يَدِى

***

هذا لأَبْرَأَ مِن قَوْلٍ قُذِفْتُ بِهِ ... كانت نوافِذُهُ حَرًّا على الكَبِدِ

ثم مدحه بالكرم ، وأنه يشبه نهر الفرات ، واسترسل فى وصف الفرات كعادته أيضا وختمها بقوله :

هَا إنَّ تَاعِذْرَةٌ إلَّا تَكُنْ نَفَعَتْ ... فَإنَّ صاحِبَها قَدْ تَاهَ فِى الْبَلَدِ (١)

و يظهر من شعره التدين والتزام مكارم الأخلاق ، فهو يقول :

قَالَتْ أَرَاكَ أَخَا رَحْلٍ وَرَاحِلَةٍ ... تَغْشَى مَتَالِفَ لَنْ يُنْظِرْنَكَ الْهَرَمَا

حَيَّاكِ رَبِّى فَإنَّا لَا يَحِلُّ لَنَا ... لَهْوُ النِّسَاءِ وإنَّ الدِينَ قَدْ عَزَمَا

مُشَمِّرِينَ عَلَى خُوصٍ مُزَمَّمَةٍ ... نَرْجُو الإلَهَ ونرجو البِرَّ والطُّعُمَا (٢)

و يعد شعره خطوة جديدة فى رقى الشعر بعد امرئ القيس ؛ فانه أحسن ديباجة وأغزر معنى وأسلس كلاما .

ومما يستحسن من قوله :

فَتًى تَمَّ فِيهِ ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ ... على أن فِيهِ ما يَسُوءُ الأَعَادِيا

فَتًى كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ غَيْرَ أنَّهُ ... جَوَادٌ فما يُبْقِى مِنَ المالِ باقيا

(١) العذرة : الاعتذار . (٢) الخوص : الإبل الغائرة العيون ، والمزممة المشدودة برحالها ، والطعم الرزق .

وقوله :

تَعْدُو الذئابُ على مَنْ لا كِلابَ له ... وتَتَّقِي مَرْبِضَ المُسْتَنْفِرِ الحَامِي

وقوله :

نفسُ عصامٍ سَوَّدَتْ عِصامَا ... وعَلَّمَتْهُ الكَرَّ والإقداما

وَصَيَّرَتْهُ مَلِكًا هُمَامَا ... حَتَّى عَلَا وَجَاوَزَ الأَقْوَامَا

وقوله فى الرثاء :

سَهْلُ الخليقةِ مَشَّاءٌ بِأَقْدُمِهِ

إلى ذَوَاتِ الذُّرَى حَمَّالُ أَثْقَالِ

حَسْبُ الخَلِيلَيْنِ نَأْيُ الأرضِ بينهما

هذا عليها وهذا تحتها بالى

وقوله :

المرءُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيشَ وطولُ عيشٍ قد يَضُرُّه

تَفْنَى بَشَاشَتُه وَيَبْقَى بَعْدَ حُلْوِ العيشِ مُرُّه

وَتَخُونُه الأَيَّامُ حَتَّى لا يَرَى شَيْئًا يَسُرُّه

كم شَامِتٍ بِي إن هَلَكْتُ وقَائِلٍ : للهِ دَرُّه

وللنابغة ديوان شعر شرحه أبو بكر البَطَلْيَوْسى طبع مرارا

(٩) الاعشى

وأما الأعشى فهو مَيْمون بن قيس من قبيلة بكر بن وائل . وسمى أعشى قيس تمييزا له عن آخرين سموا هذا الاسم . وسمى الأعشى لضعف فى بصره. وكان يسمى صَنَّاجَة العرب لتغنيهم بشعره .

كان الأعشى من أهل اليمامة من قرية يقال له " منفوحة " ولكنه جاب جزيرة العرب من أقصاها إلى أقصاها يمدح ملوكها وأمراءها كما يقول :

قَدْ جُبْتُ مَا بَيْنَ بَانِقْيَا إِلَى عَدَنٍ وطال فى الْعَجَمِ تَرْدَادِى وتَسْيَارِى

وينسب اليه قوله :

وَطَوَّفْتُ لِلْمَالِ آفَاقَهُ عُمَانَ فَحِمْصَ فَأُورِيشَلِمْ
أَتيتُ النَّجاشِىَّ فى دارِهِ وأرضَ النَّبِيطِ وأرضَ الْعَجَمْ

وكان تطوافه سببا فى كثرة معارفه وسعة ثقافته ، اتصل بنصارى نجران، وبأهل الحيرة، وبشريح بن السموءل اليهودى صاحب تيماء بحصنه الذى يقال له " الأبلق " إلى غير ذلك . وكان يرحل كل سنة إلى سوق عكاظ فتنصب له قبة من أدم وتحاكم إليه الشعراء .

وقد أدرك الأعشى الإسلام وقصد رسول الله ليسلم ،ولكن قريشا خافت من إسلامه — وكان ذلك قبل فتح مكة — فرصدوه على طريقه، وقال له أبو سفيان : " نحن وهو فى هدنة فتأخذ مائة من الإبل وترجع إلى بلدك سَنَتَكَ هذه ، وتنظر ما يصير اليه أمرنا ،فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا ، و إن ظهر علينا أتيته " فأخذ مائة من الإبل وعاد إلى بلده ، فرمى به بعيره قريبا من قريته فمات ، وقد كان أعد قصيدة فى مدح النبى (صلى الله عليه وسلم) حين رحل إليه مطلعها :

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ ليلةَ أَرْمَدَا وَعَادَكَ ما عَادَ السَّلِيمَ الْمُسَهَّدَا

وفيها يقول :

فآليتُ لا أرثي لها مِن كَلالة ... ولا مِنْ حَفًى حتى تلاقي مُحَمَّدا

نَبيٌّ يرى ما لا تَرَوْنَ ، وذِكْرُه ... أغارَ لَعَمْرِي فِي الْبِلادِ وأنجدا

شعره — للأعشى ديوان شعر كبير طبع فى أوربا وفيه مطولتان عد بعض العلماء كلا منهما معلقة مطلع إحداهما :

وَدِّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ ... وَهَلْ تُطيقُ وَداعًا أيُّها الرَّجُلُ ؟

ومطلع الأخرى :

ما بكاءُ الْكَبيرِ فِي الأطلالِ ... وسُؤالِي وما تَرُدُّ سُؤالِي

ويمتاز شعره كما أسلفنا بمعارفه الواسعة . وقد أدخل فى شعره ألفاظا فارسية استفادها من رحلته إلى الحيرة، ووصف سيل العرم والقصر الأبلق وتاريخهما، كما يرويه أهل عصره، كما امتاز بإكثاره من وصف الخمر وما إليها من نديم وساق وقينة وعود . وأطال فى ذلك حتى عد إمام الأخطل وأبى نواس فى هذا كله ، وحتى قالوا إنه كان له مِعْصَرة يعصر فيها العنب ويتاجر فى الخمر .

ومن قوله فيها :

نازَعتُهُمْ قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتَّكِئًا ... وقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُها خَضِلُ

لا يَسْتَفيقُونَ مِنْها وهي رَاهِنَةٌ ... إلَّا بِهاتِ وإنْ عَلُّوا وَإنْ نَهِلوا (الخ)

النثر الجاهلى

كان للجاهليين نثر ، يتكلمون به فى شؤونهم وتصريف أمورهم ، وكان لهم نثر فنى ، ونعنى به النثر المنمق اللفظ الذى صيغ فى قالب أدبى يثير المشاعر ويحرك العواطف ، وكان هذا الضرب من نثرهم أقل شأنا من شعرهم ، لأن الشعر وليد الخيال ، والنثر وليد العقل ، والأمة فى بادئ أمرها خيالها أكبر من عقلها ، ولأن النثر الذى هذا شأنه أظهر ما يكون فى الكتابة يرتب الكاتب فيها أفكاره ، ويحدد معانيه وأغراضه . والعرب فى الجاهلية كانوا أمة أمية قل فيها القارئ والكاتب ، على أن الذى قالوه من النثر فى جاهليتهم لم يصل الينا وافرا وفرة الشعر ، لأن الأدب الجاهلى روى أول أمره من طريق المشافهة ، ينقله راو عن راو سماعا ، ولم يدون إلا فى العصر العباسى الأول ، والذاكرة أقدر على حفظ الشعر وروايته من حفظ النثر وروايتـه ، لأن ما للشعر من أوزان وقواف يعين على استذكاره وضبطه ، واذا أخطأت الذاكرة فيـه فكلمة موضع كلمة ، أو شطر موضع شطر ، ولكن جوهر القصيدة سليم غالبا ، وليس كذلك النثر .

وما روى لنـا من نثرهم أنواع :

(١) قصص تروى فيه أخبارهم وأيامهم ومفاخراتهم ، وقد ورد من هذا كثير فى كتاب الأغانى ، ولكن يظهر أن هذا النوع كثيرا ما تكون ألفاظه ألفاظ الراوى ، احتفظ بالمعنى ورواه من لفظه .

(٢) مواعظ دينية كالذى روى لقس بن ساعدة .

ولكن أكثر المأثور من النثر الجاهلى هو الخطب والأمثال .

الخطابة — للخطابة صلة وثيقة بالشعر ، لاعتمادها كذلك على الخيال يثير العاطفة ويهيج المشاعر، أكثر ما تنمو الخطابة حيث الحرية والاستقلال ، وحيث الحاجة إليها شديدة فى النضال السياسى والحزبى والقومى . وهذه وسائل كانت متوافرة فى الجاهلية ، فهم أحرار جاوزوا الحد فى الحرية ، والنزاع القَبَلِى بينهم شديد . وهم أهل لسن وفصاحة ، فلا غرو أن ترق فيهم الخطابة ويعلو بينهم قدر الخطباء وتزهى القبيلة بخطبائها كما تزهى بشعرائها . وأكثر ما روى لنا من الخطب الجاهلية كان يدور حول أحد أمرين : (١) المنافرة : وهو أن يفخر رجل على رجل أو قبيلة على قبيلة فيتنافرا إلى حكم يحكم بينهما ، وقبل الحكم يقوم كل خطيبا يعدد مفاخره أو مفاخر قومه . فكان ذلك مجالا صالحا للخطيب يستعرض فيه بلاغته وفصاحته . (٢) الوفود : فقد كان شائعا عند العرب وفودهم على الملوك والأمراء فى حاجاتهم . كالذى روى فى كثير من الأحيان من إيفاد الوفود لملوك الحيرة ، إذ كانوا مقصد العرب ، وبيدهم إدارة الشؤون السياسية بين القبائل حولهم ، من إشعال نيران الحرب ، أو الدعوة الى السلم ، أو نحو ذلك . وكانوا أغنياء تطمع القبائل والأفراد فى أموالهم فكثرت الوفود عليهم ، وكثرت خطب الوفود بين أيديهم .

وكانوا إذا خطبوا وقفوا وفى أيديهم العصا فى السلم ، والقوس فى الحرب ، وقد يخطبون على رواحلهم ، وقد يضعون العمامة فوق رءوسهم إذا خطبوا . ومنه قوله : "متى أضع العمامة تعرفونى" .

وعلى الجملة فما روى من خطبهم يمتاز بقوته : معان غزيرة فى ألفاظ قليلة ، وجمل محكمة وضع بعضها بجانب بعض فى قليل من الروابط والصلات . والكثير مما روى لنا من الخطب فى صدر الإسلام كخطب الخلفاء الراشدين وأمثالهم لم يكن إلا ارتقاء لخطب الجاهلية ، تأثرت معانيها بالإسلام ولكن صياغتها وشكلها وإلقاءها وتراكيب جملها كان على نمط راق من أنماط الجاهلية .

امثلة من الخطب والوصاية

خطبة هاشم بن عبد مناف يحث قريشا على إكرام زوار بيت الله الحرام :

روووا أن هاشم بن عبد مناف كان يقوم أوّل نهار اليوم الأول من ذى الحجة، فيسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ، فيخطب قريشا ، فيقول :

"يامعشرَ قريش ، أنتم سادة العرب ، أحسنها وجوها ، وأعظمها أحلاما ، وأوسطها أنسابا ، وأقربها أرحاما .

يا معشر قريش ، أنتم جيران بيت الله ، أكرمكُم بولايتـه ، وخصكم بجواره دون بنى إسماعيل ، وحفظ منكم أحسن ماحفظ جار من جاره ، فأكرموا ضيفه، وزوار بيتـه ، فإنهم يأتونكم شُعْثا غُبْراً من كل بلد ، فورب هذه البَنِيَّة ، لو كان لى مال يَحْمِـل ذلك لَكَفَيْتُكُمُوهُ ، ألا وإنى مُخرِجٌ من طيِّب مالِى وحَلالِه ، ما لم يُقْطَعْ فيه رَحِم ، ولم يُؤْخَذْ بِظُلْم ، ولم يَدْخل فيه حَرَام ، فواضِعُه ، فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك ، فَعَلَ ، وأسالكم بحرمة هذا البيت ألا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله ومعونتهم إلا طَيِّباً ، لم يؤخذ ظلما ، ولم يقطع فيه رحم ولم يغتصب" .

خطبة هاشم بن عبد مناف فى قريش وخزاعة :

تنافرت قريش وخزاعة إلى هاشم بن عبد مناف ، نخطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة ، فقال فى خطبته :

"أيها الناس ، نحن آل إبراهيم ، وذرية اسماعيل ، وبنو النَّضْر بن كنانة ، وبنو قُصَىّ بن كِلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم ؛ لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولكل فى كل حلف ، يجب عليه نصرته ، وإجابة دعوته ، إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة ، وقطع رَحِم .

”يابنى قُصَىّ ، أنتم كغصنى شجرة ، أيهما كُسِر أوحش صاحبه ، والسيف لايصان إلا بغمده ، ورامى العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللَّجاج أخرجه إلى البغى .

”أيها الناس، الحلم شرف، والصبر ظفر ، والمعروف كَنز ، والجود سؤدد ، والجهل سَفَه ، والأيام دُوَل ، والدهر غِيَر ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعمله ، فاصطنعوا المعروف تكسِبوا الحمد ، ودَعُوا الفضول تجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يَعمُرْ ناديكم ، وحاموا الخليط يَرغَبْ فى جواركم ، وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنية ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ، وإن نَهْنَهَةَ الجاهل أهون من جريرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به .“

فقالت قريش : رضينا بك أَبَا نَضْلَةَ ! وهى كنيته .

وصية لأكثم ابن صيفى :

”تباروا فإن البر يبقى عليه العدد ، وكفوا ألسنتكم فإن مقتل الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لى صديقا ، الصدق منجاة ، لا ينفع التوقى مما هو واقع ، فى طلب المعالى يكون العناء ، الاقتصاد فى السعى أبقى للجمام ، أُصْبِحُ عند رأس الأمر أَحَبُّ إلىَّ من أن أصبح عند ذنبه ، لم يهلك من مالك ما وعظك ، وبل لعالم أمرٍ من جاهله ، يتشابه الأمر اذا أقبل ، واذا أدبر عرفه الكيس والأحمق ، البطر عند الرخاء حمق والعجز عند البلاء أمن ، لا تغضبوا من اليسير فانه يجنى الكثير ، لا تجيبوا فيما لا تسألون عنه ، ولا تضحكوا مما لا يضحك منه ، حيلة من لا حيلة له الصبر ، إن تعش ترما لم تره ، المكثار كحاطِبِ ليلٍ ، من أكثر أسقط ، لا تجعلوا سرا إلى أَمَة .“

الأمثال — وأما الأمثال فجمل رصينة جمعت فيها تجارب الأمة واجتمع فيها إيجاز اللفظ وإصابة المعنى وحسن التشبيه .

والأمثال — عادة — صورة صحيحة من صور الأمم ، وتمتاز بأنها لا تمثل عقلية طبقة راقية فقط كالشعراء ، ولكنها تمثل عقليات الشعب جميعه ؛ لأنها تنبع من طبقاته المختلفة . والأمثال تختلف باختلاف معيشة الأمم الاجتماعية؛ فالأمة البحرية أمثالها مشتقة من حياتها، والأمة الصحراوية كذلك ، كما تختلف باختلاف درجة الأمة فى الرق وهكذا .

والعرب من أغزر الأمم أمثالا ، وكانت أمثالهم إما جملا حكيمة ينطبق بها عقلاؤهم وذوو التجربة فيهم ، وقد اشتهر بهذا النوع زهير بن أبى سلمى شعرا ، وأكثم بن صَيْفِيّ نثرا . وإما أمثال قيلت فى حوادث تمثل الناس فى الأحداث المشابهة مثل : الصيفَ ضَيَّعْتِ اللَّبَنَ — ولأَمْرٍ مّا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ — والقافلة تسير والكلاب تعوى — ولا فى العِير ولا فى النَّفير . وقد جمعت الأمثال العربية فى كتب كثيرة أشهرها وأجمعها كتاب الأمثال للميدانى . ولكن مع الأسف لم تجمع أمثال كل عصر على حدته، بل اختلطت فيها أمثال الجاهلية بأمثال الإسلاميين وأحيانا يسهل معرفة العصر الذى قيل فيه المثل من الحادثة التى قيل فيها ، وأحيانا لا يعرف ذلك ، وهذا فى كثير من النوع الأول وهى أمثال الحكمة (١) .

---

(١) انظر طائفة من الأمثال فى المنتخب .

عصر صدر الإسلام

من بدء الإسلام إلى سنة ٦٠ هـ

ارتقاءُ حياة العرب الاجتماعية والسياسية بظهور الإسلام

كانت البداوةُ طبيعة غالبة على أمة العرب فى أُخريات جاهليتها حتى على ملوكها وأقيالها من سكان القُرى، فلم يكن يُؤْثر عنهم علم نافع، ولا شرع وازع، ولا صناعة محكمة، ولا تجارة منتشرة، ولا معاملة حسنة، ولا أمن شامل، ولا ملك عتيد.

فلما ظهر الإسلام جاءهم بِهَدْيٍ مُنير، وخيرٍ كثير، ومُلْكٍ كبير؛ فأحياهم حياة طيبة راقية فى اجتماعِهم وسياستهم.

رقى حياتهم الاجتماعية — فمِن مظاهر رُقِيّهم فى حياتهم الاجتماعية الجديدة :

(١) نظام الأُسْرة :

قد أبطل الإسلام كثيرا من أنواع الزواج والمخالطة البَشِعَة التى كانت فاشية فيهم، وقَصَرَهُمْ على الزواج الشرعى بشروطه المعروفة. فحَفِظَ به الأنسابَ وبيَّنَ النفقاتِ، وحدَّد أكبر عددٍ للزوجات بأربع للقادر المستطيع العدل بينهن، وقد كان فى الجاهلية غير محدود. وفى هذا التعدّد القليل مَرْحَمَةٌ للنساء عند فَنَاء الرجال فى الحروب، وهى ضرورية فى دِينٍ يَجِبُ على أهله الدعوة إليه، وحماية هذه الدعوةِ من المعتدى عليها بالقوة. وأباح للأرامل المتوفَّى عنهن أزاجهن الزواج بعد أن كان وَلِيُّ المتوفَّى يَعْضُلُهُنَّ (أى يمنعهن عنه) ووَرَّثَ النساءَ بعد أن كان أكثر قبائل العرب لا يورثهن.

(٢) فى الجماعة (نظام الجماعة) :

فقد حرَّم الاسلامُ الدعوةَ إلى العَصَبيَّة الممقوتة ، واستَبْدَلَ بها جامعةَ الدين ، وجامعةَ الطاعة لحاكم واحد هو وَلِيُّ أمر المسلمين ومن دَخَل فى ذمَّتِهِمْ . وسَوَّى الاسلامُ فى الحقوق الدُّنْيوِيَّة والتكاليف الدينية والعقوبة ، وجَمَعَهم فى صلاة الجماعة والجُمَع والعيدين والحج . وعاشوا آمنين يُنْصِفُهم القاضى ، ويتفقدهُمْ العَسَسُ ، ويزعهم الشُرَطُ ، وتُقام عليهم الحُدود ، و يُطْرح العاتى منهم فى السجون ، و يفقه عالِمُهم فى الدين جاهلَهم .

(٣) نظام التعيش والتكسب :

فقد قرر أقْصَى عقاب على من يَتَكَسَّب بطريقة شَنِّ الغارات ، واغتصاب أموال الناس ، وجعلهم بغاراتهم هذه يحاربون الله ورسوله ويسْعَوْن فى الارض فسادا ؛ فقال تعالى : "إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ" وعوَّضهم رزقا شريفا بجعله مضمونا تحت ظلال رماحهم ، ومعقودا بنواصى خيلهم : وذلك بضرب الهجرة إلى فتح الأمصار ، والدعوة إلى دين الله ، واغتنام الفَىء والاكتتاب فى ديوان الجيش والأَعْطيات ؛ ففتحوا بلاد الفرس وأطيبَ بلاد الروم ؛ فكم تركوا من جَنَّات وعُيون وزُروع ومَقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ؛ واقتسموا الأرض واستَغَلُّوا الريف والضياع ، واختَطُّوا الدُّورَ وشَيَّدوا القصور بأيدى عبيدهم أو مواليهم ، من أهل الممالك التى افتتحوها . وكان القرن [١] الذين خَلَفُوهم ووَرِثوا نعمتهم من أبنائهم وحَفَدَتِهِمْ أهلَ حَضَرٍ فى كل شىء ؛ حتى كان منهم فى مكة والمدينة مُتْرَفُونَ يلبَسُون الرقيقَ ، و يَلْهُوْنَ بالغناء وعَزْف القيان .

---

(١) القرن هنا أهل زمان واحد .

رقى حياتهم السياسية — ومن مظاهر ترقية حياة العرب السياسية فى خاصة أنفسهم وفى أهل الممالك التى استولوا عليها :

(١) أنهم خضعوا لإمام واحد يأتمرون بأمره وينتهون بزجره ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى حياته . وخليفة له من بعده يبايعونه بالخلافة فيسوقهم هو لنشر الدين وإعلاء كلمته وفتح البلاد المستغلقة على الاسلام ، ويقومون هم بتأييده ومحاربة الخارجين عليه ، فتكون بذلك من جميع قبائل العرب وحدة سياسية إسلامية متوحدة فى الدين واللسان ونظام الحكم والآداب .

(٢) استقلال كثير من بلاد العرب ، وخروجهم عن تابعية الممالك العظيمة المجاورة لهم من الفرس والروم ، ودخولهم جميعا فى نطاق الوحدة الاسلامية ، وهم :

(ا) عرب اليمن — وكانوا قبيل الاسلام تحت سلطنة الفرس يبعثون عليهم عاملا من قبلهم . وآخر عامل عليهم (بَاذَانُ) الذى أسلم ودخلت اليمن جميعها فى الاسلام .

(ب) عرب البحرين — وكان أكثرهم مجوسا تابعين للفرس ينصبون عليهم ملِكا من العرب ، وآخرهم (المنذر بن ساوى) وقد أسلم وأسلم قومُه .

(ج) عرب بنى نَصْر من لَخْم — وملوكهم المناذرة ملوك الحيرة ، وكانوا عمالا للفرس على عرب الفُرات ، فُتِحتْ بلادهم زمن أبى بكر وعمر ودخلوا فى الإسلام .

(د) عَرَبُ غَسَّان — ويتزلون شرقىَّ الشام ، وكانوا نصارى تابعين للروم يُنَصِّبُونَ عليهم ملوكا منهم بمنزلة عمال لهم وآخرهم جبلة بن أَيْهَم أسلم ثم ارتد وهَرَب إلى القسطنطينية ، وأسلمت بقية غسان . وأصبح أشراف هذه الإمارات التى كانت تابعة للفرس والروم سادات فى الإسلام فى بلادهم وغير بلادهم بعد أن كانوا بمنزلة الرعية أو الحُرَّاس على تُخُوم الأعاجم .

تَمَرُّنُهُمْ على أساليب حكم الأمم — فَحَوَّلَ الاسلام كثيرا منهم من أعراب جُفاةٍ أو تجارٍ صغارٍ إلى خلفاء وأمراء وعمالٍ وقضاة ، فبرعوا فى قيادةِ الجيوش واخْتِطاطِ المدن وتولى مناصبِ الدولة من الإمارة والجباية والشرطة والقضاء والمظالم، يَشْهَدُ لهم بتلك البراعة فى الحكم ماحفِظه التاريخ من كُتُبهم ووصاياهم إلى الوُلاة، ومن العهود التى كانوا يعقِدونها مع الأمم المغلوبة وأهل الذِّمَّة فى مُشَارطاتِ الصُّلح وعَقْد الهُدنة، ومن العهود التى كان يكتبها الخليفةُ والأمراءُ عند تولية العمال والقضاة . نعم إنَّ بعض هذه النُّظُم مقتبس من نظام الدول التى افتتحوها ولكن روح الإسلام هو الذى حَفَزَهم إلى اقتباس النافع، إذ كان مِن أشْرَفِ تعاليمِه أن الحِكمةَ ضَالَّةُ المؤمِن يَنْشُدُها أنَّى وَجَدَها (أى أن المؤمِن يجب عليه أن يَتَطَلَّبَ النافِع ويأخذ به مهما كان مصدره) .

ومن حُسْنِ مِرانَتِهِمْ على أساليب السياسةِ حسنُ معاملتهم لأهل الذمة ؛ وتسويتُهم بالمسلمين فى أكثر الحقوق المدنية ، واستخدامُهم فى مرافِق البلاد من الجبايةِ وهندسةِ الرى وكتابةِ الدواوين، وإعفاءُ العَجَزَة والشيوخ والأطفال والرهبان من الجِزْيَة ، ومصاهرتُهم لهم بالتزوج مِن نِسائهم والتَّسَرِّى بهن، فامتزجت دِماؤهم بدماءِ أمم شتَّى من فُرْس وسريانٍ ورُوم مما يُعْرَف منه أن الاسلام ألَّفَ من أممٍ متقاطعةٍ مُتَباغضةٍ أمة مهذَّبة متدينة سياسية حربيـة ، أنقذت كثيرا من الأمم المظلومةِ ، وساستهم خير سياسةٍ ، وسهلت لهم سُبُلَ التَّرَقِّى وامتزجت بعد دماؤها بدمائهم ، وغلبت لغتُها على لغتهم ، حتى كوَّنت منها ومنهم وحدة إسلامية مَلَكَتْ من حدود الهند والصين الى جبال البرانس من إسبانيا .

القرءان

القرءانُ هو كتابُ الله العزيز الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هُدًى وبُشْرَى ، ومَوْعِظَةً وذِكْرَى ، ودَعْوةً إلى خيرِ الدنيا والأخرى .

أنزله عليه بطريق الْوَحْيِ مُنَجَّماً على حسب الوقائع والْأَحْدَاث والتَّدَرُّج فى التكاليف والفرائض لِيُنْشِئ الأمة العربيــة تَنْشِئَةً تَصْلُح بهــا لتبليغ العــالِم رسالة توحيد اللهِ توحيدا خالِصا مِن شوائب الشِّرْك ومشابهة المخلوقات فى أى شىء .

وتَمَّ نزوله على رسول الله فى ثلاثٍ وعشرين سَنَةً كان فى ثلاثَ عشرةَ سنةً منها يقيم بمكة ، وهى وَطَنُهُ الذى نشأ فيه ، وتُسَمَّى الآياتُ والسُّوَرُ التى نزلت فيها أو فيما حولها (مَكِّيَّة) . وكان فى عشر السنينَ الأخرى يقيم بالمدينة ، وهى دار هجرته التى قَضَى فيها بقية حياته . وتُسَمَّى الآياتُ والسُّوَرُ التى نزلت فيهــا أو فى غَزَوَاتِهِ وأسْفارِهِ فى أثناء إقامته فيها (مَدَنِيَّة) . ومجموعُهما أربعَ عشرة ومائةُ سورة .

وأولُ ما نَزَلَ من القرءان : " اِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسٰنَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسٰنَ مَالَمْ يَعْلَمْ " نزلت على رسول الله وهو يَتَعَبَّدُ بِغَارِ حِراءٍ بقرب مكة .

وأولُ ما نزل عليه بالمدينة : " وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولٰئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعٰلَمِينَ " لأنهم كانوا أشــد العرب إخسارا للكيل والميزان .

وآخر آية نزلت على أشهر الأقــوال : " اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلٰمَ دِينًا " نزلت عليه فى حجة الوداع وقُبَيْلَ حجة الوداع نزلت عليه سورة التوبة .

موضوعاتُ سُوَرِ القرءان أو أغراضها ومقاصدها

كانت موضوعاتُ الآياتِ والسور التى نزلت بمكة الدعوةَ إلى عبادة الله وَحْدَه لا شريك له ، وتنزيهِه عن مشابهة خَلْقِه ، ونَبْذ عبادة الأوثان التى لا تَنْفع ولا تَضُرُّ ، وإلى الإيمانِ بحياةٍ أخرى بعد الحياة الدُّنْيا فى يومٍ يُبْعَثُ فيه الناس ، ويُنْشَرُون ويُحَاسَبُون على ما قَدَّموا فى دار الدنيا فيُجازَى المؤمنُ بنعيمِ الجنةِ الخالدِ ، ويُعاقَبُ الكافرُ بجَحيم جَهَنَّمَ الخالدِ . يُقرِّرُ كل ذلكِ فى صُورٍ شَتَّى وأساليبَ مختلفةٍ : فمن مَوْعظةٍ حسنةٍ ، وحِكْمةٍ بالغة ، وحَثٍّ على التَّمسُّك بفضيلة ومَكْرُمَةٍ ومن عِبرةٍ بقصِّ قِصَّةٍ طاغيةٍ ، أو عاقبة أُمم باغية ، وسِيرَةِ رسولٍ مع قومه ، ومنِ استدلالٍ بخلق السمواتِ والأرض على قُدرةِ مُوجِدها ، وعلى وجوب تَوَحُّدِه بالرُّبُوبِيَّة ، ومن إنذارٍ للمعاندين ، وتقريعٍ للمستهزئين ، ونَعْيٍ على الجاهلين ، وذمٍّ للكافرين . كلٌّ أولئك بعباراتٍ بليغة وفقارٍ مُفَصَّلَةَ وسورٍ كانت فى أول الإسلام قصيرة ثم طالت بحسب الأحوال ، وذلك لأن أهمَّ ما قَصَدَ إليه الاسلام فى أول أمرِه بيانُ منزلة العبدِ مِن مولاهُ وخالقِه ، وما أعده له على طاعته أو معصيته مِن ثوابٍ أو عقاب .

ثم لما قَوِىَ الإسلامُ بالهجرة إلى المدينة ، وقَيَّضَ الله له الأنصارَ مِن أهلِها يُؤَيِّدونه ويُعلُون كَلِمَتَهُ صار أكثرُ موضوعات الآيات التى نزلت على رسول الله بالمدينة وفى أثناء خروجه منها للغَزاةِ أو الأسفار يَشْمَلُ فَوْقَ ما تقدم أمورا أخرى : مثل نظامِ العِبادة ، وفرضِ الفرائض ، والتحليلِ والتحريم ، ومثل نظامِ الأسرة : مِن تقريرِ أحكامِ الزواج والطلاق والميراث والوصيَّة والاسترقاق والعِتْق ، ومثل نِظام الجماعةِ باطاعة أولياء أمورِهم ، والتَّناصرِ على إقامة الحدود ، وحماية العِرْضِ والمالِ وتقريرِ العَدالة فى القضاء والأحكام ، وتحديد المعاملة الحسنة فى البيع والشراء والمُدَاينة والرَّهْن ، ونحو ذلك مثل نظامِ معاملة أُمَّة المسلمين لغيرِها من الأمم فى

الحرب والسلم وتقسيم الغنائم ومعاملة الأَسْرَى وعَقْد الهُدُنات والمعاهدات وسياسة المغلوبين مِن غير المسلمين : من أخذِ الجزية مِن أهل الذِّمّة ومصالحة غيرهم، وغير ذلك مما تقتضيه مصالح البشر فى الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وجُملةُ القول أن القرءانَ كتابُ هدايةٍ إلى مكارم الأخلاق والآداب والى توحيدِ الله وعبادتِه وتنزيهه عن مشابهة خلقه . وكتاب شَريعَةٍ لحقوق الأسرة والأمة فى خاصة نفسها وفى علاقتها بغيرها .

أسلوب القرءان — وقد نزَلَ على أسلوبٍ من الكلام لا يُضارِعُه أسلوبٌ قبله ولا بعده مِن كلامِ البَشَرِ ، فلا هو شِعرٌ ولا هو سَجعٌ ملتزَمٌ ، ولا هو مُزاوجةٌ دائمة ولا هو نثرٌ مُرسَلٌ إرسالَ الحديث ولا هو خطابة ، وانما هو نَظْمٌ بديع من كلامٍ عَذْبِ اللفظ مُحكَمِ الوضع باهرِ الرَّوْعَةِ حَصيفِ المعنى ، فُصِّل بين أجزائه تفصيلا تَشعُرُ النفسُ عند انتهاء أى فاصلة منه بانتهاء القول، وتطمئن إلى الوقف عليها ولو تعَلَّق بما بعدها . وتتنوعُ طُرُقه فى الإقناع بتنوع طبائع المخاطَبين به : فمن قصصٍ على أشكالٍ مختلفة فى إطناب أو ايجازٍ أو توسُّط وبفواصلِ طِوال أوقصارٍ أو متوسطة ، ومن استدلال على حقائق الأمور بالآثار المشاهَدة فى خَلْق السموات والأرض ، أوضَربِ الأمثال أو بقياسِ الغائب على الحاضر أو بالبرهانات النظرية ، ومن تصريح وتكرير إلى كنايةٍ و إيجاز .

كُلُّ أولئك مُصَوَّرٌ بصورةٍ فوق طاقة البشر مِن الإحكام والبلاغة وصحة الحُكم وانتفاء التناقض والاختلاف ؛ فان البشر إذا أجاد أحدهم فى فن من الكلام قَصَّرَ فى غيره . "أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ القُرءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فيه اختلافًا كثيرًا" .

أثر القرءان فى اللغة

القرءانُ قرءانٌ بمجموع ألفاظه ومعانيه ، والتعبيرُ عن معانيه بألفاظ غير ألفاظه يُخرجه عن صورته التى نَزَل بها وأَعْجزَ البشرَ محاكاتُها فى فصاحتها وبلاغتها . لذلك عُنىَ المسلمون بحفظه جِدَّ العناية ، وقرءوه ودوّنوه بلغة قريش المُنَزَّلِ بها ؛ فكان ذلك بمثابة تصديق لقوله تعالى : "إنّا نحنُ نزّلنا الذِّكْرَ وإنّا له لحافظون" وكان لحفظه أثر عظيم عاد على العربية وأهلها بفوائد شتى :

(١) منها حِفْظُهَا من الانقراض كما انقرض غيرها من اللغات القديمة التى تُعَدُّ الآن من اللغات الأثرية .

(٢) ومنها توحيده لَهَجَاتِهَا فى لَهْجَةِ قُرَيْش ؛ فكان من ذلك التئامٌ لِصُدُوعِهَا وَجَمْعٌ لِشَتِيتِ قبائلها فى لغة العِبادة والقراءة والكتابة .

(٣) ومنها توسيعُه نطاقَها بالتوسع فى استعمال بعض ألفاظها لِتَتَّسِعَ للمعانى الدينية والفقهية مما سُمِّىَ بالألفاظ الإسلامية كلفظ المؤمن والكافر والمنافق والصلاة والصوم والزكاة وغير ذلك .

(٤) تهذيبُه ألفاظَها وأساليبها ، وذلك بكثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم فى الصلاة والتعبُّدِ به ، وطول دَرْسِهِمْ له وَتَفَهُّمِهِمْ إياه واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم منه والتأدُّب بعباراته وأمثاله وإيجازه ومجازه وتشبيهه واستشهادهم به واقتباسهم منه والتلذُّذ بتلاوته ؛ فينشأ من كل ذلك اطمئنان فى النفوس به وميل إلى محاكاة أساليبه وإيثار ألفاظه بالاستعمال فى التحدث والخطابة والكتابة والشعر ؛ إذ كانت أساليبُه وألفاظه تَتَسامى فى جميع وجوه الكلام عما عرفوا ، وتتجافى عن المبتذل أو الحُوشِىِّ الذى ألفوا .

(٥) جعلها لغة عامة رسمية لجميع أهل الممالك الكثيرة التى افتتحها المسلمون لأن جَمْهرتهم أسلموا واندمجوا فى العرب فاضْطُرُّوا إلى هَجْرِ لغاتهم الأصلية وَتَعلُّمِ العربية للتفاهم مع أوليائهم من العرب وتفهم القرءان والسُّنَّة لأخذ أحكام دينهم ومعاملتهم بهما .

(٦) إحداثُه لكثير من العلوم اللغوية والشرعية التى أكسبت اللغة من الاصطلاحات والأساليب الفنية ثروة عظيمة لم تكن تَعْرِفُهَا من قبل : مثل علوم اللغة والأدب والنحو والصرف والاشتقاق والمعانى والبيان والبديع ورسم الحروف والقراءات والتفسير والحديث والأصول والتوحيد والفقه الخ .

فصاحة النبي صلى الله عليه وسلم
وأثرها فى اللغة

كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أفصحَ العرب لَهْجَةً ، وأبلغهم حُجَّةً ، وأعذَبهم كَلِماً ، وأغزرهم حِكَماً ، وأصدَقهم حديثا ، وأَوْجَزهم عِبارة ، وأعلمهم بلغاتِ قبائل العربِ ، وأقدرهم على مخاطبةِ كل قبيلةٍ بلغتها .

فلا جَرَمَ أن يكون المأثور عنه من الحديث صَفْوَةَ اللغةِ وحِلْيَة البيان بعد القرءان : يقتبس الأديب مِن لفظِه ، وينتفع البليغ بصَوْغه ، ويَسْتَمِدُّ مفسر القرءان مِن أثره ، ويستكمل الفقيه الأحكام الشرعية من نَصِّه ، ويُشَيِّدُ اللغوى صَرْحا للغة مِن كَلِمِه ، ويستظهر الحكيم بحكمته ؛ إذ كان عليه صلوات الله لا ينطق بلغوٍ ولا يقصد الى غير توضيح قرءانٍ أو تقرير شَرْعٍ أو هدايةٍ إلى حق .

ولم يُدَوِّنْ أصحابُه رضى الله عنهم حديثَه من ساعته خشية أن يختلط على عامة المسلمين المَرْوِيُّ منه بالمروى من القرءان ولكن مَنْ أَمِنَ مِنْهُم على نفسه ذلك الاشتباهَ كان يُقَيِّدُ بعضَه بالكتابة لنفسه إما بلفظه وإما بقريب منه .

ولرسول الله من مجاز اللغة كلماتٌ لم يُسْبَقْ إليها منها قوله عند احتدام الحرب : (الآنَ حَمِيَ الْوَطِيسُ) ، وقولُه فى الأمر بالأُهْبَة : (ياخَيْلَ اللهِ ارْكَبِي) ، و (مات حَتْفَ أَنْفِهِ) ، وقوله : (هذا يومٌ لَهُ ما بعدَه) .

وله من جوامع الكلم ما يجلو صَدَأَ النفس ، ويشرحُ ضِيقَ الصَّدْر . فراجع منه بعض ما تيسر ذكره فى "المنتخب".

الشعر فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين

كان الشعرُ عند العرب فى جاهليتهم ديوانَ آدابهم ولسان بيانِهم الذى به يُفصِحون عمّا يَقَعُ تحت حواسِّهم أو يَخْطُر على قلوبهم مِن وصفٍ أو تشبيبٍ أو مدحٍ أو هجاء أو فخرٍ أو رثاء ونحو ذلك مما يُصَوِّرُ حياة البداوة المَشُوبَةَ بشوائبَ من الوثنية وخيالات من الديانات السماوية وغير السماوية .

فلما بَدَّلهم الاسلام بحياتهم الجاهليـة حياةً راقية من حيثُ التديُّنُ والتعقلُ والاجتماعُ والسياسةُ كان شعرُ الشعراء الذين عاشوا فى عهد النبي وخُلَفائه ممن أدركوا الجاهليةَ والإسلامَ جامعاً بين مَظَاهِرِ الحياتين ، ولذلك يُسَمَّوْنَ بِالمُخَضْرَمِينَ لأن الأصل فى معنى الخَضْرَمَةِ أن يُجعَلَ الشيءُ بَيْنَ بَيْنَ. وتظهر الصِّبغةُ الاسلامية واضحةً فى شعر الشعراء الذين تَمَلَّئُوا بروح الإسلام أو عاشروا رسـول الله ودافعوا عنه : كحسّان وعبد الله بن رَوَاحَةَ وكعب بن مالك ، ولا تَتَّضِحُ جَلِيَّةً فى شعر أعراب البوادى من أمثال الحُطَيْئَة .

واقتضى عِنادُ مُشْرِكى مكة أن يقاوموا الإسلام بمـا استطاعوا من قوة حتى قوة الهجاء ؛ فعانوا الشعر بعد أن لم يكن لهم شأنٌ فيه . وظهر فيهم شعراء ناصبوا رسولَ اللهِ العداءَ ونظموا فى هجائه شعرا مصطبغا بصبغة وثنية ؛ حتى إذا أسلموا هجروا الشعر : من أمثال عبد الله بن الزِّبعرى وأبى سُفْيان بن الحارث وضِرار بن الخطاب وعمرو بن العاص .

على أن كثيرا من الشعراء أصغروا الشعر وقولَه عن أن يكون مشغلة لهم عن مُدارسة القرءان وعبادة الله ، وخاصة بعد أن سمعوا قوله تعالى: "وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا من بَعْدِ ما ظُلِمُوا " ومن هؤلاء لبيد العامرى من أصحاب المعلقات ؛ لأن أكثر أغراض الشعر من باب هذه الغواية التى ذمها القرءان .

ونجمل هنا ذكر ماطرأ على شعر هؤلاء المخضرمين (ومدتهم قليلة لا تبلغ نصف قرن من الزمان) فيما يتعلق بأغراضه وأسلوبه :

ما يتعلق بأغراضه :

(١) هَجْرُ الشعراءِ المتورعين فى الدين من المسلمين كثيرًا من أغراض الشعر التى تُعَدُّ من باب الغواية التى نعى القرءان على أهلها فى قوله : "والشعراء يتبعهم الغاوون" ولا تُحْسَبُ من باب الانتصارِ للدين مِنْ ظالميه المُسْتَثْنَى من الغاوين بقوله : "إلا الذين آمنوا وعملو الصالحات وانتصروا من بعد ما ظُلِموا " أما غير المتورعين من أشباه الحطيئة وغير المسلمين من نصارى العرب فكانت حالهم فى شعرهم أشبه بحالهم فى جاهليتهم ؛ فمن هذه الأغراض التى هُجِرَ قولُ الشعر فيها : الغزل المفحش الصريح ودواعيه ، وتَمَلُّق الناس بالمدح ، وهجوهم بغير كفرهم وعنادهم ، والفخر بالباطل ، ووصف الخمر وما يُحْشَد فى مجالسها من الندمان والقِيان ، ووصف صيد الوحش وطَرْده مما كان يَعُدُّه المسلم المتأثر بالحياة الإسلامية الجديدة عَبَثًا ولَهْوًا وغرورا .

(٢) مناقضة شعراء المسلمين لأهاجى شعراء المشركين ، وخاصة ما وقع بين شعراء الأنصار وقُرَيش قبل فتح مكة ممن تقدم ذكرهم آنفا . ومن الحديث فى هجاء هذا العصر تعيير المشركين بالكفر وعبادة الأوثان وارتكاب ما يحظره الإسلام كما فى شعر عبد الله بن رَواحة من الأنصار ؛ فكان هجاؤه أهونَ الهجاء على مشركى مكة ولكنه كان أشدَّه عليهم بعد إسلامهم .

وقد أمر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بهجاء المشركين لأن العرب كانت تعد سَيْرُورَةَ الشعر بهجائهم أشد عليهم من وَقْع السهام .

(٣) استعمالُ الشعرِ فى تأييد دعوة الإسلام وفيما يُطابق روح القرءان كالحثّ على العمل الصالح وكالموعظة الحسنة وكمدح رسول الله وأنصاره والحَضّ على جهاد أعداء الاسلام ورثاء من استشهد فى غزوات رسـول الله أو قُتِلَ ظُلْماً من خلفائه وكبار أصحابه .

(٤) شيوعُه على ألسنة شعراء الفاتحين زمن الخلفاء الراشدين فى الفخر والتباهى بالانتصار على جيوش الفرس والروم والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم ووصف المعاقل والحصون وآلات القتـال والحصار التى لم يكونوا عرفوها وأنواع الحيوان العجيب الذى لم يشاهدوه ، ومنه الفيلة التى حارب الفرس عليها العرب ، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفائن البحر ونحو ذلك : مما مُلِئَتْ به كُتُبُ المَغَازِى والفتوح . ويكثرُ فى هذا النوع من الشعر الأراجيزُ .

ما يتعلق بلفظه وأسلوبه ومعانيه :

يقسم الأقدمون من الأدباء الشعراءَ المخضرمين طـائفتين متميزتين : شعراء الوَبَر من أعراب نَجْد واليمامة وبواديها ، وشعراءَ المَدَر أى أهل القرى كالمدينة ومكة والطائف ، وقرى عبد القيس فى البحرين ، والحيرة بسواد العراق . ويرَوْن أن شعر أهل نجد واليمـامة والبوادى أفحل من شعر أهل القرى وأجزل لفظا وأفخم معنى وأوسع مذهبا فى تنويع أساليب الكلام ولكن شعرهم لا يخلو من حُوشِيَّةٍ فى العبارة ، ومنهم كان فحول الشعراء فى الجاهلية .

ويرون أن شعراء المدر ألْيَنُ شعرا وأرقُّ لفظا وألطف كناية وأدمث أسلوبا . وأن أشعرهم جميعا أهل المدينة ، ومنهم كان شعراء النبى الذين نافحوا عنه الشعراء الناشئين فى قريش بعد أن لم يكن لها شعر يذكر ، وأن شعر الأنصار من الأوس

والخزرج فى هذا العصر لانَ فى اللفظ ، وهانَ فى المعنى عما كان عليه فى الجاهليــة . وعلّلوا ذلك بأن الإســلام نَسَخَ كثيرا من بواعث الشر التى كانت تُثير النفوس وتُشعل الأحقاد : كالعصبية الجاهلية ، وحب الانتقام ، والأخذ بالثار ، والنَّشوة بالخمر ، والهجاء الكاذب ، وأ كثر ما يجيش بالخواطر عند احتدام الشرور وتسكن إليه النفس عند الرضا والسرور . وأمرٌ آخر ذكروه ، وهو أن كثرة تَلَقّيهم آيات هذا القرءان المعجز ونزوله بينهم كلَّ حين بما يَبْهَرُهم ويأخذ بمجامع قلوبهم صغَّر قيمة شعرهم فى أعينهم ، واستَخَسُّوا معانيهم وأسلوبهم بالإضافة الى معانيه وأسلوبه ؛ فهبطت قوة شعرهم عما كانت عليــه ؛ ومثلوا لذلك بقوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإســلام وشموخ شعر أميَّة بن أبى الصَّلت فى الجاهليــة واستخذائه فى الإسلام : لمكان حسده لرسول الله . وأكبرُ من ذلك أنَّ لبيدا العامرى ، وهو من أفحل شعراء الجاهلية ، عند ما انقطع الى حفظ القرءان ومدارسته انقطع عن قول الشعر فى الإسلام . ويقولون : إن من لم يتعرض لهذا الإفحام والانبهار من أعراب البوادى بقى شعره إلا قليلا على غرار شــعر الجاهلية من أمثال الحطيئة وكعب ابن زهير .

وكلُّ هــذا كلام وجيه مقبول فى جملته ، ولكنَّ كثيرا من أهل العلم والنقد من المتقــدمين والمتأخرين يرون أنَّ بعض ما يُسْتَضْعف من شعر مكة والمدينــة والطائف مَدْسُوسٌ عليهم لأغراض دينية وفكاهية .

وللقرءان وفصاحة حديث النبي صلى الله عليه وسلم وخطبه أثر عظيم فى ترقيق شعر المخضرمين بعامة وشعر أصحابه بخاصة .

فقد كثر فى شعرهما استعمال ألفاظ القرءان وأساليبه وتشبيهاته وتوليد المعــانى من العقائد الإسلامية ، وشاع فيه كثير من الألفاظ الإسلامية كالصلاة والزكاة والصيام والجنة والنار والثواب والعقاب والبعث والنشور وأسماء كثير من الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين .

حسَّان بن ثابت

هو أبو الوليد [١] حسَّان بن ثابت بن المنذر الأنصارى الْخَزْرَجِىُّ النجَّارِىُّ أشعر شعراء رسول الله .

وبنو النجار أخوال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن أمَّ عبدِ الْمُطَّلِبِ جَدِّهِ منهم ، ولذلك كان لحسان به صِلَةُ قرابةٍ فوق صلة مدحِه له ونفحه عنه .

وبنو النجار من قبيلةِ الخزْرج ، وهى إحدى القبيلتين الأختَيْن اللتين سُمّيتا بعد هجرةِ النبى إلى المدينـة بالأنصار . وكانت هى وأختُها الأوْسُ تُسَمَّيَان ٱبنى قيْلة (أمِّهما) وكلْتاهما بَطْنٌ من قبيلة الأزْد من القحطانية .

وكان يُساكنهما بالمدينة عشائر من اليهود ، وهم أصل سكانها غلبتْ عليهم هاتان القبيلتان ثم تَرَاضَوْا هم واليهود على المجاورة والإقامة فيها . وكان بين القبيلتين فى الجاهليـة منافسات ومناوَشات يجرُّها عليهما بعض سُفهائهما ؛ فيقتُلُ بعضُهم من بعض ويطالِبُ أولياءُ المقتول بثأر القاتل ؛ فوقعت بينهم حروب كان بها بعضهم لبعض عدُوًّا حتى أسلموا وهاجر النبى إليهم فألَّف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

ووُلد حسان بالمدينة قبل الهجرة بنحو ستين عاما ، ونشأ بها ، وأدرك بعض وقائع قومه الخزرج مع الأوْس ، فكان شاعرَهم .

وكان قيس بن الخطيم شاعر الأوس ، فكان بينهما مناقضة ومُلَاحَاة وَلَّدَتْ فى حسان الفخرَ والحماسةَ قولا لا فعلا .

فأما ابن الخطيم فكان شاعرا شجاعا فاتكا ، ومات قُبَيْلَ الهجرة . وأما حسان فلم يكن شجاعا وإنما يعين وَلِيَّه بلسانه ، وكذلك كان مع النبى فى نِضاله أعداءَه من قريش وفى غزواته .

---

(١) ولقب أيضا فى الاسلام بأبى عبد الرحمن .

ولما أحس حسان من نفسه قدرة على قول الشعر الجيد ورأى فحول زمانه من أمثال النابغة والأعشى والحطيئة يتكسَّبون بالشعر ويحترفون بالمدح رغِب فى عرض مدائحه على ملوك العرب ، فكان ينتجع بها آل جَفْنَة ملوك غَسَّان بشرق الشام ، وهم من قبيلة الأزد أيضا ، فكان يقصدهم بمدائحه عاما ، و يقعد عنهم عاما ، وكان يرجع عنهم بالجوائز السنية حتى قيل إنهم جعلوا له مرتبا سنويا يصل إليه . وربما انتجع النعمان بن المنذر ملك الحيرة . ولاقى النابغة مرة عند جبلة فأنشده لاميَّتَه المشهورة ففضلها جبلة على شعر النابغة . ولم يكن حسان وهو شاب ليبذَّ النابغة فى عامة شعره وهو الذى يعتبر شعره وشعر زهير والأعشى خلاصة شعر الجاهلية وزبدته .

ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع أهل المدينة ولم يعدَمْ من لسانه نصرةً لرسول الله إذ لم يستطع نصرتَه بسيفه . فقد كان ثلاثةُ رهطٍ من قريش وهم عبد الله بن الزِّبعرى وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعمرو بن العاص قبل إسلامهم يهجون رسول الله والأنصار ، فاستنصر رسول الله الأنصار فى الرَّدّ عليهم ، فتجرَّد لهم ثلاثة من الأنصار هم عبد الله بن رواحة وكعبُ بنُ مالك ، وأشعرهم حسان . فقال له رسول الله : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : أَسُلُّكَ منهم كما تُسَلُّ الشَّعْرةُ من العجين . فقال : إيتِ أبا بكر فهو أعلم بالقوم . فأطلعه أبو بكر على مخازيهم ، وما يُتَّهمون به فى نسبهم ؛ فهجاهم أوجع هجاء عليهم فى جاهليتهم ، ولم يمسّ رسولَ الله من هجائه لهم شىء .

وبقى حسان شطر حياته الأخير فى الاسلام يعيش فى زمن رسول الله مما اقتنى وخلَّف له أهله ، ومما كان يقْسمه له رسول الله من الغنائم والهدايا . وقد وهب له سيرين أخت مارية القبطية أمّ ولد رسول الله ؛ وهما من الهدية التى بعث بها المقوْقس اليه فأولدها حسان ابنَه عبدَ الرحمن .

وكان له أُطُمٌ (أى بناء عال) يسكنه بالمدينة يُسَمَّى فارعا .

وكان الخلفاء يفرضون له فى العطاء بعد رسول الله مثل ما كان يُفْرَضُ لكبار الصحابة المقيمين بالمدينة .

وعُمِّر حسان طويلا حتى كُفَّ بصرُه فى آخر حياته ومات سنة ٥٤ هـ زمنَ معاوية عن عشرين ومائة سنة .

شعره — كان آلُ حسان من أعْرَق بيوتِ العرب فى الشعر ؛ فكان أبوه وجده شاعرين ، وكان ابنه عبد الرحمن وحفيدُه سعيد بن عبد الرحمن شاعرين ، وكان هو أشعر أهل بيته .

وفَضَلَ سائرَ الشعراء بثلاث : كان شاعر الأنصار فى الجاهلية ، وشاعر النبى صلى الله عليه وسلم فى النُّبُوَّة ، وشاعرَ اليمن كلها فى الإسلام . وأجمعت العرب على أن حسان أشعرُ أهل المدر ، وهم أهل المدينة ومكة والطائف وأهل قرى البحرين من عبد القيس .

وكان أجزل شعره وأقواه وأحصفه ما قاله فى شَبيبتِه وكُهولته فى الجاهلية ، أى مِن مِثْل ما ناقض به قَيْسَ بن الخطيم فى وقائع الأوس والخزرج ومدح به آلَ جفنة وآلَ النعمان بن المُنْذِر . ولما أسلم كان قد مضى من عمره ستون سنة ولكنها لم تُطفِئ مِن شعلة خاطره ولم تَفُلَّ مِنْ غَرْبِ لسانه .

ووجد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقية من النِّكاية لأعدائه أبقاها فيه انطباعُه على الهجاء منذ شَبَّ ، ودعا اللهَ أن يؤيد فيه هذه البقية بروح القدس . وحكمة الدعاء بتأييد الله له فى الهجاء وهو سِباب أن الهجاء كان عند العرب من أقوى الأسباب فى خَضْدِ شَوْكة أعدائهم وكَسْرِ حِدَّتِهِمْ وإدخال الغم والذل على نفوسهم ، فهو سلاح من أقوى الأسلحة فى تَوْهين العدو وكَفِّ غَرْبِهِ .

وكان رسول الله إذا سمع هجاءه فى أعدائه يقول : لَهَذَا أشد عليهم من وَقْعِ النَّبْلِ .

ولذلك يرى العارفون أن شعره فى الاسلام كان لا يزال كعهده فى زمن الشباب قويا حصيفا رصيفا فى مواضع خاصة : فى هجائه المشركين ، وعند هيجه بمعارضة شعرهم ، وفى فخره وحماسته . ويرون أيضا أن كثيرا مما وُجد فيها من شعره لينا ضعيفا لم تكن نسبته إليه صحيحة وإنما هو مما وضعه المتكثرون من الشعر من رواة المغازى والسِّيَر . قال الأصمعى مرة : حسان أحد فحول الشعراء ، فقال أبو حاتم : تأتى له أشعار لينة ، فقال الأصمعى : تُنْسَبُ له أشياء لا تَصِح عنه[١] .

وأما ما يُسْتَلَانُ من شعره فهو بعض ما قاله فى وصف عقائد الإسلام وشعائره وتَعْدادِ فضائله ، أو قاله فى توحيد الله وتنزيه صفاته وتهجين عبادة الأوثان وما أعد الله للمؤمنين من الثواب وللمشركين من العقاب ، أو بعض ما قاله فى مدح رسول الله وأصحابه ، أو بعض ما قاله فى رثاء من استشهد فى الغزوات من أصحابه ومن مات من الخلفاء بعد رسول الله أو من أصحابه .

---

(١) وقد بين بعض هذا المنحول لحسان المؤرخ المحقق ابن هشام صاحب السيرة النبوية التى اختصرها من سيرة ابن اسحاق الكبيرة فبعد أن يأتى ابن هشام على بعض قصائد نسبت لحسان أو على أبيات منها ناقلا لها عن ابن اسحاق يُعقِّب عليها فيقول فى موضع : وأهل العلم بالشعر ينكرونها لحسان ، وفى موضع آخر : وتُروى هذه الأبيات لفلان ، أى لغير حسان ، وكرر هذا القول فى غير موضع وكذلك قال فى قصائد نسبت لغيره من الصحابة أو من المشركين .

وسبب ذلك أنه كان فى ابن اسحاق غَفلة فى نقد الشعر وتمييزه — وهو من أهل المدينة — فكان أهل الهزل والدعابة من شبانها يتنادرون عليه ، ويضعون شعرا على لسان بعض الصحابة أو المشركين أو العرب البائدة أو التابعة أو الجن أو الهواتف ، ويروونها كذبا عن الشيوخ الثقات فيضعها فى كتبه من السيرة وغيرها .

ويمكن تعليل ذلك بأسباب :

(١) منها أن سبَبَ لِينِه فيما يتعلق بعقائد الاسلام انبهارُه بما قال القرءانُ الكريم ، ونطق به رسول الله أبلغُ العرب من خُطبِه ومواعظِه وأحاديثه فى مثل هذه الأغراض ، والمعروفُ أن الضعيف إذا أحَسَّ من نفسه العجزَ عن محاكاة ما يأتى به العظيمُ ازدادت نفسه خورًا وفُسُولَةً عند ما يرغب أن يخوض فى حديث مِن مِثله .

(٢) ومنها أن الأصمعىَّ يُعلِّل لِينَهُ فى غير الهجاء وقوتَه فى الهجاء بأن الشعر نَكِد يقْوَى فى الشر ويَضْعُفُ فى الخير . وهو تعليل مقبول فى جملتِه .

(٣) ومنها أن لين شعره الإسلامى علله حسان نفسه فيما رُوِى عنه ، وقد قيل له : لَانَ شعرُك أو هَرِم فى الإسلام يا أبا الحسام[1] ، فأجاب : إن الإسلام يَحْجُزُ عن الكذب والشعر يَزِينُه الكذبُ .

(٤) ومنها أن كثيرا من شعره الإسلامىّ قاله بعد ما بلغت منه السنّ ، والشعر صورة من صور النفس يشيخ إذا شاخت .

(٥) ومنها أن كثيرا من شعره الإسلامى قاله ارتجالا عند حدوث الوقائع الداعية إليه .

أغراض شعره — وقد قال حسان الشعر فى أكثر أغراضِه ، وأهمُّها فى شعره الهجاء والمدح والفخر والحكمة .

فأما الهجاء فأولُ ما قاله منه فى الجاهلية مناقضته لقيس بن الخطيم ، ولم يكن متناولُ الذم فيها بين الشاعرين معايِبَهُما الشخصيةَ بل معايبَ القبيلتين الأوس والخزرج حقا أو باطلا .

---

(١) وكان يكنى بذلك أحيانا .

ولما نافح عن رسول الله بشعره لم يكن متناولُ الهجو قريشا كلَّها بل المشركين منها بعامة وأشدَّهم على رسول الله بخاصة : مِن مثل أبى جهلٍ وأبى لهبٍ وأبى سفيان ، وهم من أقرب قريش نسبا إليه ، فكان هجاؤه لأحدهم ليس بالطعن فى أصل نسبه وذم عشيرته بل فى نفى نسبه عن نسبهم وأنه دَعِىٌّ فيهم أو لصيق أو مُتبنًى أو عَبْدٌ ، ثم يذكر ما يُستقبَحُ من صفاته الخَلْقية والخُلُقية فيصفه باللؤم وقطع الرِّحِم والجهل وخفة الحلم والبخل والجُبن والفرار عن إنقاذ الأحبة من وَهْدة الموت فى المعارك ، وأكثر ما يذكُرُ من ذلك وقعة بدر وهزيمة قريش فيها ، وربما أَقْذَعَ .

وأما مدحه فى الإسلام فقلَّما أتى فيه بقصائد مطولة مستقلة بالمدح خاصة به على مثال لاميَّةِ كعب بن زهير ، وإنما يأتى بمدحه النبي صلوات الله عليه متصلا بهجائه أعداءَه من قريش فَيعيرُ المهجوَّ بمعاداة نبي أتى بكذا وكذا وصفته كذا وكذا .

ومدح كثيرا من أصحاب رسول الله وخلفائه وفُرْسان المسلمين بمقطعات بليغة تراها فى ديوانه .

وأما فخره فكثير ، فتارة يكون بذكر مآثر قومه الأنصار إذا هاجى قريشا أو ثَقِيفا أو هُذَيْلا فيذكر تنكيلهم بقريش فى وقعة بدر ويكون بذكر مآثر الخزرج أو رهطه بنى النجار إذا لاحَى قيس بن الخطيم شاعر الأوس فى الجاهلية .

وإذا فَخَرَ بنفسه فَخَرَ بفصاحة لسانه وسيرورة شعره ، وإذا غلى مِرْجَلُ حماسته نَسِىَ نفسه وطبيعته فادعى أنه شجاع مِغْوار ، ولم يكن ذلك من صفاته ، سمعه رسول الله يُنْشِدُ قوله :

لقــد غَدَوْتُ أمام القوم مُنْتَطِقًا ... بِصَارِمٍ مثلِ لونِ المِلْحِ قَطَّاعِ
تَحْفِزُ عَنِّى نِجادَ السيفِ ســابغةٌ ... فضفاضةٌ مثلُ لونِ النِّهْىِ بالقاعِ[1]

---

(١) النِّهى الغدير أى لون الماء فى صفائه .

فما زاد على أن ضحك منه .

والحق أن نخره من أنخر شعره حتى ما قاله منه بعد الإسلام وشيخوخته .

وأما حكمته وضربه المثل فذلك كان غريزة فيه منذ الجاهلية وزادهما الإسلام رَونقا وصوابا ، وقلّما تخلو قصيدة من شعره من حكمة أو ضرب مثل أو موعظة رائعة .

وكان له نسيبٌ وغَزَلٌ لم يكن ناشئا عن حب وغرام بل عن محاكاة للشعراء فى تقديمهم النسيبَ على أغراضهم ، وكان يهتف فى نسيبه باسم عَمْرَة واسم شَعْثَاء وكلتاهما كانت زوجا له فيما يُرْوَى وطلّق الأولى .

وله رثاء يشجو القلبَ ويستذرف الدمع ، ومنه بِضْعُ قصائد مطولةٍ رثَى بها رسولَ الله وقصائد متوسطة أو قصيرة رثى بها الخلفاء وكِبار الصحابة .

أسلوب شعره ومعانيه — ويختلف أسلوب شعر حسان وعبارته فى شعره عن أسلوب معاصريه فى الجاهلية والإسلام بقلّة تكلفِه وتنوُّقه فى تجويد الرصف وتنقيح اللفظ وتهذيبه ، كما كان يفعل النابغة والأعشى وخاصة الحطيئة ، بل يرسل الشعر كما تجود به القريحة وعلى ما خَيَّلَتْ ، فيكون منه الجيدُ البالغ الغاية والمُفَجَّج الكثير الثُّغر للطاعن والناقد .

ومن هنا تعرِف سبب قِلة اطراد الغريب فى شعره ، فتجد لفظا غريبا بجانب ألفاظٍ كثيرة سهلة لينة ، وربما كان لمعيشة المدن ومناغاةِ أهل الزراعة والصناعة ثر فى ذلك . ولهذا يقول :

لا أسرقُ الشعراءَ ما نَطَقُوا   بل لا يوافِقُ شعرُهم شعرى

ودخل فى شعره كثير جدا من ألفاظ القرآن الكريم وضَرْبِ أمثالِه وكِناياته وألفاظِ العبادة والشعائرِ الدينية مما لم يكن مستعملا ولا معروفا فى الجاهلية وسُمِّى بعد بالألفاظ الإسلامية .

وأما معانى شعرِه فى الجاهلية فقد سلك فيها مَسْلَكَ غيره من شعرائها .

وله معانٍ رائعةٌ فى مدح الملوك وتَلَمّسِ ما يرضيهم و يرفعهم عن طبقة السوقة ، وفى وصف الخمر .

وأكثر معانيه فى الاسلام مُسْتَمَدٌّ من معانى القرآن الكريم والآيات التى نزلت فى غزوة بدر وأحد والخَنْدَق وحكاية حجج المشركين والرد عليهم ومن إرشاد القرآن ووعظه وحكمته وضَرب مثله .

والخلاصة أن شعر حسان مظهرٌ مِن مظاهر تأثيرالإسلام والقرءان فى الأدب العربى ، ويكاد هذا التأثير يُفْقَدُ فى شِعرالحطيئة مع أنه من المخضرمين ؛ لأن الحطيئة أسلم ثم ارتد ثم عاد إلى الإسلام على طمع وجشع ورقة دين وقلة وفاء ؛ فلم يَتَمَلَّأْ بالروح الإسلامى كغيره .

وهاك جملة من شعر حسان فى بعض الأغراض المتقدمة :

فمن شعره فى الجاهلية يفتخر بنفسه وقومه :

ولقد تُقَلِّدُنَا العشيرةُ أمْرَها ... ونَسُودُ يومَ النائباتِ ونَعْتَلى

ويَسُودُ سيدُنا جَحاجِحَ سادةً ... ويُصيبُ قائلُنا سَواءَ المَفْصِلِ

ونُحاوِلُ الأمرَ المهِمَ خِطابُهُ ... فيهم ونَفصِلُ كلَّ أمرٍ مُعْضِلِ

وتَزُورُ أبوابَ الملوك رِكابُنا ... ومتى نُحَكَّمْ فى البَرِيَّةِ نَعْدِلِ

وجاء وفد من تميم يفاخرون المسلمين بشاعرٍ لهم فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يجيبه فأجابه بقوله من قصيدة :

إن الذَّوائبَ مِن فِهرٍ وإخوتِهم ... قَد بيَّنوا سُنَنًا للناسِ تُتَّبعُ
يَرضَى بها كلُّ من كانت سريرتُه ... تقوى الإله وبالأمرِ الذى شَرَعُوا
قومٌ إذا حاربوا ضَرُّوا عدوَّهُم ... أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك فيهم غير مُحْدَثةٍ ... إن الخلائقَ — فاعلم — شَرُّها البِدَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أوهت أكُفُّهُم ... عندَ الدفاعِ ولا يُوهُون مارَقَعُوا
إن كان فى الناس سَبَّاقون بَعْدَهم ... فكلُّ سبقٍ لأدنى سبقِهِم تَبَعُ
أعِفَّةٌ ذُكِرت فى الوحى عِفَّتُهُم ... لا يَطْمَعون، ولا يُزْرِى بهم طَمَعُ
لا يفخرون إذا نالوا عدوَّهُمُ ... وإن أُصِيبوا فلا خُورٌ ولا جُزُعُ (١)
أكْرِم بقومٍ رسولُ الله قائدُهُم ... إذا تَفَرَّقَتِ الأهواءُ والشِّيَعُ

ومِن حِكَمِهِ من قصيدة قالها فى يوم أحد قوله :

رُبَّ حِلْمٍ أضاعه عَدَمُ الما ... ل وجهلٍ غطَّى عليه النعيمُ
انّ دهرًا يَبُورُ فيه ذوو العِلْمِ ... لَدَهرٌ هو العَتُوُّ الزَّنيمُ

(راجع المنتخب جزء ٢ صفحة ٨٧)

(١) الخور : جمع خوّار وهو الضعيف . والجزع . جمع جزوع .

كعب بن زهير المزنى

هو كعبُ بن زُهير بن أبى سُلْمَى الصحابىُّ الجليل وأحد شعراء النبى صلى الله عليه وسلم، وهو من قبيلة مُزَيْنَةَ إحدى القبائل المضرية ، ورِث الشعر عن أبيه، فبرع وخلف أباه فيه أو كاد . وكان الحطيئة من رُواته ورواة أبيه ويُقِرُّ له بالفضل عليه .

وكان شعرُه يمثل البداوة بغرابةِ لفظه وفخامة أسلوبه وقوة أسره .

ولما جاء الاسلام أسلم أخوه بُجَيْرٌ ودعا كعبا إلى الاسلام فأبى عليه ، وسبَّه وهجاه وهجا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فأهدر دَمَهُ . وكان الاسلام قد فشا فى عامة قبائل العرب ، فَطفِق يستجير بقبيلة منها بعد قبيلة ، وكلُّها لا تجيره على رسول الله . فلما اشتد عليه الطلبُ وأَرْجَفَ الناسُ بأنه مقتولٌ عزم على الإسلام ، فقدِم المدينةَ واستجار بأبى بكر رضى الله عنه فجاء به إلى رسول الله وأسلم وأنشده قصيدته اللامية المشهورة التى يقول فى أولها :

بَانَتْ سُعَادُ فَقَلْبِي اليومَ مَتْبُول ... مُتَيَّمٌ إِثْرَها لَمْ يُفْدَ مَكْبُولُ

(وهى فى المنتخب فراجعه)

فرضى رسول الله عنه وخلع عليه بُرْدَتَه ، فباعها ورثته من بعده لمعاوية بعشرين ألفَ درهم ، ثم بيعت للمنصور العباسى بأربعين ألفا .

ومن شعره فى غير (بانت سعاد) قوله وهو من الحكم البارعة :

إنْ كُنْتَ لا تَرْهَبُ ذمّى لما ... تعرِفُ من صَفحى عنِ الجاهل
فاخْشَ سُكُوتى إذ أنا مُنْصِتٌ ... فيكَ لِمسموع خَنَا القائل
فالسامعُ الذمِّ شريك له ... ومطعم المأكول كالآكل
مقالةُ السوء إلى أهلها ... أسرعُ من مُنْحَدِرٍ سائل
ومن دعا الناسَ إلى ذمه ... ذَمُّوهُ بالحقِّ وبالباطل

ومن قوله يمدح الأنصار ويذكر بلاءهم مع رسول الله :

مَن سَرَّهُ كرم الحياةِ فلا يَزَلْ في مِقنبٍ[١] مِن صالحي الأنصار
البـاذلينَ نفوسَهم لنبيهم يومَ الهِياج وسَطْوَةِ الجبار
يتطهرون كأنه نُسُكٌ لهم بدماء من عَلِقوا[٢] من الكفار
صَدَمُوا علياً[٣] يومَ بدرٍ صَدْمَةً ذَلَّتْ لِوَقْعَتِهـا جَميعُ نزارِ

(١) المقنب : جماعة الخيل والفرسان .

(٢) علقوا : تناولوا أو أخذوهم بالسيوف من أعالى رءوسهم .

(٣) يريد بنى على بن مسعود وهم كنانة وكانوا مع قريش فى بدر .

الخنســـاء

هى الصحابية الجليـلة السيدة تُمـاضِرُ الخنساء بنت عمرو بن الشريد السُّلَمية أشعر النساءِ وأرثاهن .

وقومها بنو سُلَيم من أشهر قبائل مُضَر جاهلية و إسلاما، وأبوها وأخواها معاوية وصخر من ساداتهم .

وكانت فى صِباها تقول المقطَّعاتِ من الشعر، فلما قُتِل شقيقها معاوية فى غزاةٍ رثته بالقصائد ، ثم غزا أخوها صخرٌ بنى أسدٍ وغنمَ فتبعوه فطعنه أحدهم طعنة اعتل منها مدة، ثم مات . فحزنت عليهما حزنا شديدا، وتابعت عليهما البكاء والرثاء بمـا لم تفِ به أختٌ لِأخ حتى ضُرِب بها المثل فى البكاء والحزن .

ولمـا جاء الاسلام حضرت مع وفدِ قومها إلى النبى صلى الله عليه وسلم، وكان يُعجِبه شعرها ويستنشدها ويقول : هِيهِ ياخناسُ ، ويُومِى بيده .

وكان حزنها وبكاؤها على صخرٍ أشدَّ من حزنها وبكائها على معاوية لِبرِّه بهـا . وشهِدت حربَ القادِسيَّة مع أربعة أولاد لها ، فأوصتهم عند خروجهم إلى القتال بوصية بليغة فقتلوا جميعا فلم تحْزَنْ عليهم حُزْنَها على أخيهـا صخر ، وقالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم .

وما زالت تبكى على صخر حتى عَمِيت وتُوفِيَتْ زمن معاوية بالبادية . أما مراثيها فغاية ما تقوله امرأةٌ فى هـذا الباب . واعْتُرِف لهـا بالتقدم فى الجاهلية والإسلام وفى حياتها وبعد ممـاتها . وممن قدمها على جميع النساء وبعضِ فحول الرجال النابغةُ فى الجاهلية وجريرٌ وبشارٌ فى الإسلام .

ومما رثت به أخاها معاوية قولها من قصيدة :

أَلَا ما لِعينك أم ما لها　　لقد أَخْضَلَ الدمعُ سِربالَها
أَبَعْدَ ابن عمرو من آل الشريـ　　ـد حلَّت به الأرض أثقالَها
وأقسمتُ آسى على هالِكٍ　　وأسألُ نائحةً ما لها
لِتَجْرِى المنية بعد الفتى الـ　　ـمُغادَر بالمحو أذلالها [١]
سأحملُ نفسى على خطَّة　　فإما عليها ، وإما لها
نُهِينُ النفوسَ وهَوْنُ النفو　　س يومَ الكريهة أبقى لها
فإن تكُ مُرَّةُ أَوْدَتْ بهِ　　فقد كان يُكْثِر تَقْتالَها
فزالَ الكواكبُ مِن فقده　　وجُلِّلَتِ الشمسُ أَجْلالَها [٢]

وقولها من قصيدة ترثى بها أخاها صخرا :

بكت عينى وعاوَدَها قَذاها　　بِعُوَّارٍ فما تَقْضِى كَراها
على صخر وأى فتىً كصخرٍ　　إذا ما النَّابُ لم تَرْأَمْ طَلَاها
لئن جزعت بنو عمرو عليه　　لقد رزِئت بنو عمرو فتاها

(راجع المنتخب)

---

(١) المغادر بالمحو أى المتروك بالموضع المسمى المحو ، واذلالها : مجاريها ، تقول لتجر المنية فى مجاريها كما تشاء فما أبالى بما تفعل بعد موت هذا الفتى المقتول بالمحو .

(٢) اجلالها جمع جل أى ستر .

الحُطَيْئَة

هو أبو مُلَيْكَة جَرْوَلُ الحطيئة العبسى . ونسبه إلى عبس غير صريح ، ولدته أَمَة لِامرأة ذُهَلية متزوجةٍ رجلا عبسيا قبل الإسلام بنحو عشرين سنة .

فكان إذا غضب على عَبْس رحل إلى ذُهل وانتسب إليهم ، بل كان كلما رضى عن قبيلة انتسب إليها ، وكلهم كانوا لا يأبَوْنه خشيةَ لسانه ، ثم لا يسلمون منه ؛ فقد هجا كلَّ من انتمى إليهم أو انْتَمَوْا إليه : هجا أباه وأمه وأخوته مِن أمه وامرأته ولم يقِف هجاؤه عند هذا الحد حتى هجا نفسه .

ولما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد بعد وفاة رسول الله ثم عاد إلى الإسلام فى حروب أهل الرِّدَّة .

قال الأصمعى : " كان الحطيئةُ جَشِعا سَئُولا مُلحِفا دنىء النفس كثير الشر قليل الخير بخيلا قبيح المنظر رَثَّ الهيئة مَغْمُورَ النسب فاسد الدِّين ، وما تشاء أن تقول فى شاعر من عيب إلا وجدته ، وقلما تجِد ذلك فى شعره " .

ولولا هذه الصفات الدنيئة لكان أشعر المخضرمين قاطبة .

ومدحه مِن أبلغ المديح وأجمعه للمكارم بلا مبالغة ولا تهويل ولا تملق .

(راجع المنتخب)

وحبَسه عمرُ بن الخطاب حتى تاب فأطلقه ، ولكنه نكَثَ عهده بعد موتِ عمر ، وعاود الهجاء .

وامتد به الأجل حتى مات فى زمن معاوية سنة ٥٩ هـ عن أكثر من ثمانين سنة.

ومن شعره أبيات استعطف بها عمر رضى الله عنه وهو فى السجن وهى :

ماذا تقول لِأَفراخٍ بذى مَرَخٍ زُغْبِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ[١]
ألقيتَ كاسِبهُم فى قَعْرِ مظْلِمةٍ[٢] فاغفر عليك سلام الله يا عمر
أنت الأمينُ الذى من بعد صاحبه أَلْقَى إليكَ مقاليدَ النُّهَى البشر
لم يُؤْثِرُوك بها إذ قدّموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الخِيَر

(١) يريد بالأفراخ أطفاله . وذو مرخ : واد بالحجاز . (٢) يريد بالمظلمة حجرة السجن .

الخطابة فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين

الخطابة خِطاب يُلْقَى مِن فردٍ على جماعةٍ بقصد التأثير فى نفوسهم وإقناعهم بأمرٍ من الأمور .

وللخطابة دواعٍ تقتضيها، ومواطن تُحْمَد فيها حيثُ لا يقوم مَقَامَها قصائد الشعر الطنانة ، ولا رسائل الكتابة المنمَّقة .

وتتوافر هذه الدواعى عند حدوث حادِثٍ عظيم أو انقلاب دينى أو سياسى أو اجتماعى .

وحدوثُ الإسلام وانتشاره فى سرعة تفوق الوصف من أكبر حوادث العالم التى نسخت ديانات مختلفة ، وقَوَّضَتْ نُظُمَ اجتماعٍ متقدمة العهد ، وأزالت مِن الأرض سلطان أمم، وبسطت سلطان آخرين، وتوافرت فيها الدواعى إلى الاستعانة ببلاغة الكلام قبل تجريد الحسام .

دواعى الخطابة — فمن الدواعى التى استوجبت الاستعانة بالخطابة فى تأييد الاسلام أو معارضته ما يأتى :

(١) ظهور الاسلامِ بين أمة من الأميين على يدِ مبعوث منهم ، فان فُشُوّ الأمية بين قوم كافٍ فى اضطرارهم إلى أن تكونَ الخطابة فيهم وسيلة الإقناع ؛ لذلك كانت الدّعاوةُ العظمى من رسول الله وأمراء جيوشه وخلفائه واردة من طريق الخطابة .

(٢) سموُّ منزلة الخطابة عند العرب والتباهى بالفصاحة والارتجال فيها قبيل الإسلام وفى مبدإ ظهوره ، لابتذال الشعر بالتكسب به والإقذاع فيه ، ولاتساع

مجال القول فى الخطابة ، ولذلك كان لخطب رسول الله وخطب أصحابه أكبرُ أثر فى إقناع فصحاء العرب بصحة الإسلام وسعيهم فى تأييده لقوّة التأثير والتأثر بفصاحة الخطيب و إعجاب المستمع .

أما إذا استعجم أحدهما أو كلاهما فقد بطلت الخطابة .

(٣) تَكَوُّنُ المسلمين أوالمشركين فى ابتداء الإسلام من طوائف أو جماعاتٍ مُصَلِّين أو حُجّاج أو من قبائل صغيرةٍ يمكن اجتماع كل منها فى صعيد واحد لاستماع خطيب واحد ، وحينئذ تكون الخطابة أبلغ الوسائل فى الإقناع لمشاهدة الخطيب بشخصه وتأثرهم بنبرات صوته وشارته وإشارته ، و إذا تعذر إسماع الخطيب لجماهير الجماعة كأهل المدن العظيمة والجيوش الجرارة كان المقام الأول للمنشورات المكتوبة .

موضوعات الخطابة — ومن موضوعات الخطابة فى زمن النبوة وزمن الخلفاء الراشدين :

(١) الدعوة إلى الاسلام ، وتوحِيدِ الله ، ونَبْذِ الشرك وعبادة الأصنام ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والتحذير من بطش الله ، والترغيب فى ثوابه أو شرع أمر أو تقرير حكم دينى ونحو ذلك من الأمور الدينية . ولأمرٍ ما جعلها الشارع شِعار كل إمام وركنًا من أركان العبادة فى كل حَفْلٍ دينى كالجمعة والعيدين وموسم الحج بعرفة .

ولذلك كان دُعاةُ النبي صلى الله عليه وسلم ورسله الى الملوك وأمراءُ جيوشه وخلفاؤه من بعده وقُوّادُ جيوشهم وعمالُهم كلُّهم خطباءَ مَصَاقِعَ ولُسُنًا مَقَاوِلَ .

(٢) تشييعُ جيوش المسلمين ، وتوصيتهم بما يعاملون به المشركين ، والتحريض على قتالهم والتحذير من كيدهم والتبشير بِنَيْل إحدى الحُسْنَيَيْنِ :

الشهادةِ أو النصرِ عليهم، أو تهنئة المسلمين بالظفر بعدوّهم . وخُطَبُ علىٍّ فى حروبه مع معاوية غاية الغايات فى هذا الباب .

(٣) حَلُّ المعضلات السياسية من شَرْح خطَّة ، أو تأييد بيعة أو رَدِّ شبهة على تصرف أو حكم ، أو إعطاء أمان ، أو رد على أعداء ، أو إعلان عفو أو نحو ذلك .

وخطبة واحدة خطبها أبو بكر يوم السَّقِيفَة كان فيها مَقْنَعٌ للمسلمين فى استحقاق قريش الخلافة وولاية الإسلام العامة .

أسلوب الخطابة — ويمتاز أسلوب الخطابة فى صدر الإسلام عن أسلوبه فى الجاهلية بقوة عبارتها وسهولة ألفاظها ، وتجنبها سجع الكُهَّان ، وقلة سَرْدِ الحِكَمِ القصيرة الدقيقة لمناسبة وغير مناسبة كما كانت تفعل خطباء الجاهلية ، وبَدْئِها غالبا بحمد الله والثناء عليه ، ومحاكاتها أسلوبَ القرءان فى الاستدلال على الله وتنزيهه ، والترغيب فى العمل الصالح بضرب المثل وقص القصص وكثرة الاقتباس من آياته والاستشهاد بها ؛ حتى اشترط بعض أئمة المسلمين وجوب اشتمال خطبة الجمعة على شىء منه .

صُوَرٌ من خُطَبِ هذا العصر

لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى : " وَأَنْذِر عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ " جمعهم وخطبهم وقال :

" إن الرائدَ لا يكذب أهلَه ، والله لو كَذَبْتُ الناسَ جميعا ما كَذَبْتُكُم ، ولو غررتُ الناس جميعا ما غَرَرْتُكُم ، والله الذى لا إله إلا هو إنى لرسول الله إليكم خاصّةً و إلى الناس كَافَّةً ، والله لَتَمُوتُنَّ كما تنامون ، ولَتُبْعَثُنَّ كما تستيقظون ، ولَتُحَاسَبُنَّ بما تعملون ، ولَتُجْزَوُنَّ بالإحسان إحسانا و بالسوء سوءا ، و إنها لَجَنَّةٌ أبدا أو نار أبدا " .

وخطب رسول الله ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ، ثم أقبل على الناس فقال :

" أيها الناسُ ! إن لكم مَعَالِمَ (١) فانتهوا إلى معالمكم ، و إن لكم نِهاية فانتهوا إلى نِهايتكم فإن العبد بين مخافتين : أجلٍ قد مضى لا يدرى ما الله فاعل فيه ، وأجلٍ باق لا يدرى ما الله قاض فيه ؛ فليأخذ العبدُ من نفسِه لنفسه ، ومن دُنياه لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الْكِبَرِ ، ومن الحياة قبل الممات ، فو الذى نفسُ محمدٍ بِيَدِهِ ما بعد الموت من مُسْتَعْتَبٍ (٢) ، ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنةُ أو النار " . (راجع المنتخب جزء ثان)

ولما بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة يوم السَّقِيفَةِ بايَعُوه فى المسجد البيعةَ العامة ، وبعدها خطب الناسَ فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهله :

" أما بعدُ ، فإنى قد وُلِّيتُ عليكم ولست بخيركم ؛ فان أحسنتُ فأعينونى ، و إن أسأتُ فقوّمونى .

---

(١) جمع معلم بفتح اللام وهو ما يستدل به على الشىء . (٢) من استرضاء .

الصدق أمانة ، والكذب خيانة . والضعيف فيكم قوى عندى حتى أُرِيحَ (١) عليه حَقَّهُ إن شاء الله ، والقوىُّ منكم الضعيفُ عندى حتى آخذ الحق منه إن شاء الله . لا يَدَعُ أحد منكم الجهادَ فى سبيل الله ؛ فإنه لا يَدَعهُ قومٌ إلا ضَرَبهمُ الله بالذل ، ولا تَشِيعُ الفاحشةُ فى قوم إلا عَمَّهم الله بالبلاء أطيعونى ما أطعتُ الله ورسوله ؛ فإذا عَصَيْتُ اللهَ ورسولَه فلا طاعةَ لى عليكم .

قوموا إلى صلاتكم . رحمكم الله !

ومن خطب على رضى الله عنه خطبةٌ له خطبها بعد التَحْكِيم وهى :

الحمد لله وإن أتى الدهر بالخَطْبِ الفادح والحادث الجَلَل ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ليس معه إله غيره ، وأن محمدا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

أما بعد ، فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرَّب تُورِثُ الحَيْرَةَ ، وتعقب الندامة . وقد كنت أَمَرْتُكُمْ فى هذه الحكومة أمرى ، ونَخَلْتُ لكم مخزون رأيى لو كان يطاع لقصيرٍ (٢) أمرٌ ، فَأَبَيْتم علىَّ إباء المخالفين الجُفاة ، والمنابذين العُصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضَنَّ الزَّنْدُ بقدْحه ، فكنت وإياكم كما قال أخو هوازنَ :

أَمَرْتُهمو أَمْرِى بِمُنْعَرَجِ اللِّوَى فلم يستبينُوا النُّصْحَ إلا ضُحَى الغَدِ

---

(١) يقال : أراح فلان على فلان حقه : رده عليه .

(٢) هو قصير بن سعد صاحب جزيمة الأبرش يضرب به المثل فى مخالفة الرأى السديد .

العصر الأموى

(من ٦٠ هـ – ١٣٢ هـ)

تأثُّر الأدب بالحياة الإسلامية الجديدة

انتهى عصرُ النبوة والخلفاءِ الراشــدين باغتيال على بن أبى طالب وخلوص الخلافة لِمعاوية أول خلفـاء بنى أميـة ، فانتهى بذلك عصر الغزواتِ النبوية وحروبِ الرِّدَّةِ وفتح أكثر البلاد التى فَتَحها الإسلام .

وخلَّف هذا العصرُ الاسلامىُّ الأولُ فى الأمة العربية صورةً مِن صُوَرِ الحياة تختلف عن صورة حياتها فى جاهليتها فِكرا ودِينا وسياسة .

تشكلت هــذه الصورة الجديدة من الغرائز العربية مهذَّبةً بامتزاجها بالروح الإسلامى، وعيشةِ الْغَلَب ، وبَسْطَةِ السلطان على ممالك كسرى وقيصر ، وتمثلت فى مِرْءَاةِ الشعر والأراجيز والخطب والرسائل والعهود التى كانت تَصْدُرُ من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين وقادة الغزاة والفاتحين متشبعة كلها بروح الإسلام من الجِدّ والوقار والحزم وتأييد الدين .

فلما كانت خلافة معاوية الطويلة العمر المصطبغة بصبغة الدهاء السياسى : من اصطناع الأولياء ، ومُجَاملة الأعداء ، تحوّل مجرى الحياة العربية إلى مسلكين متباينين :

(١) مسلكِ أهل الخطط والقطائع فى الأمصار الْمُنْشَأة ممن بقى من بقايا الفاتحين ومن القرن الناشئين من أبنائهم، ويتألفون فى الشام وبعض مصر والجزيرة من شيعة بنى أمية، وفى العراق من شيعة العلويين الراضين على مضض بملك بنى أمية وكل من الشيعتين عاشوا عِيشة حضارة واختلاط بالأعاجم بالمعاملة والاسترقاق

والتسرى مشوبة تلك المعيشة بروح الجنـدية لمظاهرتهم معاوية فى بعض حروبه وغزواته ، ولدفع الخوارج الذين خرجوا على معاوية منذ حادثة الحَكَمَيْنِ .

ثم خاضوا بعد موت معاوية غمار الفتن التى قامت زمن ابنه يزيدَ وزمن مَرْوان وابنه عبدِ الملك ، وتقسموا الى طوائف : قحطانية ، ومُضرية ، وزُبيْرِية ومَرْوانية وشيعَة ، وخَوَارج . وكان أكبرَ مواطن هذه الحياة الكوفةُ والبصرةُ .

(٢) مسلك العرب المتخلفين فى جزيرتهم عن المهاجرة إلى الأمصار .

فأما أهل الحجاز من هؤلاء فكان أكثرُهم من بقايا أصحاب رسول الله الناقمين على خلافة معاوية والمُؤْثرين الحَيْدَة والتَّقِيَّة فى دولته ، ومن أبناء الخلفاء و بنى هاشم وكبار الصحابة : ممن خلَّف لهم آباؤهم من الثروة الطائلة ما يُغْنيهم عن الخدمة فى دولة ، وممن غمرهم معاوية بالأُعْطِيَاتِ يجاملهم بها ويَتَرَضَّاهم عن سياسته ؛ فكان منهم طائفتان متناقضتان فى أحوال المعيشة . فاكتفى جمهورهم بمجاورة الحرمَيْن يتعبدون ويتدارسون علوم القرءان والسنة والفقه والسير والمغـازِى . وآثر بعض شبانهم المترفين عيشة التمتع بالطيبات واللذائذ المبـاحة وغير المباحة . وانضم اليهم حاشية و بطائن من الموالى والْقِيَانِ يُغَنُّونَ و يَعْزِفُون بالمزاهر ويُنْشِدُهم بعضُ خُلَعَاء الشعراء المقطعات الغزلية فيَطْرَبون لها وينعمون . وعاش كلاهما على طريقته زمن عصر بنى أمية .

وأما أعراب البادية فقد عاشوا عيشة تشبه من ناحية معيشة الجاهلية من حيثُ القيامُ على رعاية الإبل والغنم فى مرابعهم ومصايفهم والمفـاخرة والمهاجاة والمناقضة ، وتخالفها من حيثُ الإيمـانُ والعبادة وأمنُ غارات العدو على تفاوت بينهم فى ذلك .

وكان فى بعض قبائل العرب جمال فى نسائهم وضعف فى قلوب شبانهم فتكثر بينهم حوادث العشق العفيف كبنى عُذْرَة ؛ فكان الرجال وأهل القدرة منهم على

الأسفار يخرجون أحيانا إلى الأمصار للغزاة ، أو للوفود على السلطان ، أو للتجارة وبيع جلبهم من الإبل والغنم والخيل والحمير لسكان الأمصار ، ويخلفون فى أحيائهم النساءَ والشيوخَ والعَجَزَةَ والأحْدَاثَ من الغِلْمان ، فيخلو الجو لغلمان الحى او لغلمان الأحياء المجاورة لهم — والقوم بداة أعراب لا يَرْعَوْنَ الحجاب والسِّترَ لوجوه نسائهم إلا نادرا — فيتحدث الغلمان مع الفتيات ويطول حديثهم ويقع العشق بينهم عشقا عفيفا ، فإذا جاء رجال الحى من سفرهم وعَلِمُوا بأمر فتياتهم حجبوهن وقعدوا لعشاقهن كلَّ مَرْصَد، فإذا كانت عشائر العاشق قوية البأس أَعِزَّةً استعدى أهلُ الفتاة عليه عاملَ السلطان فى ناحيتهم فاستتابه أو حبسه أو أهدر دمه . وأكثر ما كانت تقع حوادث الغرام بين غلمان بنى عذرة وجواريها وبين أهل بدو الحجاز .

وبالطبع تأثَّر الأدب عند أهل الأمصار وحاميتها بصورة حياتهم ، فكان لكل حزب سياسى أو طائفة مذهبية بين الخوارج والشيعة والزبيرية والمروانية والمضرية والقحطانية والشعوبية شعراء وخطباء ينظمون الشعر ويخطبون فى تأييد نحلتهم، وخلف مِرْبَدُ البصرة ومسجد الكوفة عُكَاظَ فى اجتماع الشعراء والخطباء بهما .

كما تأثر الأدب فى الحجاز بحياة المترفين من شبانه ، فنشأ فيه نوع من الغزل الرقيق ومقطعات الغناء ، وما زال يستفحل أمره حتى تحول على لسان بعض مُجَّان الشعراء إلى مجون .

وتأثر فى البوادى بحياة أهلها من أصحاب الجد والتوقر والجفاة منهم ، فبرز فى ثوب الفخر والتباهى والتهاجى والتناقض والمدح والرثاء ونحو ذلك .

وتأثر عند رِقاق القلوب وأهل الغرام بنزعة نفوسهم فخطر فى حُلَّة الشعر العفيف الذى يعتبره قدماء المتأدبين من أجمل ماقيل من الشعر العربى .

الشعر فى العصر الأموى

قدمنا أن شعر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام يمثل ما قيل منه فى الجاهلية الحياة العربية فى الجاهلية ، ويمثل ما قيل منه فى الإسلام الحياة العربية فى أول ظهور الإسلام أى زمن النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين .

أما شعر هذا العصر أى عصر خلافة بنى أمية فإنه يمثل الحياة الإسلامية الخاضعة لسلطان الإسلام ، والخالصة من شوائب الوثنية الجاهلية جملة ، بعد أن طرأ عليها طوارئ سياسية واجتماعية ومذهبية ، تنوعت بها بعض التنوع عما كانت عليه فى عصر النبى وخلفائه فى بلاد العرب نفسها وفى الممالك المفتتحة ؛ فتنوع لذلك الشعر فى بعض مواطنه فنا وأسلوبا ، ولكنه لم يخرج فى صورته الجوهرية من حيث أوزانه وقوافيه وطريقة قرضه عما كان عليه فى الجاهلية وصدر الإسلام .

غير أن الأراجيز عُنِى بها فى عصر بنى أمية عِناية جعلتها تقرب من القصائد فى أكثرِ خصائصها ؛ فبعد أن كان البدوى ينظم منها بضعة مشطورات يحدو بها الإبل أو يصفها ، أو يصف ظبيا أو ظليما أو ثور وحش ، نشأ فى هذا العصر فحول من الرجّازين طوّلوا الأراجيز ، ونحوا بها منحى القصائد ؛ فضمنوها أغراضها مِن المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وصاروا يمهدون لهذه الأغراض بالنسيب وذكر الديار وآثارها والظعائن وحُدوجها ، ويقصدون بها الخلفاء والولاة . واشتهر منهم أبو النجم العجلى والعجاج التميمى وابنه رُؤْبة .

وفى هذا العصر طفر الشعر : رجزه وقصيده فى سبيل التفنن فيه والاهتمام بشأنه أو التكسب به طفرة لم يتقهقر عنها إلا بعد عِدة قرون ؛ فطالت قصائده وأراجيزه وقلت عيوبه فى الوزن والقافية ، وزادت فنونه ، ودقت معانيه ، ورق أسلوبه وألفاظه

فى الغزل والنسيب والعتاب رقة لم تعهد فيه إلا نادرة فى البيت أو البيتين والمقطعات الصغيرة حتى صلَح كثير منــه للتغنى والتطرّب به ، ونَبُلَت قيمته فى أعين الخلفاء والأمراء والولاة ورؤساء الأحزاب السياسية ، فاتخذه كل منهم ذريعة لترويج دعايته فكان عندهم بمنزلة صحفِ الأحزاب فى عصرنا . واستتبع ذلك نباهة شأن الشاعر عند من يتولاهم واضطهاده ومطاردته من منافسيهم .

وبالطبع كان حِزب بنى أمية أقوى الأحزاب فاستأصل حزب الزبيريين أتبـاع عبد الله بن الزبير ، وأخمد شعلة شيعة بنى هاشم بعد مقتل الحسين وحفيده زيد رحمهما الله ، وطاردوا الخوارج حتى فشِلوا وذهبت ريحهم بانشقاقهم وتفرقهم فى اعتقادهم وتبــدد شملهم ، وذهبت كل فرقة منهم إلى صقع من الأرض تظهر حينا وتختفى حينا .

واستغل الأمويون أحزاب العصبيات العربية فى تمكين سياستهم زمنا ، فانقسم بها العرب قِسمين : عدنانية وقحطانية ، ثم انقسم العدنانية إلى ربَعية ، ومضرية ، ثم المضرية إلى قيسية وتميمية ، وتعصب بنو أمية فى أول دولتهم لليمانية لأن القيسية كانت شيعة لعبد الله بن الزبير ، ثم تعصبوا لمضر بعد عِصيان أولاد المهلب عليهم بخراسان لأنهم هم وأنصارهم من اليمانية .

ولكل حزب من هؤلاء شعراء معدودون . وكان بعض أمرائهم وولاتهم يغرى بعض الشعراء ببعض فيقع بينهم التهاجى والتناقض ومدافعة كل قبيلة عن شاعرها ، ويشتبك معهم علماء اللغة والأدب فيفضلون شاعرا على شاعر ، وينقدون هــذا ويقرظون ذاك ، ويشتغل الجميع بأمر هذه العصبيات والأهاجى والمناقضات عن سياسة الدولة ونقد أعمالها .

فكان كل ذلك سببا فى اتساع دائرة الشعر الفنية ، وخاف الشعراء نقد العلماء فجوّدوا الشعر وأسقطوا رذله وتجنبوا عيوب القافيــة التى كانت منتشرة فى عصر

المخضرمين وأوائل هذا العصر، وأصبح الشعر حرفة لمئات من الشعراء يعيشون منها عيشة رغدا ، ويقتنون بها ثروة طائلة بمدح الخلفاء وذكر استحقاقهم للخلافة .

ويمكن إجمال الأمور التى يمتاز بها الشعر فى هذا العصر من حيث موضوعاته وأسلوبه بما يأتى :

موضوعاته وأغراضه :

(١) المدح — وهو من أغراض الشعر منذ الجاهلية الأولى إلا أنه لم يصر طريقا للتكسب والمسألة به إلا فى أواخرها . ولما جاء الإسلام ترخّص النبى صلى الله عليه وسلم فى استماعه والإجازة عليه تأييدا لدعوته ؛ إذ كان جُلُّ ما يُمدَح به خاصا بعمل الرسالة . ولكنه صلى الله عليه وسلم نهى عن سماع المدح لمجرد الإطراء والتقريظ وفى غير تأييد حق ، وتورّع كثير من خلفائه الراشدين عن سماع المدح الباطل ؛ ففترت صناعة التكسب بالشعر ردَحا من الزمان .

وجاء عصر بنى أمية فترخص معاوية فى استماعه قليلا لتأييد دعوته ، وتوسع فى ذلك بنو مروان فاستمعوا له فى حق وفى غير حق ، وأجازوا عليه الجوائز السنية ، ولم يُقَصِّر عنهم كثير من ولاتهم ورؤساء الأحزاب فى زمانهم ، وتسابق الشعراء إلى اختراع المعانى التى تعجب أولياء الأمر فكالوا منها لكلٍ ما لا يستحق مما كان قدوة لمن جاء بعدهم من غلاة المدّاحين .

(٢) الهجاء — وكان الشأن فى الهجاء بدء الإسلام ما علمت من ترخيص النبى صلى الله عليه وسلم لحسّان فى هجاء المشركين ، ولم يجزه فى غيرهم بل أوجبت الشريعة إقامة الحد على من قذف محصَنا أو محصَنة ، وجرى أصحابه من بعده على سنته ، فحبس عمر بن الخطّاب الحطيئة فى الهجاء حتى تاب ، ولكن بنى أمية تغاضت عن هجاء من خالف سياستهم من المسلمين ، فهجا الأخطل الأنصار بإشارة من يزيد على ما يقال ، ثم هجا القيسيين ، ثم هجا بعض قبائل العرب بعضا ، ثم

استفحل أمر اليمانية والمضرية ، وتهاجوا ما شاءوا . وكان من أشد المضرية على اليمانية الكميت الكوفى الأسدى . وصار العرب فى الهجاء إلى شرّ مما كانوا عليه فى الجاهلية . ولو كانت الدولة الأموية تصعّبت فى العقاب عليه لحفظت الآداب الإسلامية عن فحش القول دهرا طويلا .

(٣) الفخر — أباح الإسلام الفخر فى التحدث بنعمة الله والانتصار على المشركين والتمجد بالفضائل الإسلامية ، فتغيرت الحال فى عصر بنى أمية وتفاخر الشعراء بأيامهم فى الجاهلية وانتصار بعضهم على بعض فيها ، وكان فى ذلك إحياء لعصبية الجاهلية التى نهى عنها الإسلام، وتباهوا بأعمال سفهائهم من المسرفين فى الكرم وغير ذلك ؛ ولكن العلماء يرون أن هذا النوع حفظ للتاريخ وقائع العرب فى الجاهلية ولولاه لنسيت .

(٤) الشعر السياسى — وهذا النوع من الشعر وقع بصورة غير محدودة ولا مميزة فى الجاهلية وصدر الإسلام ، وخاصة زمن الفتنة بين علىّ ومعاوية ، ولكنه فى عصر الأمويين اتسعت طرقه ومناحيه ؛ فلم يقتصر على مناصرة شيعة بنى هاشم وبنى أمية، بل تعداهما إلى مناصرة الأحزاب الأخرى من زبيرية وخوارج وغيرهما . ومن أشهر الشعراء المناصرين لبنى أمية فى سياستهم الأخطل وجرير والفرزدق ، (وكان هذا يتشيع سرا) ، ونُصَيْب . ومن الزبيرية عبد الله بن قيس الرقيات ثم اضطر أن يكون أمويا . ومن شعراء الخوارج عِمران بن حِطّان والطِرِمّاح بن حكيم . ومن شعراء الشيعة والعصبية لمضر الكميت الأسدىّ ، ثم اضطر أن يكون مَرْوانيا .

(٥) الغَزَلُ الصريح القصصىّ والغزل العفيف البدوىّ — فأما الأول فنشأ بمكة والمدينة بين المترفين من أبناء المهاجرين والأنصار وأبناء الغزاة الفاتحين الذين امتلأت أيديهم بالأموال والنعمة، وأقاموا بمكة والمدينة لأسباب سياسية

وغير سياســية ينعمون و يطربون . وكان لهم بطانة من الشعراء والمغنين والمغنيات والمضحكين ، وقلما يعجب أمثال هؤلاء من الشعر غير الغزل الذى يطرب منه ويغنى به . واشتهر من شعراء هؤلاء الأحوصُ من الأنصار وعمر بن أبى ربيعة من قريش ؛ ولكن عمر كان أصرح من الأحوص فى الغزل، يذكر أسمـاء من يشبب بهن ويقصّ قصصا له معهن أكثرها مكذوب مفـترى . وله ديوان كبير كله فى هذا النوع من الغزل .

وأما الثانى فنشأ فى بادية الحجاز فى بنى عُذْرة وخزاعة بين الشبان المستضعفين المؤثرين التبدى على الهجرة والجهاد وكان غزلهم غزلا شريفا نزيها عن الفحش وعن الكذب على الحِسان بما لا يليق بشرف الفتاة البدوية المسلمة،لكن أكثر حبهم كان حقيقيا غير مصطنع . وقد قيل فى هذا الغزل قصائد مطولة بل دواوين من الشعر لم يؤثر لهـا شبيه لا عن الجاهلية ولا عن صدر الإسلام ، وإنمـا هو نوع نشأ بين شعراء أهل البدو من الإسلاميين . وأشهر هؤلاء الغزلين جميلُ بن مَعْمَر ، وكان يحب بُثَيْنة حبا صادقا ، وكُثَيِّر وكان يحب عَزَّة حبا قيل إنه متكلف .

أسلوبه — لم يختلف أسلوب الشعر فى هذا العصر عما كان عليه فى الجاهلية وصدر الإسلام من حيث بناء القصيدة من عدة عناصر من الأغراض والمقاصد ، ومن حيث سهولة العبارة وصعوبتهـا ورقة الألفاظ وغرابتها . فكان الشاعر يبدأ القصيدة بالنسيب وذكر الديار وظعن الحبائب ثم يفخر بنفسه وقومه أحيانا ، ثم يقتضب الكلام اقتضابا و ينتقل إلى الغرض الذى يتعمّده من مديح أو هجاء، وربما قدم هذا النسيب فى الرثاء مع عدم ملاءمته له ؛ لأن هذا النسيب لم يكن عن حب حقيق ، ولكنه كان عادة تقليدية درج عليها شعراء العرب منذ القدم . ولذلك كان اكثر ما ينسب هؤلاء الشعراء الإسلاميون فى بدء قصائدهم بنسائهم وحلائلهم .

وكان الغالب على عبارة الشعر وألفاظه عند الإسلاميين الفحولة والجزالة واستعمال الغريب فى موضوعات الشعر الجدية كالمدح والفخر ووصف الوحش والفلاة والناقة والصيد ، وربما تعمد بعضهم الغريب ومداخلة بعض الكلام فى بعض ليعجب علماء اللغة والنحاة كالفرزدق .

وتغلب سهولة الألفاظ وعذوبتها ورُقِيُّها فى الغزل العفيف البدوىّ والغزل القصصىّ .

وجملة القول أن الشعر العربى الصحيح الفصيح بلغ فى هـذا العصر غايته فناً وصناعة حتى فضّله بعض أدباء المتقدمين على شعر الجاهلية والمخضرمين .

جــــرير

هو أبو حَزْرَة جرير بن عَطِية بنِ الخَطَفَى .

والخَطَفَى لقب غَلَب على جده حذيفةَ لوقوع هذا اللفظ فى شِعرِ له . ومعناه السير السريع .

وجرير مِن كليب ، وكليب حَىٌّ من يربوع مِن بنى تميم . وكانوا ينزلون بقريةِ مَجْرٍ من قرى اليمامة بالجنوب الشرقى من نجد (وهى المسماة الآن بالرياض) .

ويكنى جرير بأبى حَزْرَة (وهو ابنه البكر) وبابن المراغة ، والمراغة من الأسماء القبيحة للأتان ، لقب نُبِزَتْ به أُمُّهُ من أحد الشعراء الذين هاجَوه لأن كليبا كانت رعاة غنم وحمير .

ووُلِد جرير باليمامة فى خلافة عثمان ، ونشأ بين عشيرته بنى الخَطَفَى نشأةَ البدوىّ الفقير . وكان يرعى على أبيه غنيمات له من الضأن والمعزى . وكان أهل بيته بنو الخطفى على فقرهم يغلِب عليهم الشعر ويتهاجَوْن مع شعراء قومهم ، فظهر عليهم شاعر من بنى عمومتهم يسمى غسانَ السَّلِيطى ، فرآه جرير يهجو قومه ، والناس مجتمعون عليه فحَمِىَ ونطق بالشعر رجَزا هجاه به أفحش هجاء ، فطَرِب له قومه واعتزوا به وتمادى الهجاء بينه وبين غسان وجرير يظْهر عليه ، فأعان غسانَ شاعرٌ يُدْعَى البَعِيث مِن بنى مجاشع ، وهم قوم الفرزدق من بنى تميم ، فهجاهما جريرٌ وظَهر عليهما ، وسَبَّ نساء مُجاشع سَبًّا مُنكَرا . وكان الفرزدق فى ذلك الحين قد اشتهر بالشعر وبَذَّ فيه الفحول ، ولكنه كان عند اشتباك البعيث مع جرير تائبا عن الهجاء مقيدا نفسه بقيد من الحديد ، وقد آلى ألا يبرح منزله حتى يحفظ القرءان فجاءته نساء مجاشع يلمنه على عزلته وتركِه جريرا ينهش أعراضهن فحمى لهن ، وفضّ القيد ، وهجا جريرا فاحتدم بينهما الهجاء وسقط البعيث ، وتدخل بينهما فى تهاجيهما نحو ثمانين شاعرا منهم الأخطل ، فأسقطهم جرير جميعهم وثبت له الفرزدق والأخطل .

ومكث جرير يهجو الفرزدق عشر سنين ، وهو مقيم باليمامة والفرزدق مقيم بالبصرة حيث تقيم جمهرة العرب وعلماء اللغة والنحو والأدب والفقه، وحيث يكثر الرواة والمتعلمون فيحفظون شعره ويُشيدون به . فاستقدم يربوع البصرة جريرا من البادية ليهاجى الفرزدق وجها لِوجه ، ويستمع له الرواة والأدباء ؛ فانحدر إلى البصرة، وأكثر الإقامة بها، واتصل بولاة العراق كبشر بن مروان أخى عبدالملك، والحجاج ابن يوسف ؛ وكاد يختص به حتى حسده عبد الملك عليه .

وأوفده الحجاج مع ابنه محمد إلى عبد الملك فمدحه بعد تمنع من استماع مدحه لخصوصيته بالحجاج ، ومدح بعده الوليد وسليمان وعمر بن عبد العزيز ويزيد بن عبد الملك وهشاما . وزحم الفرزدق على أبواب الملوك وعلى التكسب بالشعر بقية حياته .

وبقى جرير يهاجى الفرزدق والأخطل حتى مات الأخطل ، وكان أكبرهم سنا . وطال عمر الفرزدق وجرير فعَبَرا طولَ عمرهما يتهاجيان حتى مات الفرزدق سنة ١١٠ هـ ومات جرير بعده باليمامة بستة أشهر .

أخلاقه — نشأ جرير بالبادية، وشب متخلقا بأخلاق أهلها؛ من الانتصاف لأنفسهم بأيديهم ، فإن لم يستطيعوا فبألسنتهم ، فخرج مفطورا على المغالبة بالسباب والمهاجاة والمشارّة والمهاترة ، فلا يكاد إنسان يُعَرِّض به أو بقومه فى حديث أو شِعرٍ حتى يَصُبَّ عليه سَوْط هِجائِه ، فكان مُسْرِفا فى العداوة والانتقام والحقد إلى أمد بعيد .

وكان مع ميله إلى الشر شديد الفَرَق من أعوان السلطان ، وكان بخيلا شحيحا على غير أهله وولده ، وربما جَرَّ عليه بخلُه مهاجاةَ بعضِ الشعراء له .

وكان موجع الهجاء كثير الافتراء على الأبرياء لا يبالى أن يقذف المحصنات العفيفات ، بل لا يبالى أن يكذب على نفسه ، وينسب إليها بعض المخازى إذا كان فى ذلك نيل من عِرض خصمه وغيظٌ له .

وكان على تلك الهناتِ دينًا كثير الصلاة والدعاءِ والتسبيح عفيفا فلم يستطع خصومه على كثرتهم أن يصيبوا منه مَعَرَّة ، وكثيرا ما يستغفر الله من قذف المحصنات ، ويقرُّ أمام الناس ببراءتهن ويعتذر من قذفهن بأن أولياءهن ظلموه فجازاهم بما ظلموا .

شعره — كان جرير يقول الشعر عن سليقةٍ فياضة وطبع دُفاق ، يواتيه متى شاء ويصرفه كيف يشاء ، فلا تكلف ولا حشو ولا تعقيد ولا اضطراب ولا قلق فى قافية ، فكأنه باتساقِ قوافيه ، وائتلاف ألفاظه ومعانيه ، واقف على ساحل بحرٍ يغترف من نميره ، ويصبه فى قوالِب أرجازه وقصيده ، فيخرجه متشكلا بما تغتبط به نفسه ويعجب بِه غيره ، وأرقه وأطبعه ما كان فى تشبيب أو عتاب . وما كذلك كان الفرزدق ، فقد كان كَزًّا فى لفظه ، متعمقا فى معانيه ، يتعمد الفخامة ومداخلة بعض ألفاظه ببعض ، فأعجب شعر جرير عامة الناس ، فسار على ألسنتهم وبقى شعر الفرزدق لا يدور إلا على ألسنةِ العلماء والخاصة ، وهم قليل عديدهم فى كل عصر وأمة .

وقد قال جرير الشعر فى كثيرٍ من أغراضه وفنونه غير أن أغلب ما تناول شعره النسيب والهجاء والفخر والمدح ويتخلل الجميعَ الوصف بأشكال مختلفة .

نسيبه وغزله — امتاز نسيب جرير برقته ، وخفة وقعـهِ فى السمع ، وقوة حَوْكِهِ فى النفس بالإضافة إلى نسيب شعراء الجاهليـة والمخضرمين ، بلا خروج على مذهبهم ولا تحرُّف عن جادةِ طريقهم فى التَّصَوُّن والتَّجمل بما لم يخرج به عن وصف شعراءِ البادية أزواجهم بقسامةِ الوجه ، وملاحةِ القد ، وطيب الحديث

والرائحة، وأثر فراق الأحبة فى أنفسهم، كل أولئك فى لفظ جَزْل، ومعنى شريف، وفُحولة فى العبارة، فلم يكن يتأنث فى غَزَله فيحاكى النساء فى حديثهن وحوارهن وتَدَلُّلِهن ودُعابتهن، وقَصِّ القصص عنهن، على نحو ما كان يفعل الأحوص وعمر بن أبى ربيعة وأشباههما من شعراء المترفين، أو يتهافت فيه تهافت قيان الحجاز وخلعاءِ الموالى والمغنين، مع أن نسيب جرير لم يصدر منه عن عشق وهيام كما صدر عن الشعراء العشاق، ولو عشِق مثلهم لكان إمام مذهبهم، وفى ذلك يقول عن نفسه: "ما عشِقت قط، ولو عشقت لنسبت نسيبا تسمعه العجوز فتبكى على شبابها".

ومن رقيق نسيبه قوله:

بنفسي مَنْ تجنُّبُه عَزِيزٌ … علىَّ ومَنْ زِيارتُه لِمامُ
ومَنْ أُمسِى وأُصْبِحُ لا أراهُ … ويَطْرُقُنِى إذا هَجَعَ النيامُ

وقوله:

إنَّ العُيُونَ التى فى طَرْفِها حَوَرٌ … قتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحْيِينَ قَتْلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَراكَ بِهِ … وهُنَّ أَضْعَفُ خَلْقِ اللهِ إنسانا

وقوله:

وَدِّعْ أُمامةَ حانَ منك رحيلُ … إنَّ الوداعَ لِمَن تُحِبُّ قليلُ
مثلُ الكَثِيبِ تَمَيَّلَتْ أعطافُه … فالريحُ تَجْبُرُ مَتْنَه وتُهِيلُ
تلك القلوبُ صَوادِيا تَيَّمْتِها … وأَرَى الشفاءَ وما إليه سبيلُ

وقوله:

إنَّ الذين غَدَوْا بلُبِّكَ غادَرُوا … وشَلًا بعينِكَ لا يزالُ مَعِينا
غَيَّضْنَ مِن عَبَراتِهِنَّ وقُلْنَ لِى: … ماذا لَقِيتَ مِنَ الهَوَى ولَقِينا

هجاؤه ــ قال جرير الشعر فى الهجاء انتقاما ممن ظلمه أو هجاه لم يبدأ به أحدا، ولكنه كان إذا اشتبك مع أحد فيه لا يتركه إلا مُغَلَّبًا ساقطا إلا الفرزدق فإن الهجاء استمر بينهما أكثر من نِصف قرن ولم يَكُفَّهُما عنه إلا الموت .

وكان أكثرُ هجائه تهكُّما واستهزاء وتَعَجُّبا من مكابرة خَصمه له ومن تَبَذُّله بين الناس ، ورميَه بما يضحك السامع بألفاظ يفهمها الخاصة والعامة .

كقوله للراعى :

فَغُضَّ الطَّرْفَ إنك مِنْ نُمَيْرٍ   فلا كَعْبا بَلَغْتَ ولا كلابا

وقوله يتهكم بالفرزدق :

زعم الفرزدق أن سيقتلُ مِربعا   أَبْشِر بطولِ سلامةٍ يا مِربع

وكثيرا ما يفترى الكذب على الرجال والنساء ويرميهم بكل آبدةٍ لشبهة أو لغير شبهة .

وأغرى جريرا بالفرزدق والأخطلِ فِسقُ الفرزدقِ ونصرانيـةُ الأخطلِ وشربُه الخمر مع عفته هو وتَدَيُّنه .

وكان كلما هجا أحدَهما بقصيدة ردّ عليه بمثلها ينقضها به ، فأصبح لجرير والفرزدق نقائض مشهورة يرويها الرواة ، فدونوها دواوين واستخرجوا منها تاريخا جما وتفصيلا لأيام العرب فى الجاهلية .

ومن مناقضته للفرزدق نقضُه قولَه من قصيدة يفتخر فيها :

إن الذى رَفَع السماء بنى لنا   بيتا دعائمُه أعزُّ وأطولُ

بيتا زُرارةُ مُحْتَبٍ بفِنائهِ   ومُجاشعٌ وأبو الفوارس نَهْشَل

بقوله :

أخزى الذى رفعَ السماءَ مُجاشعا ... وبنى بناءً بالحَضيض الأسفل
بيتا يُحمِّمُ قَينُكُم بِفِنائه ... دَنِسا مقاعِدُهُ خبيثَ المدخل

فخره — لم يستطع جرير أن يفخر بعشيرته من كليب ، لأنهم كانوا خاملى الشأن فى الجاهلية والإسلامِ ، فقراء سيئى الحال ، بخلاء وبخاصة أبوه عطية ؛ فاضطر جرير أن يعدِل عن مفاخرة الفرزدق (وآباؤه من سادات تميم) إلى مفاخرته بنى يربوع . وهم قبيلته العليا ، وفيهم شَرَفٌ ونباهة شأنٍ وشِدَّة بأسٍ فى الجاهلية والإسلام ، وكثيرا ما عيَّرهُ الشعراء بمفاخرته بغير أهل بيتِه الأدْنَيْن فكان ذلك من أشد هجائهم عليه ، غير أن براعته فى صناعته غطّت على ضَعَةِ أبيه وهوانه وبخلِه .

وإذا هاجى الأخطلَ سامَى قومَه تغلبَ النصارى بمُضَر ، وفيهم النُّبُوَّة والخلافةُ .

ومما هجا به جرير الأخطل وافتخر عليه به ولم يستطع الأخطل أن ينقضه عليه قوله :

إن الذى حَرَمَ المكارِمَ تغلباً ... جَعَلَ الخلافة والنبوَّةَ فينا
مُضَرٌ أبى وأبو الملوكِ فهل لكم ... يا خُزْرَ تَغلِبَ من أبٍ كأبينا ؟
هذا ابنُ عمى فى دِمشقَ خليفةً ... لو شِئتُ ساقكم إلى قَطِينا

فلما بلغ الخليفة هذا الشعر قال : "ما زاد ابن المراغة أن جعلنى شرطيا !" أما لو أنه قال : "لو شاء ساقكم إلى قطينا لسقتهم إليه كما قال" .

مدحه — كان الأخطل والفرزدق وجرير أسبق تجارِ المدح والكلامِ فى الإسلام ، وأكيسهم وأحذقهم فى استخراج أموال الخلفاء والأمراء والولاة . وامتاز جرير فى مدحه باستجلاب رضا الناس ، فلم يأنف من مدح غير بنى أمية كما أنِف الأخطل ، فإنه لم يمدح الحجاج إلا مرة واحدة أمره بذلك عبد الملك ،

وقلما مدح غيرهم إلا لضرورة أو لِشكرِ صنيعة أسداها إليه مُتَفَضِّل بلاطلبٍ منه ، فمدح جرير بنى أمية وولاتهم وعلى رأسهم الحجاج ، ومدح القيسية أعداء تميم فى الجاهلية والإسلام ، ومدح الموالى مِن العجم وسَوَّاهم بالعرب فى الشرف ، فكانت منحهم وعطاياهم لا تنقطع عنه ، وكلهم كان يحفظ شِعره ويرويه ، ويباهى به ، وكان إذا مدح استقصى صفاتِ الممدوح وأطال ، ولا يخلِطه بفخر ولا هَجْوِ خصومٍ كما كان يفعل الفرزدق ، فهو فى باب المدح أعرق مِن الفرزدق ويفضله فيه الأخطل .

شعره السياسى — ولجرير نصيب فى الإشادة بذكر بنى أمية والدعاية لهم ، وإن لم يتعرض لسَبّ غيرهم من المطالبين من قريش بالخلافة كبنى هاشم وآل الزبير ، لأن ذلك خلاف مذهبه فى مراضاة الناس ، غير أنه زل زلّة كادت تذهب فيها نفسه ، فإن الحجاج حبب إلى الوليد بن عبد الملك أن ينقض عهد ولايةِ العهدِ لِسليمان أخيه ويعهد بالخلافة إلى ابنه عبدِ العزيز ، وخاض معه جرير غمار هذه السياسة وهتف بذلك فى عِدةِ قصائد من شعره ، وأعجلت الحجاجَ منيتُه عن إتمام سياسته ، ولم يلبث بعده الوليدُ أن مات ، ولحسن حظه ثار أحد رؤساء بنى يربوع قومِ جرير فى خراسان بمسلِم بن قتيبة فقتله ، وكان ممالئا للحجاج فى هذه السياسة ، فكان ذلك مما أرضى سليمان عن يربوع عامة .

معانيه وألفاظه — نشأ جرير بالبادية وقضى فيها أكثر حياته ، فكانت مادة معانيه مستمدة من بِيئة البدو مضافا إليها ما جاء به الإسلام من الشعائر والآداب والعبادة والموعظة والحكمة ، فكان شعره وشعر الفرزدق يمثل الحياة البدوية الإسلامية كل التمثيل ، وبذلك سُمُّوا هم ونظراؤهم من أهل عصرهم بالإسلاميين؛ لأنهم أول

نابتة من أهل الأدب نبتت في الإسلام. ولم يكن دَخَل على الشعر بعدُ شيءٌ من علوم الأمم العريقة فى الحضارة كالفرس واليونان والهنود التى امتزجت بأفكار الشعراء المحدثين من أمثال أبى تمام وابن الرومى والمتنبى والمعرى .

فكانت معانى جرير ِطرية قريبة الخطور بالبال غير بعيدة الغور ، كطبع جرير نفسه فى السجاحة واللين ، على غير ما كان عليه الفرزدق من التعمق فى المعانى .

والذى جعل معانى جرير الفطرية تنبل وتفخم وتكبر فى صدور الرواة وتوجع وتنكِى فى أفئدة المَهْجُوِّين إنما هو قوالبُ الألفاظ الجزلةِ التى صُبَّتْ فيها ، وفحولة الأساليبِ التى تَزَمَّلَتْ بها ، وتهويل عبارتها وانسجامها وحسن جَرْسِها وخِفة وقعها على سمع الخاصة والسوقة معا ، وتأثيرها فى نفوس الجميع على السواء.

وبذلك نفهم سِر إعجاب المتقدمين بأبيات لم تكن بعجيبة المعنى فقالوا :

أمدح بيت قالته العرب قول جرير فى عبد الملك :

ألستم خيرَ من ركِبَ المطايا   وأندَى العالَمِينَ بطُونَ راحِ

وأهجى بيت قوله للراعى النميرى :

فغُضَّ الطَّرْفَ إنك مِن نُمَيْرٍ   فلا كعباً بَلَغْتَ ولا كِلابا

وأغزل بيت قوله :

إنّ العُيُونَ التى فى طَرْفها حَوَرٌ   قتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحْيِينَ قتلانا

وأفخر بيت قوله :

إذا غَضِبَتْ عليك بنو تِميمٍ   وَجَدْتَ الناسَ كُلَّهُمُ غِضابا

وأصدق بيت قوله :

إنى لأرجو منك خيرا عاجلا   والنفسُ مولَعَةٌ بحُبِّ العاجل

وأشد بيت تهكما قوله :

زَعَمَ الفرزدقُ أن سيقتلُ مِرْبَعا أبشر بطول سلامةٍ يا مِرْبَعُ

وأحسن بيت تشبيها :

سَرَى نَحْوَهُم ليلٌ كأنَّ نجومَه قناديل فيهن الذُّبال المفتَّل

أو قوله فى وصف خيل مضمرة :

وطَوَى الطرادُ بُطُونَهُنَّ كأنَّها طَىّ التِجار بحضرموتَ بُرُودا

فإذا تأملنا هذه الأبيات وجدنا أن معانيها ممكنة عادية ؛ ففى البيت الأول ترى أن فى استطاعة كل شاعر أن يبالغ فيقول لممدوحيه : أنتم خير الناس وأكرم الناس ، ولكن لما أخرجه مخرج الأمر المقدر المسلم به ، والذى لا سبيل إلى إنكاره ، فى هذا اللفظ المنسجم ، والنغم المطرب ، نقله من حضيض المعانى المبتذلة إلى هذا الأفق الأعلى ، فأمال به عطف ذلك الخليفة الغاضب عليه واستفزه من موطن حلمه .

وكذلك الشأن فى بيت الهجاء ؛ فكل ما فيه مقايسة قبيلة المهجو بقرينتها فى النسب والحسب ، ولكن قوله : إنك من نمير ، أنزلها بعدُ منزلة هوانٍ عرفت به عند جميع الناس ، حتى لا يستطيع أحد منها أن يرفع عينه فى وجه مناظره مع أن كل من أعجب بهذا البيت من قدماء الأدباء والرواة يعرفون أن نميرا كانت أنبل وأشرف من كعب وكِلاب ، فجاءت المعرة فى البيت من جانب اللفظ لا من جانب المعنى .

وكذلك بيت الغزل ؛ معناه قديم مبتذل ، ولكن هذا التأنث والتهالك الذى فى لفظه جعله أليق بالغزل . وكذلك الشأن فى بقية الأبيات .

قيل : اجتمع الفرزدق والأخطل فتذاكرا شعر جرير فأقرا أنه أسير منهما شعرا لأن شعره يرويه الخواص والسوقة وشعرهما لا يرويه إلا حكاء الرواة وعلماء الأدب .

(راجع المنتخب بجزأيه)

الأخطل

هو أبو مالك غِياثُ الأخطل بنُ غَوْثٍ التَّغْلبي النصرانيّ ، مِن عَرَب الجزيرة الفراتية .

وُلِد فى أوائل خِلافة عمر ونشأ شاعرًا هجّاءً .

كان أكثر الأنصارِ لايرون رأى معاوية فى الخلافة ، فأغرى يزيد بن معاوية الأخطل بهجائهم فهجاهم ، فشكوه إلى معاوية فطالبهم بالبينة ، فلم تمكنهم . ولذلك احتمى الأخطل بيزيد وبنى أمية وصار شاعرِ دولتهم بقية حياته . وأوقعه شؤمه فى مناصرة جرير على الفرزدق فنَصَبَ له جريرٌ ، وما زال يهجوه حتى مات على نصرانيته سنة ٩٥ هـ .

وكان يُجوّدُ شعرَه ويعرضه على النقاد ، فيسقط منه الردىء ، ولذلك كان شعره خاليا من الحشو والعيب ، إلا أنه لم يبلغ فيه مبلغ جرير والفرزدق .

وهو ممن يحسن المدح ووصف الصيد والخمر مع إحجام المسلمين عن وصفها فى الجملة .

ومن أجود مدحه فى بنى أمية :

حُشْدٌ على الحقّ عَيّافو الخنا أُنُفٌ ... إذا أَلَمّتْ بِهِمْ مَكْرُوهَةٌ صَبَرُوا (١)

وإنْ تَدَجّتْ على الآفاق مظلمةٌ ... كان لهم مَخرجٌ منها ومُعتَصَرُ (٢)

أعطاهم اللهُ جَدًّا ينصرون به ... لا جَدَّ إلاّ صغيرٌ بعدُ محتقرُ (٣)

---

(١) حشد : جمع حاشد ، كما فى اللسان ، وسكنت شينه للضرورة — أى هم حاشدون مجتمعون على تأييد الحق . وعيافو الخنا : كارهون لقول الفحش . وأنف : جمع أنوف وهو الشديد الأنفة . أى يأنفون من قول الخنا .

(٢) تدجت : أظلمت ، أى اذا نزلت حادثة من المكروه مظلمة الخ . والمعتصر : الملجأ والمعقل أى إذا نزلت بهم نازلة كان لهم مخرج منها أو ملجأ عنها .

(٣) الجد : الحظ أى أعطاهم الله حظا عظيما ليس بعد حظه إلا أن يكون حظا صغيرا محتقرا .

لم يَأْشَروا فيه إذ كانوا مواليه ولو يكونُ لِقَوْمٍ غيرهم أشروا (١)
شُمْسُ العداوة حتى يستقاد لهم وأعظمُ الناسِ أحلاما إذا قدروا (٢)

ومن أوجع هجائه ما هجا به كليبا قوم جرير فى قوله من قصيدة :

ما زال فينا رباطُ الخيل مُعْلَمَةً وفى كليبٍ رِباطُ الذلِ والعارِ
النازلين بدارِ الذُّل إن نزلوا وتستبيح كليبٌ حُرْمَةُ الجار
والظاعنين على أهواءِ نسوتَهم وما لهم من قديم غيرُ أعيار
بمُعرِضٍ أو مُعيدٍ أو بنى الخَطَفَى يَرْجو جريرٌ مُساماتى وإخطارى
قومٌ إذ استنبحَ الأضيافُ كلبَهُمُ قالوا لأمِّهِـم بُولِى على النار

(١) لم يأشروا الخ أى لم يبطروا هذا الحظ عند ما ينالونه ولو ناله غيرهم لبطروه وكفروا نعمته

(٢) شمس : جمع شموس وهو الصعب العداوة . يستقاد لهم : أى حتى يؤخذ حقهم ممن اعتدى عليهم . من قولهم استقدت الأمير من القاتل فأقادنى منه أى قتله .

الفرزدق

هو أبو فِراس هَمّام الفرزدقُ بنُ غالِب بن صَعْصَعَةَ التميميّ الدارميّ .

وُلِد الفرزدقُ سنة ١٩ هـ فى خلافة عمر ، وكانت عشيرتُه بنو مجاشع بن دارم ممن نزل البصرةَ من بطون تميم أوّلَ اختطاطها عند فتح العراق .

وكان غالبٌ أبو الفرزدق كريما شجاعا سيدا .

وفُطِر الفرزدقُ على الهجاء مِن صِغره .

ولما تَدَخَّلَ البَعِيث المجاشعىُّ بين جرير وغَسَّانَ فى تهاجيهما ، وظاهَرَ غَسّانَ على جرير هجا جريرٌ البعِيثَ ، وتعرَّضَ لِقذف نساء مُجاشع (ومُجاشع رهط الفرزدق) فأتته نساء مجاشع وحرضنه على هجاء جرير ، فهجاه ، ولَجَّ بينهما التهاجى ؛ فبقيا يتهاجيان سائر حياتهما ، أى أكثر من نصف قرن .

ومدح الفرزدق الحجاج وعبد الملك وبنيه الوليد وسليمان وهشاما وبقية آل مروان وولاتهم .

ولما كبرت سنه تَخَمَّدَت فيه سَوْرةُ الشر ، وتاب قبيل موته ، وتنسَّك ، وتوفى بالبصرة سنة ١١٠ هـ بعد أن عُمِّرَ نحو مائةِ سنة .

وكان كثير الزهو بنفسه والفخر بآبائه فى شعره . وكان قوىّ الذاكرة يحفظ من شعر العرب وأخبارها وأيامها الشىء الكثير ؛ ضمن كل ذلك شعره مع ميلٍ فيه إلى الغرابة ومداخلة بعض الكلام فى بعض ، لأن ذلك كان يعجِب اللغويين والنحاة .

ومن فخره قوله :

لنا العِزّةُ الغَلْباء والعَددُ الذى — عليه إذا عُدَّ الحصَى يتحلّفُ (١)

ولا عِزَّ إلا عِزُّنا قاهرٌ له — ويسألُنا النِّصفَ الذليلُ فَيُنْصَفُ (٢)

ومنا الذى لا يَنْطِقُ النَاسُ عنده — ولكن هو المستأذَنُ المُتَنصَّفُ (٣)

تراهُمْ قُعُوداً حولَه ، وعيونُهم — مُكَسَّرةٌ أطرافُها ما تَصَرَّفُ

إذا هَبَطَ الناسُ المُحَصَّبَ مِن مِنىً — عَشِيّةَ يومِ النَّحْرِ من حيثُ عَرَّفُوا (٤)

ترى الناسَ ما سِرنا يَسيرون خلفَنا — وإن نحنُ أومأنا إلى الناسِ وَقَّفُوا (٥)

والهجاء والمدح والفخر هى الفنون التى غلبت على شعره ، وقد تناول شعره غيرها من التشبيب والوصف والسياسة .

ومن أبياته المتداخلة الأجزاء قوله يمدح هشامَ بن اسماعيل المخزومى خال هشام ابن عبد الملك :

وأصبح ما فى الناس إلا مملكا — أبو أمِّه حَىٌّ أبوه يُقارِبُهْ (٦)

---

(١) أى يحلف الناس أنه عدد الحصى .

(٢) النصف بكسر النون وسكون الصاد : الإنصاف .

(٣) المتنصف : المطلوب منه الإنصاف .

(٤) المحصب موضع رمى الجمار بمنى . وعرفوا أى من حيث هبطوا من جبل عرفات .

(٥) كان الذى يؤم الناس ويدفع بهم من عرفات فى الجاهلية من تميم فيسيرون بسيره و يقفون بوقوفه .

(٦) أى وأصبح هذا الممدوح مافى الناس حى يقاربه فى الشرف إلا رجل أوتى الملك أبو أم ذلك الملك أبوه . وذلك أنه كان يمدح خالا لخليفة .

وقوله :

وكل رفيقَ كل رحل ، وإن هما   تعاطى القنا قوماهما — أخوان(١)

ويقل فى شِعره الحشو وقلق القوافى وعيوبها . وعلى الجملة كان شعره فى لفظه وأسلوبه رصيفا حصيفا ، قوىَّ الأسر ، شديد الرَّوعة ، عميقَ الأثرِ .

وكانت أبياته التى يُتَمَثَّلُ بها منه أكثر مما كان يُتَمَثَّلُ به من شعر الأخطل وجرير .

ومن ذلك قوله :

وكنا إذا الجبار صَعَّرَ خَدَّهُ   ضربناه حتى تستقيمَ الأَخادِعُ(٢)

وقوله :

وكنتَ كذئب السُّوءِ لما رأى دَمًا   بصاحبِه يَوْمًا أحال على الدم(٣)

وقوله :

تَرَى كُلَّ مظلومٍ إلينا فِرارُهُ   ويهرُب مِنا جَهْدَهُ كُلُّ ظالِم

وقوله :

تُرَجّى رَبيعٌ أن تجىءَ صغارُها   بخير وقد أعيا ربيعًا كِبارُها

---

(١) أى وكل رفيقين فى سفر أخوان وصديقان وان تعادى قوماهما من قبل .

(٢) صعر خده : أماله عن الناس . والأخادع : جمع أخدع وهو عرق فى الرقبة ؛ أى ضربنا عنقه حتى يعتدل — أى إنما نعدل تصعير الجبارين خدودهم بضرب رقابهم .

(٣) أحال على الدم : أقبل عليه يلغ فيه ، يرميه بعدم الوفاء كالذئب الذى يربيه رجل فإذا رأى فى الرجل دما نسى إكرامه له وتربيته وأقبل على دمه .

جميل بثينة

هو أبو عمرٍو جميل بن عبدِ الله بن مَعْمَر العذْرِىّ وهو — ومحبوبته بثينة — مِن بنى عُذرة إحدى قبائِل قُضاعة . وكانت عذرةُ تنزِل وادىَ القُرَى إلى تَيْماءَ شمالىَّ المدينة المنورةِ إلى الشرق .

رآها وهى جُوَيْرِيةٌ صغيرة وهو صبي فتعاشقا على عِفة ؛ وهذا كان خلقا فاشيا فى بنى عذرة حتى ضُرِب بها المثل فى الحب العفيف فيقال : "هواه أوحُبُّه عذرىّ" أى مُنَزَّه عن الرِيبة . وكان يزورها خفية وينظِم فيها الأشعار .

ولما كبر خطبها مِن أبيها فامتنع ، وتلك عادة أكثرِ العرب ؛ فزوجوا بثينة رجلا آخر فلجَّ به العشق وأكثر التشبيب بها .

ولبِثَ يشبِّب بها أكثر من عِشرين سنة بشعرٍ رقيق مؤثر فى النفس ، على مذهب الجاهلية من البكاء على الأطلال ووصف الديار ووصف جمال المحبوبة وتعنت أهلها ووصف حاله وولهه ، لا على مذهب عمر بن أبى ربيعة فى القصص وحكاية الحوادث مع النساء .

ولم يمدح عامة شبابِه أحدا، حتى إذا طال عليه الدهر ويئس منها كان يتسلَّى عنها بالخروج إلى الشام ، وربما مدح بعض رجال من بنى أمية . ثم عَرَض له أن يُمعِن فى البعد عنها فودّعها وخرج إلى مصر فمدح عبد العزيزَ بنَ مروان واليَها من قِبَلِ أخيه عبد الملك ؛ فأحسن جائزته وأمره بالمُقام فى منزِلٍ أصلحه له ، فما أقام إلا قليلا حتى اعتلَّ ومات سنة ٨٢ هـ .

ومن رقيق نسيبه قوله :

خليلىَّ فيما عشتما هل رأيتما ... قتيلا بكى من حُبِّ قاتِله مثلى ؟
أبيتُ مع الهُلَّاك ضيفا لأهلها ... وأهلى قريب موسعون ذوو فضل (١)
فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ... ولكنْ طِلابِيها لِما فات مِن عقلى

وقوله :

لقد لامنى فيها أخ ذو قرابةٍ ... حبيبٌ إليه فى ملامته رشدى
وقال : أفِق ! حتى متى أنت هائم ؟ ... بِبَثْنَةَ فيها قد تعيد ، وقد تُبدى (٢)
فقلت له : فيها قضى الله ما ترى ... علىَّ ! وهل فيما قضى الله مِن ردّ ؟
فإن يك رشدا حبها أو غواية ... فقد جئتُه ، ما كان مِنى على عمد
لقد لَجَّ ميثاق مِن الله بيننا ... وليس لمن لم يوفِ لِلهِ مِن عهد
فلا وأبيها الخيرِ ما خنت عهدها ... ولا لى علم بالذى فعلت بعدى
وما زادها الواشون إلا كرامة ... علىّ ، وما زالت مودّتها عِندى

(راجع المنتخب)

---

(١) الهلاك : السؤال الفقراء ، أى كان يحتال بأنه فقير مستضيف أهلها ليراها مع أن أهله كانوا ينزلون قريبا منهم وهم فى سعة وخصب .

(٢) أصل البثنة : الزبد ، تشبه بها المرأة الجميلة البيضاء الغضة وسميت بها مصغرة بثينة .

عُمَر بن ابى رَبيعة

هو أبو الخطاب عمر بن عبدِ الله بن أبى ربيعة القُرشىّ المَخْزومىّ . وكانت أُسْرةُ ابن أبى ربيعة مِن أغنى أُسَر قريش وأوسعِها تجارة وأعزِّها جانبا وشرفا ، وولد عمر بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب ، فنشأ بالمدينة مترفا مُتَرَفِّهًا يُؤْثِر رَغْد العيش والدُّعابة والهُزالة والصَّبْوة على الجِدّ والتَّوقُّر والعملِ للسلطان .

وقال الشعر من صِغره على سبيل التطرُّب والغَزَل ، إذ كان فى غِنى عن التكسب . وأعجِب به الشبان والقيان ، وأغراه ذلك على الاسترسال فى نظمه . واختطَّ له فى شعره طريقة ابتكرها ، فوصف بها النساء المعروفاتِ مِن نساء قومه المحصنات ، ومن نِساء الأشراف ، وتحدث عنهن كاذبا أو صادقا ينعتهن فى لِبسهن ومداعبتهِن وتلاوُمهِن ومُلاقاته لهن عند قدومِهن إلى مكة مُحْرِماتٍ ، وعند طَوْفهن بالبيت الحرام ، ويصف زيارته لهن فى منازلهن أو دعوته إليهن ليسمعن شعره . نظم ذلك فى أكثرِ قصائده المطولةِ وفى مقطّعاته على أسلوب قصصى غالبا رقيقِ اللفظ دمِث المعانى ، له موقـع فى القلب ومخالطة للنفس ، فاستهوى بشعره أهل الصبوة من الفتيانِ والفتيات ، واستطـار شرُّه حتى شبَّب بنساءِ الأشراف والخلفـاءِ .

وتَحَدَّثَ عنه الثقاتُ أنه حَلَفَ بأغلظ الأيمان لم يأت منكرا فى حياتِه .

وكان يقيم بالمدينة أحيـانا ، وأكثر ما كانت إقامته فى كِبَره بمكة . ولما تقدمت به السن أقلع عن صبوته وتاب عن تشبيبه ومات سنة ٩٣ هـ .

الكميت

هو أبو المستهل الكُمَيْتُ بن زَيْدٍ الأسدىّ المضَرىّ الكوفىّ . كان من أعلم أهلِ زمانه باللغةِ وغريبِها وأخبارِ العرب وأيامِها وأنسابها ومناقبِها ومثالبِها ، ومن أروى الناس لشعرها . وأقرَّ له حمّاد الراوية بالسَّبْقِ عليه .

وقال الشعر الجيد وهو صغير ، واحترف بتعليم الصبيان بالمسجد . وتَشَيَّع لبنى هاشم ، ونظم فى تشيُّعه القصائد الطنانة التى بهرت الناس ؛ فتكسب بالشعر ، ومدح كبار بنى هاشم والسادات من العلويين واحتجّ لهم ودافع عنهم .

وكانت العصبية بين اليمانية والمضرية قد استغلَّها بنو أمية فى ترويج سياستهم ؛ فهجا شاعر من اليمانية يسمى حكيما الكلبىّ آل علىّ وشيعته ومضرَ جَمْعاء ، فأغرت مُضَرُ الكميت به ، فحَمِىَ وهجاه وهجا اليمانية معه ؛ فأيقظ شعره ما كان نائما من العصبية فى الجاهلية .

واضطهده بنو أمية وولاتهم بالعراق وسجنوه ، ففر من السجن وذهب إلى هشام الخليفة ومدحه وأظهر رجوعه عن التشيع مع تعصبه على اليمانية حتى مات سنة ١٢٦ هـ .

ويقول الجاحظ ما فتح للشيعةِ الحِجاج بالشعر إلا الكميت بقوله :

فإن هى لم تصلُحْ لحَىّ سواهمُ   فإنَّ ذوى القربى أحقُّ وأوجبُ
يقولون : لم يُورَث ، ولولا تُراثُه   لقد شَرِكَتْ فيه بَكِيلٌ وأرحب [(١)]

---

(١) بكيل وأرحب : حيان من همدان .

وهى من هاشميته المطولة التى أولها :

طَرِبتُ ،وماشوقا إلى البيض أطرب … ولا لعِبا مِنى ، وذو الشوق يلعب
ولم تلهِنِي دار ولا رسم منزِل … ولم يتَطَرَّبْنِى بنان مُخَضَّب
ولا السانحاتُ البارِحاتُ عَشيةً … أمَرَّ سليمُ القرنِ أم مَرَّ أعْضَب(١)
ولكن إلى أهلِ الفضائل والنهى … وخير بنى حوّاء ، والخير يطلب
بنى هاشم رهط النبى فإننى … بهم ولهم أرضى مِرارا وأغضب
خَفَضْتُ لهم منِّى الجناح مَوَدَّةً … إلى كنفٍ عِطفاهُ أهلٌ ومَرْحَبُ
ومالِىَ إلا آلَ أحمد شيعةٌ … وما لِى إلا مذهبَ الحقِّ مذهبُ
بأىِّ كتابٍ أم بآيةِ سُنة … يُرَى حبهُم عارا على ويُحْسَب

(١) أى لا أعبأ بزجر الطير إن كانت سانحة أو بارحة أى تأتى من اليمين أم من اليسار ولا إن مر
ى وحش سليم القرن أم مكسوره .

الخطابة فى عصر بنى أمية

كان قِصَرُ عهد النبوة والخلفاءِ الراشدين ، مع ما فتَحَ اللهُ على العربِ مِن عظيمِ الممالك ، ومع انسياحهم فى مشارق الأرضِ ومغاربها ، وشبوبِ نيرانِ الفتن بعدَ مقتلِ عثمان رحمه الله ، مؤذناً بأنَّ الخطابة ستبقى آلة الإقناعِ وعُدَّة الدّفاع عند العرب ما احتفظَتْ بِصِحّةِ ألسنَتها ، ولم تَحْتَجْ إلى انتضاء السيوفِ مِن أغمادها .

وكان ذلك حَتْماً مقضياً ، فإن الخطابةَ فى دولة بنى أميةَ ازدادت دواعيها بازدياد الفِتَن والثورات ، وتعدُّدِ النحل الدينية والأحزاب السياسيّة : من شيعةٍ ، وناصبةٍ ، وزبيريةٍ ، وخوارج . ثم بازدياد الفتوح الإسلامية فى خراسان و بلاد الترك وسِجِسْتان والسِّندِ ، وفى إفريقية والمغرب والأندلس و جزائرِ بحر الروم ، وكلُّ ذلك يستدعى الخطابةَ من الخلفاء والأمراء والولاة وقوّاد الجيوش وزُعماء الأحزابِ ، ويستدعى أيضا رقيها وقوّةَ تأثيرها ؛ لوحدة اللُّغة بين التابِعِ والمتبوع أوّلا ، ولازدياد المواطن التى يُحَمَدُ فيها القولُ ثانيا ، ولانْخداعِ العَرَب بِقوّةِ الفصاحة ثالثا ؛ إذْ كان الرؤساءُ منهم عَربا ، وكان الأتباع إما عربا وإما مستعرِبين .

وكان الخلفاء يُرسِلون بأبنائِهم إلى الباديةِ لينشَئُوا فيها على فصاحةِ القول ، وخشونةِ العيش ، واحتمال الشدائد ، والتمرُّن على الفروسيّة . وقلّ منهم من نشأ فى الحضَر ؛ فأعدَتْهُ عُجمةُ الخدَمِ : كالوليد بن عبد الملك فَعَدَتْ عليه بعض لحنات .

ولم تَبْقَ بعدُ مناصِبُ الولاية والقيادة قصرا على قريش ؛ بل شملت قبائل العرب عامّة واليمانيةَ فى أوّل الدّولة خاصة لِحَطْبِ المُضَريّةِ فى حبل عبدِ الله بن الزبير . ثم تعصّبت خلفاء الدولة الأُمويةِ بآخِرةٍ للمُضَريّة على اليمانيــة بعد خروج أبنــاءِ المهلب عليهم . فكان من الجميع خطباء مصاقع .

موضوعات الخطابة — وقد زادت موضوعات الخطابة فى هذا العصر بأمورٍ مستحدثةٍ فى الدين والسياسةِ والاجتماعِ منها :

(١) استعمالها عند فِرقِ الشِّيعَةِ والخوارج فى تأييد كلٍ منهم نِحْلَتَــه ودعوة غيره إليها .

(٢) استعمالها فى الدعايةِ السياسية كما كان يفعل خطباء المرْوانيين والزبيريين والعلويين والثوارِ الخارجين على بنى أمية ؛ من أمثال عبد الرحمن بن الأشعث ويزيد ابن المهلب .

(٣) استعمالها فى المفاخرات والمناقضات التى كانت تدور رحاها بين أهل العصبية من اليمانية والمضريةِ ، وبين العرب والشعوبيةِ .

(٤) استعمالها عند خلفاء بنى أمية آلة للعقوبةِ بالتوبيخ والتقريع ، أو تعْيير المخطوب فيهم بمساويهم ومخازيهم فى الجاهلية والإسلام ، والتهديد بالقتل وحرق الدور واستئصال النعمة وأخذ البرىء بذنب المسىء ونحو ذلك .

وفوق ذلك استعملت الخطابة فيما كانت تستعمل فيه فى الجاهلية وصدر الإسلام من تحريض على قتال ، أو وصيةٍ بمعروف ، أو توضيح حكم شرعى ، أو تهنئة بفتح ، وفى صلاة الجمعة والعيدين وموسم عرفة وغير ذلك .

أسلوبها — وكانت الخطب فى هــذا العهد تفتتح دائمـا بحمد الله والصلاة والسلام على نبيه . وعابوا على زياد ابن أبيه تجريد خطبته التى خطبها أول دخوله البصرة واليا عليها من حمد الله والصلاة على نبيه وسموها : " البتراء " لذلك .

ثم يفيض الخطيب فى موضوعه ثم يختمها بقوله : " أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم " . وربمـا أعاد بعد ذلك الحمد لله والصلاة على النبى والدعاء للخليفة فى الجمع والمواسم .

وكان خلفاء بنى أمية وولاتها إذا خطبوا أهل مدينةٍ ، بعد إخماد ثورة قاموا بها ، أكثروا من عبارات السب والتهديد ، وتمثلوا بأبيات الشعر الشديدة الوقع على نفوسهم المدخلة الرعب على قلوبهم ، أو اقتبسوا الآيات القرءانية المنذرة بسوء مصير الباغين ، وكثيرا ما كان خطيبهم يتفاصح بالغريب من اللفظ إذا خطب أعرابا أو فصحاء ؛ لتهويل خطبِه فى نفوسهم وإكبار شخصه فى أعينهم .

وبقوا على عادتهم فى الخطابة من التزيِّى بزِىّ العرب والخطبةِ من قيامٍ والاعتماد على قوْسٍ أوقائمِ سيف أو مِخْصَرَةٍ ، وخطب الوليد بن عبدالملك جالسا فلم تستحسن منه ولا ممن حاكاه من بنى أمية[١] .

وفى الجملة أنَّ الخطابة بلغت فى هــذا العصر قمة عظمتِها ، وحق لها أن تبلغ هذه الغاية إذ كانت العربية لا تزال حافِظة جِدّتها معتزة بمقاوِلها مِن بنى هاشم وبنى أمية وفصحاء القواد : من أمثالِ الحسين بن على وابنه على وحفيدِه زيد ، ومِن مثل معاوية وعبد الملك وسليمان ابنِه وعمر بن عبد العزيز ، ومن أمثال الحجاج وقتيبة بنِ مسلمٍ وخالدِ القسرى والمهلب بن أبى صفرة من ولاتهم ، ومن أمثال عبدِالله بن الزبير والمختار وابن الأشعث من الخارجين عليهم ، ومن أمثال عمران ابن حِطّان وقَطَرِىّ بن الفُجاءَةِ وأبى حمزة الإباضى من الخوارج ، ومن أمثال صَعصعة ابن صُوحَان وسَحْبان بنِ وائل من رؤساء القبائل ، ومن خطباء الأمصار ممن أدرك الدولتين الأموية والعباسية كخالد بن صفْوان وعِقال بن شبَّة .

وحفِظت الخطابة العربية رونقها نحو قرن من حكم الدولة العباسية ، فكان من أبناء على بن عبدالله بن عباس ومن أحفادِه خطباء لا يجارون : كداود بن على وعبدالله بن على والسفاح والمنصور والمهدى والرشيد والمأمون ، ومن القواد وخطباء الأمصار : أمثال أبى مسلم الخراسانى وشبيب بن شيبة وغيرهم .

---

(١) وسبب ذلك أنه صح عندهم أن عثمان رضى الله عنه خطب من قعود كما روى ذلك الطبرى .

معاوية بن أبي سفيان

هو أمير المؤمنين معاوِية بن أبي سفيان صخرِ بن حرْب بن أُميةَ .

كان أبو سفيان من سادات قريش وأوسعهم مالا وأربحِهم تجارة ، ولما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة كان من أشد أعدائه ومعارضى دعوة الإسلام مع كثيرمن أغنياء مكة وصناديدها، خَشية أن يستأثر فيهم بالشرف وهو فقير . وكان له جملة أولاد منهم معاوية فبقى مع أبيه على دين الجاهلية حتى فتح رسول اللهِ مكة فأسلم مع أبيه . وكان يحسن الكتابة والقراءة فصار من كتّابِ النبي . ولما فتح المسلمون الأمصار كان من قادة جيوشهم . وولاه عمر الشام فبقى واليا عليها زمن عمر وعثمان .

ولما ثارت فِتنة عثمان وقتِل فيها ، ووليِ الخلافة بعده على بن أبي طالب لم يبايعْه واتهمه بدم عثمان، وحاربه عدة سنين حتى قتل على غِيلة ، وآلت إليه الخلافة فحكم المسلمين خليفة نحو عشرين سنة وتوفى سنة ٦٠هـ عن ٧٥ سنة ، وكان رحمه الله حليما طويل الصبر داهِيا سياسِيا سخيا بالمال فى تأيِيد ملكهِ خطيبا بليغا، وله خطب كثيرة . وكان آخر خطبة خطبها أنه صعد المنبر وحمِد الله وأثنى عليه ثم قبض على لحيته وقال :

” أيها الناس إنى من زرع قد استحصد ، وقد طالت عليكم إمْرتى حتى مِللتكم ومِللتمونى ، وتمنيت فراقكم وتمنيتم فراقى . وإنه لا يأتيكم بعدى إلا من هو شر منى كما لم يأتكم قبلى إلا من كان خيرا منى . وإنه من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . اللهم إنى أحببت لقاءك فأحِبِ لقائى“ ثم نزل فما صعد المنبر حتى مات .

ومن خطباء صدر هذا العصر :

عبد الله بن الزُّبَيْر

هو أبو خُبَيْب عبد الله بن الزبير بن العوام . وأمه أسماء بنت أبى بكر . وهو أول من ولد من المهاجرين بعد الهجرة إلى المدينة . ونشأ بالمدينة ، وشهد رسول الله وروى عنه وحفظ القرآن كله وكان أحد الخمسةِ الذين كلفهم عثمان كتابة مصاحفِ الأمصار . وكان شجاعا حضر كثيرا من الفتوح الإسلامية . ولما مات معاوية لم يبايع ابنه يزيد ، ودعا إلى نفسه بالخلافة . ودخل فى دعوته بلاد العرب ومصر والعراق وجنوبىُّ الشام ، وولى أخاه مُصْعَبا العِراق ، فذهب عبد الملك ابن مروان لِقتاله ، فقتله ، وأرسل إلى عبد الله بن الزبير من يقاتله بمكة . وكانت له حروب مع عبد الملك انتهت بأن حاصره الحجاج بمكة فخذله أصحابه لبخله فخرج له مستقتلا فقتل سنة ٧٣ هـ . وكان عابدا بخيلا ضعيف الرأى فى السياسة خطيبا بليغا . ومن خطبه أنه لما بلغه قتل أخيه مصعب قام فى الناس فقال :

” الحمد لله الذى له الخلق والأمر، يؤتِى الملك من يشاء و ينزِع الملك ممن يشاء و يعِزُّ من يشاء و يُذِلُّ من يشاء .

إلا و إنه لم يذلل الله من كان الحق معه ، و إن كان فردا ، ولم يعزز من كان وليه الشيطان وحزبه و إن كان معه الأنام طرا .

ألا و إنه قد أتانا من العراق خبر حزننا وأفرحنا : أتانا قتل مصعبٍ رحمة الله عليه ، فأما الذى أفرحنا فعلمنا أن قتله له شهادة ، وأما الذى حزننا فإن لِفراقِ الحميم لوعة يجدها حميمه عند المصيبة ثم يَرْعوِى من بعدها ذو الرأى إلى جميل الصبر وكريم العزاء .

ولئن أُصِبتُ بمصعبٍ لقد أصبت بالزبير قبله ، وما أنا من عثمان بخلو من مصيبة ، وما مصعب إلا عبد من عبيد الله وعون من أعوانى . ألا إن أهل العراق

أهل الغــدرِ والنفاق أسلموه و باعوه بأقل الثمن ؛ فإن يقتل فإنا واللهِ مانموت على مضاجعنا ، كما يموت بنو أبي العــاص " والله ماقتل منهــم رجل فى زحف [١] فى الجــاهلية ولا الإسلام " وما نموت إلا قَعْصًا [٢] بالرماح وموتا تحت ظلال السيوف .

ألا إنما الدنيا عارية من الملكِ الأعلى الذى لا يزول سلطانه ولا يبيد ملكه ، فإن تقبِل لا آخذها أخذ البطِرِ الأشِر ، و إن تدبِر لا أبكِ عليها بكاء الخرِق المهين .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

---

(١) فى قتل سريع كضربة سيف وطعنة رمح وإنما يموتون بمرض يطول .

(٢) أى إلا موتا سريعا .

قَطَرِىُّ بن الفُجَاءَة

هو أبو نعامة قَطَرِىّ بن جَعْونةَ الفجاءة التَّميمىُّ المازنىُّ رأس الخوارج الأزارقةِ وأحد شجعانها وقوادِها وخطبائها وشعرائها ، بايعوه بخلافتهم بعد موت رئيسهم نافِع بن الأزرق وخليفته ابن الماحوزِ .

وبقى يحارِب جيوش السلطان ويهزمهم ويجبى خراج ما استولى عليه من فارس والأهواز وطَبَرِسْتان والعِراقِ والمَوْصِل ، ويسلم عليه بالخلافة من الخوارج عشرين سنة ، حتى حدث بين الأزارقة فتنة فى مَذهبهم انقسموا فيها طائفتين كان على إحداهما قطرى . فانتهزت الدولة الأموية فرصة ضعفه ، وأرسلت عليه جيشا عظيما قتله وبدد شمل أصحابه سنة ٧٩

وله خطبة بليغة فى المنتخب فراجعها فيه .

ويعدّ قطرىّ من أخطب العرب فى عصره أو هو أخطب الخوارج على الإطلاق، وله شعر نبيل فى الطبقة الأولى من شعر الحماسة إلا أنه لم يدون منه ومن خطبه إلا القليل لخبث مذهبه (١)

---

(١) لأن مذهب الأزارقة الذى كان زعيمه قطرى فى حياته يستحل قتل أطفال المسلمين ونسائهم وسبيهن وبيعهن وقتل العجزة ومن لم يبادئهم بحرب من المسلمين ويبقون على الذميين .

الكتابة فى إنشاء الرسائل الفنية

كان أكثر قبائل مُضَر فى الجاهلية أهل بَدو أميين لا يكتبون . فلما عُنِى أهل القرى منهم كمكة بالتجارة ونقلِها بين اليمن والشام والعراق اضطُرّوا إلى تعلم الكتابة من أهل الأنبار . وأول من تعلمها منهم حرب بن أمية القرشىّ جد معاوية بن أبى سفيان وجاء الإسلام وقد تعلمها طائفة من أهل مكة أسلم بعضهم وهاجر فتعلمها الأنصار منهم ومن أسرى بدر . وحض النبى صلى الله عليه وسلم على تعلمِها ، وكان له مِن المهاجرين والأنصار عِدة كتّاب ، ومنهم من كتب رسائله إلى الملوك والأقيالِ والعهود التى يكتبها لِمن أسلم من القبائل ولِمن صالحوه فى حرب . ومن هذا أُطلِقت الكتابة على معنى إنشاء الكتب والرسائل والعهود وكتابة الدواوين .

وأول ما ظهر الاضطرار إلى استخدام الكتابةِ فى أعمال الخلافةِ كان فى أيام عمر لِكثرة الجيوش والفتوح والمغانم فى زمنه ، فاتخذ ديوانا للجيش يدون فيه أسماء المقاتلة وأنسابهم وأعطياتهم ، فهو أول من دون الدواوين من الخلفاء. ومن قولهِ فى ذلك لِعمال الديوان وكتّابه ”إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لِغدٍ ، فإنكم إذا فعلتم ذلك تذاءبت عليكم الأعمال فلا تدرون بأيها تبدءون وأيها تؤخرون“. واتبع من بعده من الخلفاء سنته فى اتخاذ الدواوين إلى أن كانت دولة بنى أمية ، فزاد معاوية ديوان الخراج ، وديوان الخاتم ، وديوان الرسائل . وكان يكتب له على الرسائل عُبيد الله بن أوس الغسانى ، ويكتب له على الخراج سُرجونُ الرومى بالخط الرومى إلى أن نقلت دواوين الخراج من الفارسية إلى العربية على يدِ صالِح بن عبدِ الرحمن فى أيام الحجاج ، ومن الرومية إلى العربية على يد سليمان بن سعد أيام عبد الملك ، ثم نقلت فى مصر من القبطية إلى العربية زمن الوليد فأصبحت لغة الدواوين كلها عربية .

وكانت الرسائل تكتب قبلُ بلغةِ التفاهم لايُعْمَدُ فيها إلا إلى بيانِ الغرض المقصود منها بأوجزعبارةٍ ، وكان أكثرها يمليه الخلفاء أو الولاة والقــواد من إنشائهم على الكتّابِ لمكانتهم مِن الفصاحةِ وقوةِ ملكة الارتجال فيهم . فلما عهِدوا بكتّابتها إلى كتّابهم من أبناء عرب الشام والعِراق ومصر ومن الموالى من الفرسِ والروم والقبط المتعربين اتخذوها صِناعة فتأنقوا فى صوغ عبارتها وتخيُّر ألفاظها ، وأقبلوا على تعلم الأدب وحِفظ القرآن وأشعار العرب ، واقتبسوا مِنه ، وحلوا نظمه ، وأدخلوا فى عبارةِ الكتّابة كل ما استحسنوه من تشبيهاتِ الشعر وضرب أمثاله وحِكمه ، وترجموا إلى العربية كل ما أعجبهم من وجوهِ الأداء فى اللغــة الفارسية والرومية . وتميز ذلك فى عصرِ هشام على يدأبى العلاء سالم مولاه، وكان يجيد العربية والرومية . وعليه تخرج خَتَنُه وتلميذه عبد الحميــد بن يحيى ؛ فصارت على يديه صِناعة عتيدة وفنا من الفنون الأنيقة التى تدخل جودتها على النفس سرورا وبهجة ؛ فهو أستاذ الأستاذين لهذه الصناعة بلا مراء .

وفى عهد سالم وعبد الحميد قل الكتّاب من اســتعمال الغريب والحوشىِّ مِن الألفاظ فى كتّابة الرسائل ، وتجنبوا التعقيد وتباعد الأفكار ؛ فاشتدت الصلة بين كل جملة وما يليها ؛ فقل الاقتضاب والاعتراض بين أجزاء الكلام بأجنبى .

ونعرض عليك هنا صورا من كتّابة عبد الحميد ونعرفك به وببعض أعماله فى ترقية صناعته .

عبد الحميد الكاتب

هو عبد الحميدِ بن يحيي مَوْلى بنى عامِر بن لُؤَىّ بن غالِب من قبيلة قريش .

كان أول أمره معلم صِبية يتنقل فى البلاد ، ويتكسب بالتعليم ، حتى عرّفته الأقدار بمَرْوان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية قبل أن يَلِىَ الخلافة ، وخدمه بالكتابة . وبخدمته لمروان انتقل إلى الشام وخدم بصناعتهِ فى ديوان الخلافة ، وعرف بليغ زمانه سالمـا مولى هِشام بن عبد الملك الخليفة ورئيس كتّاب الديوان وقتئذ وصاهره فلقنه سالم صناعة الكتابة الديوانية ومراسم الملك . وكان سالم يعرف اليونانية وينقل عنها فاستفاد عبد الحميد من صناعته وترجمته ، وفاق كتّاب العرب والموالى بخواص اجتمعت فيـه : من عقل وذكاءٍ وحِفظ قرءانٍ ولغةٍ ورِواية خطبٍ وعلم جمٍّ ووفاءٍ عظيم لأولياءِ نِعمتِه . يعرف ذلك من بعضِ رسائله المطولة التى أبقاها لنـا الزمان من آثاره العظيمة ، وكبراها رسالته على لسان مولاه مروان إلى ولى عهده عبدالله حينما وجهه إلى محاربة الضحاك بن قيس الشيبانى رأسِ خوارج الجزيرة سنة ١٢٧هـ . وتليها رسالته إلى أهل صناعة الكتابة ، يرشدهم فيها إلى آداب الصناعة وصون أنفسهم عن نقائص الأمور . وتلى هذه رسالته التى كتبها على لسان الخليفة لعامل له على أحد الأمصار بأمره أن يزجر أهل مصره عن لعبة الشطرنج ويبين له معايبها ، مما استحق به أن يسمى بشيخ الصناعة وأستاذ كل كاتب ، فوق استحقاقه ذلك بما أثر عنه من استكمال أداة الصناعة . فقد كاد يجيد الإيجاز كما يجيد الإطناب ، ويتخير من الألفاظ أنصعها وضوحا وأجزلها معنى وأدقها كتابة وأقواها حجة وأنسقها ترتيبا .

وهو أول من أطال الرسائل السلطانية والاخوانية والفنية ، وابتكر فيها كثيرا من صور البدءِ والختام وتعديد التحميدات لله فى الرسائل السلطانية المطولة حتى كأنه فى الحقيقة كان يضع نظاما عاما عتيدا للكتابة فى دواوين الدولة العباسية .

ومن رسائله المختصرة ما كتبه فى وصاة :

حقُّ مُوَصِّلِ كتابى عليك كحقِّه علىّ ؛ إذ جعلك موضعا لأمله ، ورآنى أهلا لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فحقق أمله .

وما كتب به إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالمكاره والشرورّ ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بِنابها ذمها ساخطا عليها ، وشكاها مستزيدا لها . وقد أذاقتنا أفاويقَ استحليناها ؛ ثم جمحت بِنا نافرة ، ورمحتنا مُوَلِّيَة ، فملُح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالدار نازحة ، والطير بارحة . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا ، وإليكم وجدا ، فإن تَتِمّ البليّة إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا . وإن يَلْحَقْنا ظُفُرَ جارحٌ من أظفارِ مَن يليكم نرجع إليكم بذُلِّ الإسار ، والذلُّ شَرُّ جار .

نسأل الله تعالى ، الذى يُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، فى دارٍ آمنةٍ ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين ، وأرحم الراحمين .

بدء التأليف فى العلوم الدينية والعربية والمنقولة

كان غاية ما يقصد إليه العرب والمسلمون فى أولِ أمرِهم من أنواع المعرفة معرفة القرءانِ وأحكامِ الشريعةِ ، فأمّا القرءان فدوّنوه فى المصحف خَشْيَة نِسيانه وضياعه بموت حفظتِه ، وأما أحكامه فكانوا يتعرفونهـا من القرءان وما حفِظوه فى صدورهم من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخشوا تدوِين السنة لِئلا تختلِط بالقرءان ؛ غير أن كثيرا من المنافقين وأهلِ الكيدِ للإسلام دسوا على أهـل الغفلةِ مِن المسلمين أحاديث مكذوبة على رسول الله ، فأدرك عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموِىّ على رأس المِـائة من الهجرة ضرورة جمع ما عُرِف فى زمانه من الأحاديث فى كتاب يبعث بِنسخِه إلى الأمصار كما فعـل عثمان فى أمر المصحف ، فدون له بعض ثِقاته كتابا يظهر أنه كان صغيرا ؛ فلم يلبث أن اندمج فى مطولاتِ كتب الحديث التى دونت فى صـدرِ الدولة العباسية ، ولكن جمهور المفسرين والمحدثين والقراءِ ظلوا يحفظون علومهم فى صدورهم .

و إنمـا روى عن بعضهم أنه وضع رسائل فى تفسير بعض سـور القرءان أو فى غريبه أو متشابهه ؛ ولكن مؤرخى العلوم لا يعتبرونها كتبا جامعة فى التفسير، لأنه لم يفسر فى بنى أمية القرءان بأجمعه . وقد نسب كثير من كتب التفسير الكاملة إلى بعض الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت ، ولكن من نسبت إليهم لم يؤلفوها ، وإنمـا كتبها رواة عاشوا فى الدولة العباسـية جمعوا من أفواه غيرهم كل ما نقلوا عن هؤلاء الصحابة والتابعين صحيحا أو منحولا . ورويت لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة المتوفى سنة ١٣١ بضعة كتب تدور حول مذهبه فى العقائد وتجرى مجرى الرسائل لا الكتب الحافلة .

وانقضى عصر بنى أمية ولم يدون فى علوم الدين غيرُ ما ذكر . أما علوم العربيـة فإن أبا الأسود الدؤلى من أصحـاب علىّ رضى الله عنه وضع قواعد النحو بإشارة منه . وانتهى عصر بنى أمية وقد رواه عنه طبقتان . وروى أحد الثقاتِ من أئمة العربيـة أنه رأى رِسالة صغيرة لِأبى الأسود الدؤلى فى النحو تبلغ أربع ورقات .

فأما العلوم المنقولة فقـد رووا عن خالدِ بن يزيد بن معاوية أنه رغِب فى الصنعةِ (أى تحويل المعادن إلى ذهب) فكلف من نقل له كتبها ، وأقبل على درسها وتجربتها . وقد فند ابن خلدون هـذه الرواية وأمثالهـا وهو الحق . والمعروف أن أول كتاب علمى من كتب الأوائل نقل إلى العربيـة هو كُنَّاش أهرون بن أعين الطبيب نقله ماسرجويه اليهودى متطبب البصرة من السريانيـة إلى العربية ونشره فى الناس للتطبب بما فيه بأمر عمر بن عبد العزيز . ورووا أيضا أن معاوية بن أبى سفيان استقدم من يدعى عُبيد بن شَرْية من صنعاء فكتب له كتاب الملوك والأخبارِ المـاضية . وأن وَهْب بن مُنبِّه والزُّهْرِىّ وغيرهما كتبوا فى التاريخ أيضا .

ولكن ذلك لم يقنـع الباحثين فى تاريخ العلوم وتصنيفها أن يعتبروا عصر بنى أمية عصر تصنيف ؛ إذ لم يتم فيه كتب جامعة حافلة مبوبة مفصلة ، وإنمـا كان ذلك رسائل أو مجموعات تدون بحسب ورودها واتفاق روايتها .

العصر العباسى الأول

(من سنة ١٣٢ هـ إلى سنة ٣٣٤ هـ)

الحياة الإسلامية فى هذا العصر

قدمنا أن الأمة العربية كانت محتفظة بعربيتها وإسلامها فى زمن الدولة الأموية بالرغم مِن اقتباسها بعض نظم الحكم والحرب والسياسة والإدارة مِن الأمم ذواتِ الحضارات القديمة التى فتحت بِلادها ، فكانت أكثر المناصب الرفيعةِ فى الدولة مقصورة على العرب ، وجمهرة جيوشها من العرب . وكانت عربية الصِّبغةِ فى شارتها وملبسها ومأكلها . فكان تعصبها للعرب والعربية مما أحرج صدور الأمم الداخلين فى طاعتها ودينها ، وجعلهم يتمنّون زوالها ، وشاركهم فى ذلك قبائل اليمانيةِ لِتعصبها لمضر عليهم مع أنهم الأصل فى قِيام دولتها .

فلما قامت الدعوة العباسية فى خراسان ، على أساس التسويةِ بين الشعوب الإسلامية والقبائل العربية فى الحقوق والمعاملة ، ترامى فى أحضانها فرس خراسان وعربها مِن اليمانيةِ ؛ فاكتسحت بهم الدولة الأموية ومنحتهم ما وعدتهم به ، بل غلت فى حبها لِلفرس واختصتهم بكثير من المزايا ؛ فكان لها منهم قواد جيوش وولاة وحجاب ووزراء وكتّاب . ونقلت حاضرتها إلى جانب المدائن عاصمةِ الفرس القديمة اعتزازا بالفرس وثِقة بهم . ونقلت نِظامهم الكِسروىّ فى تنسيقِ دواوين الدولة وأساليب الحرب ، وحاكتهم فى الأبنيةِ والمساكنِ والملابس حتى الاحتفال بالأعيادِ الوطنية الفارسية ؛ فاصطبغت الدولة العباسية فى جملتها بصبغة فارسية ، إلا أن حضارة الفرس لم تكن مؤسسة على ثقافةٍ عِلميةٍ فى الرياضة والطب والهندسة وعلوم الطبيعة والمنطق والحكمة ونحو ذلك مما اقتضته الحضارة اليونانية ؛ بل إن الفرس أنفسهم عند ما أرادوا التوسع فى العلوم اقتبسوا بعضها من اليونان ،

وترجموه إلى الفارسية زمن كسرى أنوشروان؛ فرأى أبو جعفر المنصور محاكاتهم فى ذلك فأخذ يقتبس أيضا لترقية دولته من الحضارة اليونانية ، وتابعه أحفاده فى ذلك . وكان بفارس والعراق والجزيرة وشمالىّ الشام بقايا شعوب سامية وآرية أخذوا بحضارة اليونان زمنا ثم دان بعضهم بالنصرانية ، وبقوا على معرفة باللغة اليونانية ، فنقلوا للخلفاء علوم اليونان ، وتعلمها منهم علماء العرب وهذبوها ونبغوا فيها ، وامتزجت مسائلها بعقائد المسلمين فى المباحث الإلهية واستعملت طرق برهاناتها وجدلها فى إثبات أصول الفقه، فأصبحت حضارة الدولة العباسية متشكلة بشكلٍ فارسى فى سياستها وإدارتها ومعيشتها ، وبشكلٍ يونانيّ فى ثقافتها العلمية الكونية وبشكل إسلامى فى اعتقادها .

ثم أخذ نفوذ العرب السياسى فى الدولة يضمحل بالتدريج ، فلم يكن لهم بعد قرنٍ فى المشرق وخراسان شأن سياسى يذكر ، وزادهم ضعفا قطع المعتصم أرزاقهم من جميع دواوين الجند وإحلال مواليه من الترك محلهم ، فاندمجوا فى غمار العامة وتكسبوا بالزراعة والحرف ، وضعفت فيهم النُّعَرةُ العربيـة ؛ فامتزجوا بالفرس وغيرهم من الشعوب السامية والآرية بالمصاهرة والمجاورة . وتكوّن من مسلمى هذه الشعوب أمة مسلمة ذات حضارة ممتزجة من حضاراتٍ شتى ، فيها محاسن هذه الحضارات وعيوبها؛ ولكن الحرية التى مُنحتها الفرس والشعوب المستعجمة استغلها كثير منهم فى الشر ؛ ففشا فيهم كثير من أمراض هـذه الأمم الاجتماعية والخلقية التى كانوا يخفونها، فجاهروا بها، وجاهروا بكثيرٍ من عقائد الزندقة والإلحاد فتنبه الخلفاء لخطر العاقبة فتتبعوا الزنادقة والملحدين والفساق قتلا وحبسا، وتجردت طائفة لمقاومتها بالوعظ والقَصص عن الأنبياء والصالحين والترغيب فى صالح الأعمال والتزهيد فى الدنيا والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتشدّد الحنابلة (وهم جل العامة فى بغداد) فى الإنكار عليهم ، وكان لهذه الطائفةِ المقاومةِ للمتهتكين والفساق وعاظ وقصاص وخطباء وشعراء منهم أبو العتاهية .

فأجدى عملهم بعض الإجداء ؛ ولكن عدواها كانت قد سرت فى بغداد بين الكتّاب والشعراء من طَغامةِ الموالى من الفرس وأهل السواد ، ومنهم سرت إلى أمثالهم من بعض السلائل العربية . فأثّر ذلك فى اللغة والأدب تأثيرا بينا .

تأثر الأدب بالحضارتين الفارسية واليونانية

كان تأثر الأدب العربى فى الدولة الأموية بحضارات الأمم المغلوبة للعرب قليلا محدودا : لِأن الأدب فى ذلك العصر كان محصورا فى الشعر والخطابةِ وبعض الرسائل . وكان كل فحولِ الشعراء والخطباء نشئوا إما فى بلاد العرب ، وإما فى البصرة والكوفة ؛ فهما معسكَران عظيمان بَدَتْهما العرب وأسكنتهما مقاتِلتها من الفاتحين وأبنائهم . ولم يكن قد تمّ استعراب العجم ولا انتشرت ثقافتها بينهم . ولم يكن كذلك شأن الأدب فى العصر الأول من الدولة العباسية ؛ فإن مَنْ هَمَّ بالاستعراب من أبناء الفرس فى العراق وفارس وخراسان ، ومن غيرهم فى الجزيرة الفراتية والشام ومصر ، وأخذ نفسه بالثقافة الإسلامية ، وتعلم العربية لم ينضج استعداده لأن يمتزج بالعرب ويمتزجوا به إلا فى أواخر الدولة الأموية ؛ فلم يظهر لاستعرابه ثمرة إلا فى صدر الدولة العباسية ، فكان لكل من الحضارتين الفارسية ، واليونانية المتمثلة فى بقايا السريان والنبط والروم أثر فى أدب اللغة منذ ذلك الحين .

تأثير الحضارة الفارسية — فلما جاءت الدولة العباسية بحريةِ الشعوب المسلمة على اختلاف أجناسهم وتنفيل الفرس مزايا حُرِم منها العرب أنفسهم ، كان هؤلاء المثقفون منهم بالثقافة الإسلامية العربية أول من استجاب للدعوة العباسية ، واقتدى بهم كل من تَطَالَّ إلى شرف الرياسة أو سعةِ الجاه فى هذه الدولة ، فأسلم الكثير منهم مخلصا للإسلام أو منافقا ، وهبوا يتعلمون العربية وأدبها ، ويتفقهون فى الدين ، حتى كان منهم وممن قبلهم من مخلصهم أئمة للإسلام فى التفسير والحديث والفقه والعربية ، وأخذ عنهم المسلمون عربا وغير عرب أصول دينهم وأدب لغتهم ،

وكان منهم كبار الكتّاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الإنشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين ، وكان منهم شعراء أحدثوا أحداثا جديدة فى أغراض الشعر ومعانيه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه ، ونقلوا للخلفاء والأمراء كثيرا من آداب الفرس وحكمتهم وأمثالهم وتاريخهم وسير ملوكهم وأبطالهم وقصصهم وأسمارهم وخرافاتهم المحكية على ألسنةِ الطيور والبهائم والجن والشياطين .

وكاد منافقوهم للإسلام والمسلمين كيدا عظيما ، فدسوا على أهل الغفلة كثيرا من الأحاديث المكذوبة على رسول الله وعلى أصحابه ، وصنعوا على ألسنةِ الأعراب شواهد من الشعر وقصائد طنانة نحلوها فحول الشعراء ، ونقلوا إلى العربية فى السر كثيرا من كتب زنادقة الفرس وملاحِدتهم ، فأفسدوا عقول كثير من الناس .

تأثير الحضارة اليونانية — وكانت الشعوب الداخلة فى طاعة الفرس والروم من بقايا الأمم السامية واليونانية قد ورِثوا عن قدمائهم حضارات مختلفة ، وأخصها الحضارة اليونانية من الحِكمة والرياضة وعلوم الطبيعة والمنطق والفلك والجغرافية والموسيقى ، وكانت هذه العلوم قد امتزجت بمباحث النصرانية واليهودية ودُرِسَت فى كنائسها وبِيَعِها باللسان اليونانى القديم ، فنقل خلفاء العباسيين كتب هذه العلوم على أيدى العارفين باليونانية ، وبعثوا بالبعوث العلمية إلى مدن الروم والقسطنطينية لتعلم اليونانية وترجمة كتبها ، فنقلوا معظمها إلى العربية وتعلمها المسلمون وحذقوها وصححوها ، فكان لها تأثير كبير نافع فى المباحث الدينية من علم الكلام وأصول الدين وصناعة الجدل والمناظرة ، وإدخال قضايا العلوم ومذاهب الفلاسفة فى الشعر العربى ، وتأثير سيئ فى عقول المستضعفين ؛ فأضاف إلى فرق الملاحدة فرقا أخرى ، وظهر أثر ذلك فى الشعر والأدب . وحدثت فى كتب العلم لغة تأليفية تقاس بمعيار المنطق لا بالبلاغة العربية .

الشعر فى العصر العباسى الأول

الشعر فن جميل تُبْهِجُ النفس محاسنه كما تسترعى البصر محاسن التصوير، وتُشَنِّف الأذنَ محاسنُ الموسيقى والغناء؛ فهو كبقية الفنون الجميلة مُتْعَةٌ تُطلب من أربابها لتكميل الحياة المهذبة؛ فلا جَرَمَ أن كانت صناعة الشعر العربى رائجة السوق عند ما بلغت العرب مرتبة طلاب الكمال، أى فى أوان جاهليتها، وفى صدر إسلامها، وعند امتداد سلطانها إلى أكبر مدى فى حكم بنى أمية؛ غير أن نَظْمَه وطلبه للاستمتاع به كانا مقصورين على العرب؛ إذ لم تكن العجم بلغت بعد من التعرب والتفصح درجة تقول فيها الشعر الجيد الذى يَزْحم الشعر الفصيح المتخرجَ شعراؤه فى بوادى العرب. وإنما تهيأ لهم ذلك أو كاد عند ما شارفت دولة بنى أمية الزوال؛ فوجدوا من عطف الدولة العباسية على الأعاجم، وبخاصة الفرس القائمون بدعوتها، معرِضا يعرِضون فيه نفائس شعرهم، ويفوزون فيه بأكبر الجوائز؛ إذ كانوا قد جمعوا فى شعرهم بين فصاحة البداوة، وبداعة الحضارة. وبمثل ذلك حَظِىَ مُتَحَضِّرَة العرب من أهل الكوفة والبصرة وقرى الجزيرة الفراتية وشرق الشام الذين تعلموا العربية بالصناعة كالعجم، وسموا معهم لذلك بالمحدَثين والمولَّدين. فزاحم شعراء الحضر شعراء البادية عند عظماء الدولة، وحلوا عندهم محل السُّمار والمحاضرين والندماء، بل رقى بعضهم إلى رتبة الوزارة والولاية كمحمد بن عبد الملك الزيات ومسلم بن الوليد وأبى تمام، إلى أن خفت صوت شعراء البادية فى أواسط هذا العصر.

وقد حَفَلَ الخلفاء العشرة الأولون من خلفاء بنى العباس بالشعر والشعراء فعقدوا لهم مواسم سنوية يعقدون فيها للشعراء، ويستمعون لقصائدهم، ويمنحونهم

الجوائز على حسب إجادتهم أو موافقة شعرهم لسياستهم : إبقاء على مَنْقَبَةٍ جميلة من مناقب العربيةِ وترفيها على أهلها . وشاركهم فى ذلك وزراؤهم وعمالهم ورؤساء دواوينهم من الفرس وغيرهم ، حتى كان منهم شعراء وأدباء لايقلون عن المتكسبين بالشعر .

فبلغ الشعر فى هذا العصر غاية لم يبلغها بعده إلا عند المتنبى ، وهو ممن أدرك هذا العصر ، وإن لم تكن هذه الغاية كل ماكان يرجى لِلشعر العربى من الكمال ؛ وذلك لانكِفاف خلفاء العرب وأمرائهم عن شد أزره بغلبة عبيدهم من الترك والديلم على أمرهم ، واستحياء كثير منهم لآداب لغتهم .

ومع تفنن شعراء المولَّدين فى أغراض الشعر ، وإبداعهم فى معانيه ، وترقيقهم لأساليبه ، لم يزالوا فى الجملة محافظين فى إنشاء القصيدة على الأوضاع الموروثةِ عن العرب منذ جاهليتها فى بنائها على قافيةٍ واحدةٍ ووزن واحد ، وفى ابتدائها بالغزل والنسيب بذكر الديار والأطلال والظعائن ، ووصف الناقة ، والرحلة فى الفلاة ووصف مافيها من الوحش والصيد ، والتمهيد بذلك للغرض المطلوب من مدح أو تهنئة أوهجاء ، وإن لم يكن الشاعر سلك بادية أو ركب ناقة . وعلتهم فى ذلك إبقاؤهم لذكرى وطنهم وتظرفهم بالتشبه بالأعراب فى أخص خصالهم فى شعرهم ؛ على أن بعض الشعراء من سلائل العجم كابى نواس لم يلتزم ذلك فى شعره ؛ وطالما نَعَى فى مطالع قصائده على شعراء الحضر المحدثين الذين يسلكون مسلك الأعراب ، واستبدل به الابتداء بخمرياته ومجونياته ، أو وصف القصور والبساتين وركوب السفن بدل النوق ، وجاراه كثير من أمثاله .

ويمكن إجمال التغيّرات التى طرأت على الشعر مدة القرنين الأولين من خلافة بنى العباس فى أغراضه وأسلوبه وأوزانه وقوافيه فيما يأتى :

أغراضه — نُظِم الشعر هذا العصر فى أغراضٍ نَظَمَتْ فيها العرب من قبل، ولكنها تشكلت بشكلٍ خاص فى الدولة العباسية أو كثُر استعمالها فيها ، وفى أغراض ابتُدِعت ابتداعا .

فمن الأغراض التى تشكلت بشكل خاص أو كثر استعماله فيها :

(١) استعماله فى العصبية — فقد كانت مقصورة قبلُ على المفاخرة بين بعض قبائل العرب و بعض ، فزادت عليها العصبية بين العرب والعجم كما فى شعر الشُّعوبية ، ولم يكونوا يجسرون على قوله فى دولة بنى أمية ، و بين أرباب العلوم والصناعات كنحاة البصرة ونحاة الكوفة ، وبين مختلفى المذاهب من الفقهاء والمتكلمين .

(٢) استعماله فى السياسة بين شِيعة العَلويين وشيعةِ العباسيين — ولم يكن قبل خلاف بين الشيعتين بل كانوا جميعا يسمَّوْن شيعة بنى هاشم المعارضة لشيعة بنى أمية ، وفى مظاهرة خليفة أو ولِى عهد على منافِسٍ له من العباسيين ، وفى نقد سياسةِ الدولة العباسية فى إيثارها العجم على العرب ، وفى تولِيتهم إياهم مقاليد أمور الدولة .

(٣) تنوع الوصف — فقد تنوع وتشكل بأشكالٍ شتى : من وصفِ القصور والبساتين ومجالس الأنس والمصانع والآثار القديمة ومصايد الطير والسمك ووصف أنواع السفن المختلفة : من سفن السفر والانتقال وسفن القتال ، ووصف أحوال الطبيعة وأحوال النفس وغير ذلك من الأمور الدقيقة .

(٤) زيادة استعماله فى المجون والخلاعة والتهتك وحكاية المخازى والفسوق — وبعض ذلك قد كان فى عصر الأموية بحال لم تبلغ حد البشاعةِ التى كان عليها فى الدولة العباسية ، ومن شعراء هذا الصنف المقيت أبو نواس وكثير من أمثاله .

(٥) نظمه فى الحكمة وضربِ المثل — وكان يقال منه القليل فى الجاهلية وصدر الاسلام وبنى أمية فى خلال بعض القصائد ؛ ثم لما ترجمت حكمة اليونان والفرس والهند أدخل الشعراء كثيرا منها فى شعرهم وزادوا عليها كثيرا من اختراعهم، ومن أشهرهم صالح بن عبد القدوس وأبو تمام .

ومن الأمور التى ابتدعت فى أغراض الشعر :

(١) الغزل بالمذكر — ولم تكن تعرفه العرب قط، وإنما صدر عن المستهترين بالفسوق والمجون من أبناءِ الموالى ، وسرت عدواه إلى من يخالطهم من سلائل العرب ، ثم استطار شره وعمت بلواه . وكان أشد من أشاد به وأذاع سِره أبو نواس والحسين بن الضحاك وأشباه لهما .

(٢) إغراق شعراء المسلمين فى وصف الخمر — وكان بعض شعراء الجاهلية يصفها ثم نهى الإسلام عن ذلك فلم يصِفها إلا بعض النصارى كالأخطل . ولما ساءت الحال فى البضع عشرَة سنةً الأخيرة من حكم بنى أمية نظم فيها بعض المجّان والمستهترين بالمجون من الأمراءِ مقطّعات ، ونسب إلى الوليد بن يزيد بعض ذلك صحيحا أو منحولا بقصد التشنيع عليه من منافسيه من أهل بيته خاصة ، ومن الناقمين على بنى أمية عامة .

وكانت نتيجة الحرية التى نالها الأعاجم فى صدر الدولة العباسية أن جهر كثير من شعرائهم بالإغراق فى وصفها ، واستقصاء كل ما يتعلق بها مما لم يكن له نظير فى جاهلية ولا إسلام .

وحاول الخلفاء والولاة ردعهم عنها بالحبس والضرب فلم يجد شيئا ، وذاع القول فيها حتى بين من لم يشربها ، وعدوا ذلك تظرُّفا وتملحا . وأكثر من أغرق فى ذلك أبو نواس ثم جاراه غيره .

(٣) الترهيد فى الدنيا ونعيمها والتـذكير بالموت والنهى عن الاسترسال فى الشهوات واللذات — وكان ظهور هـذا النوع ضروريا ليكون لسان حال اهل الجد من المسلمين كالفقهاء والعلماء والمتكلمين والمحدثين وأهـل الورع والزهادة يضادون به الفساق من الشعراءِ والكتّابِ ومجان الموالى ومن جاراهم من سلائل العرب .

وبطل هذه الغارة أبو العتاهية ، وربمـا كايده بعض الشعراءِ المجان كأبى نواس ؛ فنظموا فى الزهديات قصائد لا تقل فى الصناعة عن شعر أبى العتاهية ، ولكنهم لم يكونوا مخلصين فى شـعرهم ، وإنمـا كانوا يقولونها إظهارا لمقدرتهم فى صِناعة الشعر .

(٤) تأديب النفس وتهذيب الناشئين بنظم القصص والحكايات على السنة الحيوان والإنسان : وأول من فعل ذلك أبانُ اللاحِقِىُّ من صنائع البرامكة ؛ نظم لهم كتاب كليلة ودمنة فأجازوه بجائزة جليلة ، وتابعه فى ذلك غيره .

(٥) ضبط مسائل الفقة والعبادات وقواعد العلوم — وظهرت فائدة هذا النوع فى استذكار العلوم واستخدمه المشارقة والمغاربة إلى وقتنا هذا .

لفظه وأسلوبه ومعانيه — ظهر أثر الحضارة والتأنق وسلامة الذوق فى تخير ألفاظ الشعر وأساليبه وفى تأدية معانيه أكثر مما ظهر فى أغراضه : لاستعمال الروية ، وقلِة الارتجال ، والإنحاء عليه بالتنقيح والتهذيب ، والميل به إلى جانب الرقة والسهولة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته (فى غير الهزل والمجون) مِن مثل مدائح الخلفاء والوزراء والولاة ورثائهم والفخر والطَّرَد .

غير أن الشعراء المتحدرين من سلائل أعجمية أدخلت فيه كثيرا من الألفاظ الفارسية والسوّادية من أسماء المآكل والملابس وآنية المائدة والشراب وأدوات الزينة والصناعات ؛ فما كان منه فى أول الدولة قبل أن تفسد ملكة اللغة فى الأمصار اعتبر معربا يصح استعماله فى الفصيح وإلا فلا . وأكثر من فعل ذلك أبو نواس لشيوعيته وعصبيته للفرس .

وكذلك تعمد فيه هؤلاء الشعراء استعمال بعض الألفاظ والتعبيرات والأساليب الكلامية وبعض التشبيهات المستملحة فى القرءان والحديث وشعر العرب مما سمّوه بديعا . وأول من تعمّده بشّار بن برد ثم أكثر منه مسلم بن الوليد حتى عدّوه أول من أفسد الشعر بتكلف البديع . وأعجب البديع أبا تمام فأفرط فيه . ثم تابعهم شعراء العصور التالية ، فاستكثروا من أنواعه واخترعوا منها ما لم ينطق به العرب . كما دخل فيه كثير من تعبيرات العلوم والفنون والصناعات التى حدثت فى صدر الدولة العباسية وشاع استعمالها حتى خالطت لغة الأدب .

أما معانى الشعر فقد روعى فيها دقة التصور والتخيلات البديعة وتركب التشبيهات والاستعارات ، وامتزجت بالروح الفلسفى والقياس المنطقى فى القرن الذين نشئوا فى عصر المأمون وما بعده من أمثال أبى تمام وابن الرومى وغيرهما . ولقلة تملؤ كثير من الشعراء بالروح الدينى أغرق الشعراء فى تملق الممدوحين بأوصاف الإله والأنبياء ، وتبع ذلك كثرة المبالغات فى كل أوصاف الشعر وأحكامه .

أوزانه وقوافيه — وراج فى هذا العصر استعمال الأبحر القصيرة التى لم ينظم منها العرب إلا قليلا فى أغراض المجون والهزل والتغزل بالشعر ومقطّعات الهجاء .

ونظم المولدون من أوزانٍ غيرِ أوزان العرب اخترعوها[١] ، وعدلوا أحيانا عن إنشاء القصيدة الطويلة على قافيةٍ واحدة فنظموها مقطعاتٍ كل منها على قافية خاصة . وكانت نتيجة ذلك ظهور نوعين من الشعر اشتهر استعمالهما .

أولهما — الشعر المزدوج — فهو يتألف من مشطورين على قافية ثم من مشطورين آخرين ، وهكذا . وأكثر ما كان يستعمل فى نظم الأمثال وحكايات الحيوان ، ونظم القصص ، وقواعد الفقه والعلوم . (راجع المنتخب) .

وثانيهما — الموشّح — ويظهر أن أول من نظمه ولكن بغير هذا الاسم ابن المعتز[٢] ؛ ولكن الأندلسيين والمغاربة أمعنوا فى كثير من أنواعه ، وسموه بهذا الاسم ، وأعجبت طريقتهم المشارقة فنظموه على طريقتهم فى العصور التالية بعد هذا العصر مع تنويع القوافى فى شطور والتزامها فى شطر أو شطرين .

---

(١) وهذه الأوزان كثيرة جدا منها أوزان اخترعها الخليل بن أحمد من عكس بحور العرب . ومنها أوزان اخترعها أبو نواس وابن المعتز وغيرهما .

(٢) كقول ابن المعتز :

أيها الساقى إليك المشتكى   قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غرته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته

جذب الزق إليه واتكا   وسقانى أربعا فى أربع

ما لعينى عشيت بالنظر
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خبرى

عشيت عيناى من طول البكا   وبكى بعضى على بعضى معى

وأشهر ما اخترع فى هذا العصر من الشعر العامى المواليا ، وأول من نظمه مولاة للبرامكة فى رثائهم [١] .

(١) وذلك أن هرون الرشيد لما فتك بالبرامكة أمر ألا يرثوا بشعر فرثتهم مولاة لهم بمقطعات مقفيات الشطور أربعة أربعة ووزنها من بحر البسيط إلا أنه بعبارة عامية ملحونة ، ولذلك لا يحسب من الشعر . ومن هذه المقطعات قولها فيهم .

يا دار أين ملوك الأرض أين الفرس   أين الذين حموها بالقنا والترس

قالت تراهم رمم تحت الأراضى الدرس   سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خرس

وكانت تصيح عقب كل مربعة : وا مواليا ه فاقتصر فى تسميته على لفظ (المواليا) ويظهر أن الذى كان ينظمه يسمى بالعامية (الموال) كما يسمى أهل الصعيد الذى ينظم (الواو) المواوى ثم أطلق (الموال) على نفس النظم .

أبو نواس

هو أبو علىّ الحسن بن هانئ بنِ عبد الأول بن الصَّبَّاح الحَكَمِىّ الشاعرُ المشهور الجاذ الماجِنُ .

نسبه ونشأته — اضطربت أقوال أبى نُوَاس فى نسبه ؛ فكان فى أول أمره ينتسِب فارسيا من أبناء الأكاسرة ، ثم انتسب مُضَرِيًّا ، ثم هجا مُضَرَ ، وانتسبَ يمانيا مِن قبيلة حَكَمٍ مِن سَعْدِ العشيرة ، وافتخر باليمن ، ثم اعترف أنه مِن مواليهم . وهذا الزعم الأخير هو ما اشتهر بين الناس ، فقال بعضهم : إن جَدَّه كان من موالِى عبدِ الله بن الجَرَّاح الحَكَمِىّ والى خراسان زمن بنى أمية ، وإن أباه كان من أهلِ دِمَشْق مِن جند مروان بن محمد ، انتقل إلى الأهواز فى حامِيةٍ رابطت بها ، فتزوج بها امرأة فارسية تسمى جُلَّبَانَ فأتت بأبى نواس وغيرِه . ثم انتقلوا به إلى البصرة ، وهو صبى صغير ، فحفِظ بها القرءان وشدا شيئا من العربيــة والأدب . ويظهر أن أباه مات وهو صغيرٌ ، فأسلمته أُمُّه إلى عطَّارٍ بالبصرة يَبْرِى عُود البخور ، ولكن احترافه لم يمنعه مُعاناة الأدب والشعر . واتفق أن قدِم البصرة والبةُ بن الحُبَاب الأسدىُّ الشاعر الكوفى الماجن الخليع ، فرأى أبا نواس عند العطار ، وحادثه فى الأدب ؛ وكان أبو نواس يبلغه شعره فى الغزل والمجون فيُعجِبه ويحِبّ أن يراه ؛ فلما تعارفا أغراه والبةُ بالخروج إلى الكوفة لِتخريجه فى الشعر فرحل معه إلى الكوفة ، وعرّفه بأدبائها وخلعائها . وأقام معهم زمنا يعيش بخِدمتهم ، ويتعلم اللغــة والنحو والأدب من علمــاء الكوفة . وأجاد الشعر على طريقتهم فى الغزل والمجون وتاقت نفسه إلى الاستزادة من غريب اللغة ، فأخرجه والبةُ مع قوم من بنى أسَدٍ إلى البادية ، فأقام بها سنة ، ثم انحدر منها إلى البصرةِ وطنِه الأوّل وأقام بها .

ومن هنا يبتدئ طور تكسبه بالشعر واشتهاره بين المتأدبين ؛ فأخذ يتم ما عرف مِن اللغة والحديث على علماءِ البصرة ،وأخَصُّهم أبو عبيدة وخَلَفٌ الأحمر. ويقال إن خلفا هو الذى كنّاه بأبى نواس تعصبا معه لِليمانية لأن (ذا نواس) مِن ألقاب ملوك حمير ، فحُوِّل إلى أبى نواس . وقِيل كُنِّىَ بذلك لذؤابتين كانتا له فى صِغره تنوسان على عاتقيه .

وحفِظ ألوفَ القصائد والمقطَّعات والأراجيز ؛ حتى صار حجة فى اللغة ورواية الشعر ، ونظر فى عِلم الكلام ونحل الأمم وأرباب المذاهب فى عقائِدهم ، ولكِن كثرة عِبمه لم تغير من خبثِ تنشِئته بالكوفة على يد شيطانه والبةَ ؛ فأخذ يتكسب بمدح بعض الرؤساء والحكام وأشراف الناس تارة ، ويهجوهم تارة ، ويُشَبِّب بجواريهم وغِلمانهم تارة أخرى . ويُشيد فى شعره جهرة بوصف الخمر ومجالس شرابها وندمانها وسقاتها ، ولم يكن ذلك مألوفا عند المسلمين بعامَّة وعند أهل البصرة بخاصة . فاشتد النكير عليه واشتهر بينهم بالمجانةِ والاستهتار بالفسوق ورُمِى بكل آبدة .

وفى مدة إقامته هذه بالبصرة تظاهر بتَعَشُّق جاريةٍ أديبةٍ لأحدِ الثَّقَفِيِّين تدعى جنان مع شدة صدودها عنه وكراهِيتها له ، وأكثر مِن التشبيب بها فى شعره فى قصائد ومقطعات خاصةٍ بها عبثا وتماجُنا شأنه مع كل جارية شَبَّب بها ؛ إذ كان استهتاره بغزل المذكر أشهر ، وهو إليه أميل . فثقل على أهل البصرة تماجنه ، ولولا أنه كان خفيف الروح طيب الحديث حسن الفكاهة مليح النادرة غزير الأدب والعلم لفتكوا به . ثم رأى هو أن البصرة على رَحْبها تضِيق برغبة نفسه من الاستمتاع باللذائذ وطيب العيش وسعة النفقة ، ورأى أن دار السلام أنفق سوقٍ لشعره الجيد من البصرة ، وأنه أهل لأن يعرضه على ملوكها وخلفائها ، فانتقل إليها وسنه قد أربت على الثلاثين ، فاتصل ببعض الأمراء من أهل بيت

الخلافة وبعض الرؤساء ، وبلغ خبره الرشيد ، فأذِن له فى مدحهِ فمدحه بقصائد طنانة ، ولم يَرُج شعرُه كثيرا عند البرامكة ، فكان يمدحهم تارة ويهجوهم أخرى حتى انتهت دولتهم .

وسَمِع بكرمِ الخصيب عاملِ مصر للرشيد ، فقصده ومدحه بِعدة قصائد من أبلغ شعره ، وحصَّل مِن جوائزه ومن جوائز أعيانِ أهلِ مصر أكثرَ مِن ثلاثة آلاف دينارٍ أنفق أكثرها فى عامٍ قضاه فى الفسطاط يَتَنَعَّم بها ويطرب . ثم رجع الى بغداد وأقام بها بقية عصرِ الرشيد . ولما ولِىَ الأمينُ الخلافة عكف على مدحه ، وكاد يبلغ فى عصره أمنيَّتَه لولا ما كان يشاع عنه من سوءِ القالة فى تهتكه ومجونه . ولم يعِش أبو نواس بعد موت الأمين إلا قليلا ؛ فاعتل مدة وساءت حاله . ومات فى بيت أحدِ أصدقائه من آل نَوْبخت سنة ١٩٦ هـ والمشهور أنه تاب قبل أن يموت .

شعره وأثره فى الأدب — كان شعر بشارٍ بَرْزَخًا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبى نواس فى فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا مُحْدَثا جامعا لكل ما تصوَّره المحدثون فى الشعر من جدّ وهزلٍ وجزالة وسهولة ؛ فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهرُ مَنْ تَسَمَّتَ طريقتَه فى الجِدّ والهزل والهجاء ، غير أن بشارا كان لا يزال على بقية من الاحتشام والتوقُّر ؛ فلم يهتِف بالخمر فى شعره إلا لِماما ، ولم يعجبه الغزلُ بالمذكر ، ولم يسلك مسلك التأنث فى غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل .

وأبو نواس سلك طريقته فى الهزل والمجون ، وركب رأسه فى الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ، وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا فى جاهلية ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفِه التشبيب والغزل مِن أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر وخلع العِذار فى هذا الغزل

والخمريات حتى أصبح مثلَ سَوْءٍ لمن نشأ فى عصره أو بعده من الخلعاءِ والمُجّان ، حتى رسخ هذا الصِّنفُ من الغزل والخمريات بعد حين فى أغراض الشعر وتَعَمّدهُ مَن لم يقع فى محظوره حتى الصوفية .

ولا يؤخذ من قولنا : إن شعر أبى نواس كان أسوأ قدوةٍ لكثير من نابتة عصره والعصور التى تليه أن الصورة المتكونة من أخباث شعرِه وأرفاثه تُمَثّل حالة المجتمع الإسلامى فى خُلُقِه ومِقدار تَمَسُّكه بشعائر الدين على اختلاف مواطنه ، وخاصّـة العراقَ وبغدادَ ، إذ كان العصرُ الذى يعيش فيه هـذا الشاعرُ الماجنُ فى البصرة والكوفة وبغداد هو عصر النهضة الإسلامية فى التفسير والحديث والفقه والتوحيد واللغة والأدب والتاريخ والمغازى والفلسفة .

وإنما هو يمثل بيئة الفساد فى العراق التى انغمس فيها طبقة المترَفين والفُتّاك والتى لا تخلو منها حاضرة مملكة عظيمة تملكُ ألوفَ الألوف من مختلف الأمم مهما تَصَعَّبَتْ قوانينها فى مطاردتها فى عصرنا هذا ، فكيف ببغداد ، وقد كان فيها مئات الألوف من سلائل سَبْىِ الأمم التى غلبها العرب على أوطانها لفساد أخلاقها ، وانحطاط نفوسها ، وقِلة شعورها بالشرف ، وكان فيها أسـواقٌ نافقة للرقيق من الجوارى والقِيان والغِلمان يباع بتفاوتَ الأثمان ، ويسهل اقتناؤه على السوقة والوضعاء الذين يستغلونه فى وجوه شتى من المكاسب .

وإذا جاز لنا أن نجعل شعر شاعرٍ واحد مِرآة لحال طبقة من الأمة فشعر أبى العتاهية يمثل طبقة أهل الزَّهادة فى الأمة ، وصالح بن عبد القدوس يمثل أهل الجد والتزَمُّت .

ولا يضير الرشيد والأمين فى شرفهما وخُلقِهما إعجابهما بشـعر أبى نواس وفـكاهته ، فكما عطفا عليه بإثابته على جيِّـدِ مدحه لهما شَـدَّدا عليه النكير ، وعاقباه على تهتُّكه فى قوله وعلى شرب الخمرِ عقابا شديدا ، فقد روَى المؤرخون أن

الرشيد سَجَنه فى هجائه مُضَرَ وأطال سجنه ، ثم سجنه مرة أخرى لتصريحه فى شعره بشربه الخمر والحثِّ على شربها . وسجنه الأمين مرة فى شرب الخمر أيضا . حتى تاب عنها وعن ذكر شربها فى شعره وهدده بالقتل إن شربها . ثم سجنه مرة أخرى فى هجاء سليمان بن جعفر عم أبيه مدة طويلة حتى استشفع بوزيره الفضل بن الربيع فأطلقه .

ولم يطل حكم الأمين بعدُ كما لم تطل حياة أبى نواس بعده .

الصحيح والمنحول من شعره — إذا اشتهر عظيم بأمرٍ من الأمور نسب إليه كلُّ ما جُهِل مصدره من هذا الأمر ؛ فمثلا نُسِب إلى حسَّان كلُّ شِعر قيل فى النبوة ومناقضة قريش والأنصار وجُهِل قائله . ونُسِب إلى أبى نواس كلُّ شعر جُهِلَ قائله فى أمورٍ اشتهر بها كالمجون والتهتك والمغالاة فى وصف الخمر وغزل المذكر والطَّرَد (أى صيد الوحش والطير) بل نُسِب إليه كثيرٌ من شعرِ خليعٍ ماجنٍ مثله وهو الحُسَين بن الضَّحّاك وبعضُ شعر والبةَ بن الحباب وكلاهما دون أبى نواس فى الإجادة . وبالعكس أُهْمِلَ تدوين كثيرٍ من شعره الحقيقىّ وخاصة ما كان منه فى الجديات ؛ إما لأنه قاله فى اغترابه فى الشام ومصر ، وإما لموتِ رواته قبل تدوينه أو ضياع الرقاع التى كتِب فيها ، لأنه لم يُدَوِّن ديوانَه بنفسه بل دَوَّنَه غيرُه بعد ثلاثين أو أربعين سنة مِن وفاته فى مجموعات تختلف قِلة وكثرة وصحة وفسادا ، وروى له جامع ديوانه المطبوعِ فى مصر بقايا قصائد له جُهِلت وقِصَصا عن شعر كثير قاله فى مدح البرامكة وغيرهم وباد مع ماباد من آثارهم .

وعلى ذلك يظن أن أكثر الضعيف المنسوب إليه من نوع المنحول ، وأن باقِيَه يكون قد قاله ارتجالا بين قِيان وسُقاةٍ وخلعاء يَسكرون معه لما يشاهد فيه من التأنث والتهالك وحديث النساء .

ومن العجيب أن الخلعاء وتجار الهزل لايزالون يحملون على أبى نواس كل آبدة من الهزل والمجون حتى فى عصرنا الذى نعيش فيه .

وصف شعره من حيث أغراضه ومعانيه وألفاظه — وقد قال أبو نُواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلب عليه :

(١) الغزل الماجن بالمذكر والمؤنث والتفنن فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوةُ بها وذكر سقاتها وندمائها وصبوحِها وغبوقِها ، وتَغَلْغَلَ فى ذلك ماشاء .

(٢) ثم الهجاء وكان منه المقبول الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على المهجو ، ومنه المقذِعُ الفاحشُ الذى سلك فيه مسلك العامة فى تسابِّها ومهاتَرتها ؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجائها حبسه الرشيد ، ثم هجا العرب وأهل باديتها منتسبا إلى كسرى . واستتبع هجوه لِمضر خاصة أن افتخر باليمن ، وهجوه للعرب عامة أن افتخر بالعجم . وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر الشعوبية . وهجا نيل مِصر لأنه رأى فيه تمساحا التقم رجلا .

(٣) ثم الطَّرَدَ ووصفَ الصيد من الوحش والطير وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل . وله فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة .

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسَّب بهما ؛ ولكن مدحه على قلته بالإضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد عارضها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مِثل أبى نواس فى عبثِه وتماجنِه يُفْسِح للزهديات من شعره بابا واسعا اشتمل على مقطَّعات منها ماهو غايةٌ فى الباب ، وكانت جديرة أن تصدر عن أبى العتاهية . والحقُّ أنه لم ينظِم هـذا النوع إلا مكايدة لأبى العتاهية وتفوقا عليه وإظهارا لقدرته على النظم فى أى غرض .

ألفاظه واسلوبه — كان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجدّ والتوقُّر من الوزراء والولاة والقواد يُفَخِّم الألفاظَ ، ويتخيّرها ، ويُجيد رَصْفَها ، ويكثر من الغريب فيها ، ويسلك غالبا مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح .

وكان فى طَرَدِياته أعرابيا فى شَمْلَةَ لا يُصَدِّق مَن يقرؤها أنها صادرة من حضَرِيّ خليع .

والمشهورُ عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم يُنحِي عليها بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا ، فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومَن له عليه دالةٌ راعى أسلوبَ الحضريين فى دَماثته ولِينه ورِقة نسجه. ومَهَّد للمديح بذم الديار والأطلال والنوق والجمال ودعا إلى معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقِّق القول فى المقطعات والخمريات ، ويُسِفُّ إلى أن يقارب العامة فى المجُونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

معانيه — جمع أبو نواس فى شعره خلاصة مِن معانى شعرِ المتقدمين من الجاهليين والإسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الإسلامية العربية وعلومها وآدابها على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجِد والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالِبِ معانيه بشَّارُ ابن بُرْد .

ومن المـأسوف عليه أن أكثر معانيه المبتكرة وتشبيهاته البديعة كانت :

أولا — فى الخمريات — فقد فاق فيها كل من سبقه من أمثال الأعشى والأخطل والوليد بن يزيد فيما نُسِب إليه من الخمريات صِدقا أو كذبا .

ثانيا — فى الغزل بالمذكر — ولا غرابة فى ذلك فعنه وعن شيطانه والبةَ شاع هـذا النوع وذاع ، ومن معانيـه فيه استمـدّ شـعراء المولدين بعـده . على أن له فى الأغراض الجِدّية معانىَ لم يَحُمْ حولها شاعر كما أن له فيها وفى غيرها معانىَ منكرة: إما لِغُلوِّه غُلُوًّا لا يقبـله العقل ولا الدين ، وإما لتسفُّلِه فيهـا إلى درجة الكفـر والإباحة والتهتك .

ونذكر هنا أمثلة مِن جده ، ومن هزله القليلِ الشُّنعة :

فمِن جِدياته ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين :

لقـــد نزلتَ أبا العبـاس مـنزلةً ما إن ترى خلفها الأبصارُ مُطَّرَحا
وَكَلْتَ بالدهرِ عَيْنـا غيرَ غافـلةٍ من جُودِ كفِّك تأسو كلَّ ما جَرَحا

وقال يمدحه أيضا :

قولا لهرونَ إمامِ الهُـدَى عنـدَ احتفالِ المجلس الحاشــدِ
أنت على ما بِكَ مِن قـدرةٍ فلستَ مثـلَ الفضلِ بالواجـدِ
ليسَ على اللهِ بمُسْتَنْكَرٍ أن يجمـعَ العالَمَ فى واحـدِ

وقال فى الموعظة :

ألا كُلُّ حَيٍّ هالكٌ وابنُ هالكٍ وذو حَسَبٍ فى الهالكين عَريقِ
فقُـلْ لمقيمِ الدارِ إنك ظاعنٌ إلى سَـفَرٍ نائِى المحـلِّ سحيـقِ
إذا امتحنَ الدنيا لبيبٌ تَكَشَّفَتْ له عن عدوٍّ فى ثيـابِ صـديقِ

وقال فى معنى الكبير ينشأ عن الصغير ، وفى الجد يتولد من الهزل ، وفى نافع ينجم عنه ضار :

أَيَّةَ نارٍ قَــدَحَ القادحُ وأىَّ جِدٍّ بلغَ المازحُ
لله درُّ الشَّيْبِ من واعظٍ وناصحٍ لو قُبِـلَ الناصحُ
يأبَى الفتى إلا اتباعَ الهوى ومَنْهَجُ الحــقِ له واضحُ

وقوله فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أحرى :

ومُسْتَعْبِدٍ إخــوانَه بثرائه لَبِسْتُ له كِبْرًا أَبَرَّ على الكِبْرِ
إذا ضَمَّنِي يومًا وإياه مَحْفِـلٌ يُرَى جانِبِي وَعْرًا يزيدُ على الوَعْرِ
أُخالِفُـهُ فى شَكْلِـهِ وأُجِرُّهُ على المنطِقِ المَنْزُورِ والنَّظَرِ الشَّزْرِ
وقـد زادنِى تِيهًـا على النـاسِ أَنَّنى أَرانِىَ أَغناهم ، وإن كنتُ ذا فَقْـرِ
فواللهِ لا يُبْـدِى لِسـانِىَ حاجةً إلى أحدٍ حتى أُغَيَّبَ فى القبرِ
فلا يَطْمَعَنْ فى ذاكَ مِنِّى طامِـعٌ ولا صاحبُ التاجِ المُحَجَّبِ فى القَصْرِ
فلو لم أرِثْ فخراً لـكانت صِيانتِى عن الناس حَسْبِى مِن سُؤالى مِن الفخرِ

وكان قوله : (فلا يطمعن — البيت) سببا فى غضب الأمين عليه .

ومن هزلياته قوله فى الخمريات :

دَعْ عنك لومى فإنَّ اللومَ إغراءُ وداونى بالتى كانت هى الداءُ
صفراء لا تنزلُ الأحزانُ ساحتَهـا إن مَسَّها حَجَــرٌ مَسَّتْهُ سَرَّاءُ

وقوله :

فَتَمَشَّتْ فى مفاصِلِهم كَتَمَشِّى البرءِ فى السَّقَمِ
فَعَلَتْ فى اللُّبِ إذ مُزِجَتْ مِثلَ فعلِ النـارِ فى الظُّلَمِ

وقوله فى وصف سِكير :

ومُستطيلٍ على الصهباء باكرَها فى فِتْيَةٍ باصطباحِ الراحِ حُذَّاقِ
فـكلُّ كَفٍّ رآهُ ظَنَّـهُ قَدَحًا وكُلُّ شخصٍ رآهُ قال ذا سـاقِ

أبو العتاهية

هو أبو إسحاق اسماعيل بن القاسم المشهور بأبي العتاهية . وآباؤه من موالي عَنَزَة إحدى قبائل ربيعة ، وكانوا باعة جِرار بالكوفة فنشأ بينهم أبو العتاهية ، واحترف بصناعتهم زمنا ، ثم ربأ بنفسه عن صِناعتهم ، وطلب العلم والأدب ، وكان قد خُلِق مطبوعا على الشعر ، فنظمه فى معانى الخاصّة والعامّة بلفظ سهل وأسلوب لين مفهوم لِكل الطبقات ، حتى لَيُخَيَّلُ لِقارئه من سهولته أنه نثر عادىّ غير أنه موزون . وكان فى صغره ينظمه فى الخلاعة والغَزَل ، ثم ترقّى إلى مدح الخلفاء . وخف شعره على المهدى وأهل القصر ، فأحب منهم فتاة مملوكة تدعى عُتْبة وشبّب بها عامةَ شبابه ، وطَمِعَ أن الخليفة يهبها له فزجره وعاقبه ؛ فلما يئس منها زهد فى الدنيا ورغّب الناس فى الزهد حتى اشتهر بالزهديات والوعظ . وكان عصره فى حاجة إلى مثله لشيوع الخلاعة والتمتع بين طبقات الموالى وكتّاب الدولة وبعض الشعراء . ومدح بعد المهدى ولده الرشيد .

وكان مع زهده بخيلا على نفسه وأهله وخدمه جَمّاعا للمال ومات سنة ٢١١ هـ ببغداد .

وأكثر شعره فى عُتْبَة بادَ وانقرض ، وبقى له ديوان شعر فى الوعظ والزهديات مطبوع مشهور .

ومن قوله فى عتبة :

عينى على عُتْبَةَ منهلةٌ   بِدَمْعِها المنسكِبِ السائِلِ
يا من رأى قبلِى قتيلاً بكى   مِن شدةِ الوَجْدِ على القاتل
بسطتُ كفّى نحوَكم سائلا   ماذا تردّون على السائل
إن لم تنيلوه فقولوا له   قولا جميلا بدَلَ النائل
أو كنتُم العامَ على عُسرة   منه فمَنّوه إلى قابل

ومن مدحه للمهدى :

أتتـه الخلافةُ منقـادة   إليـه تجرِّرُ أذيالهـا
فـلم تكُ تصلُحُ إلا له   ولم يك يصلُحُ إلا لها
ولو رامَها أحدٌ قبـله   لزلزلتِ الأرض زِلزالها
ولو لم تطعه بناتُ القلو   ب ما قبِلَ اللهُ أعمالها
و إن الخليفة مِن قول لا   إليه ليُبْغِضُ مَن قالها

وكتب بديها على ظهر كتاب :

ألا إننـا كُلُّنـا بائد   وأىُّ بنى آدمٍ خالـدُ
و بدؤهمُ كان من ربهمْ   وكُلٌّ إلى ربه عائـد
فيا عجبا كيف يُعْصىَ الإلـهُ أم كيف يجحَده الجاحد
ولِلهِ فى كل تحريكةٍ   وفى كل تسكينةٍ شاهد
وفى كل شىء له آيـةٌ   تَدُلُّ على أنه واحـد

ومن أرجوزته التى قيل إنها تبلغ أربعة آلاف بيت فى الأمثال والحكم قوله :

حسبك مما تبتغيـه القوتُ   ما أكثر القوتَ لِمَنْ يموت
هى المقادير فدعنى أو فَذَرْ   إن كنتُ أخطأتُ فما أخطأ القدر
إن الشبابَ والفراغَ والجِدَه   مَفْسَدَةٌ للمـرء أىُّ مَفْسَدَه

البحترى

هو أبو عُبَادةُ الوليدُ بن عُبَيْد الطائىُّ البُحْتُرِىُّ :

وبُحْتُرٌ بَطْنٌ من طيِّئ كانوا ينزِلون بناحية مَنْبِج بين حَلَب والفُرات ، وهى بلاد أشبه بالبادية وإن لم تخل مِن خِصْب ، فهو بَدَوِىٌّ فى نشأته حضرىٌّ فى ثَقافته ، إلا أنه لم يخالِط ذوقَه الأدبىَّ تغلغلُ الفلاسفة وتَعَمُّقُ أهل النظر والاستدلال ، فكان شعره سهلا مطبوعا صقيل اللفظ سلِس الأسلوب سريع الأخذ بلب سامعه ، فهو أشهر من استحق لقب شاعر بعد أبى نواس على الإطلاق ، ولم يأتِ بعده من شعراء اللغة العربية مَن يدانِيه فى حُسْن نَسْج العبارة وجمال الأسلوب إلى وقتنا هذا .

واستفاد البُحْتُرِىُّ من صُحبة أبى تمام فى تصوير الخيال الجميل ، وفى حسن استعمال أنواع البديع حسنا فاق أستاذه فيه .

وتَكَسَّبَ البحترىُّ بالشعر فقَصَدَ سُرَّ مَنْ رَأَى ، ومدح خلفاءها وأمراءها وأخَصُّهم المتوكلُ ، وخفَّ على قلبه ، حتى كان ينادمه فى مجالس أنسه على قذارته وقبح إنشاده ، إلا أن فصاحته غَطَّت على معايبه . وقتل المتوكلُ وهو حاضر مجلسه ففرّ . ثم مدح خلفاء بغداد ورؤساء الدولة إلى أن مات سنة ٢٤٨ هـ .

وأهم ما اشتهر به البحترى من الأغراض النسيب والمدح والوصف .

ومن شعره فى الغزل قوله :

حبيبى حبيبٌ يكتمُ الناسَ أنَّه ... لنا — حين تلقانا العيونُ — حبيبُ
يُباعِدنى فى الملتقى وفؤادُه ... — وإن هو أبدى لى البعادَ — قريب
ويعرِضُ عنى ، والهوى منه مُقْبِلٌ ... إذا خاف عَيْنًا أو أشارَ رقيب
فتنطِقُ مِنّا أعْيُنٌ حين نلتقى ... وتخرس منا أَلْسُنٌ وقلوب

وقال فى المدح :

دَنَوْتَ تواضُعًا وَعَلَوْتَ مجْــدًا فشأناك انحــدارٌ وارتفــاعُ
كذاك الشمسُ تَبْعد أن تُسامى ويدنو الضوءُ منها والشــعاع

وقوله فى الحكمة :

إذا ما نسبتَ الحـادثات وجدتَها بناتِ زمانٍ أرصدت لبنيــه
متى أرت الدنيـا نباهةَ خاملٍ فلا ترتقبْ إلا خُمُولَ نبيــه

ابن الرومى

هو أبو الحسن على بن العباس بن جُرَيج الرومىّ مولَى بنى العباس كان جدّه جريجُ مولىً لعبيد الله بن عيسى بن جعفر بن الخليفة المنصور .

ووُلِد حفيدُه الشاعرُ المتحدَّثُ عنه ببغداد سنة ٢٢١ ﻫ وبها نشأ وتعلم ، فخرج شاعرا كثير القولِ طويل القصائد بديع المعانى كثير الاختراع والتوليد فيها حسنَ الأوصاف والتشبيه لَذَّاع الهجاء قَلَّ من سَلِم من أهل زمانه من عَقْر لِسانه ، ولولا أنه أغفل تهذيب شعرِه بجمع بين الغث والسمين ولم يسقط رديئه وأنه كان مضطرب الرأى فى الحكم على الناس والزمان مفرطا فى التشاؤم من كل شىء أكثر حياته لكان منقطع النظير فى شعراء العربية . وكفاه فخرا أن المتنبى أحد رواة شعره وجامعيه .

ومات ببغداد سنة ٢٨٣ ﻫ قيل مات مسموما سمه وزير المعتضد القاسم بن عُبيْد الله فى خُشْكَنانة (بالكويت) .

ومن شعره قوله فى المدح :

المنعِمون وما منُّوا على أحد ... يومَ العطاء ولو مَنُّوا لمَا مانوا
كم ضَنَّ بالمال أقوامٌ وعندهمُ ... وَفْرٌ . وأعطى العطايا وهو يدّانُ

وقوله فى بغداد ، وقد غاب عنها فى بعض أسفاره :

بلدٌ صَحِبْتُ به الشبيبةَ والصِّبا ... ولبِستُ ثوبَ العيشِ وهو جديدُ
فإذا تمثَّل فى الضمير رأيتُه ... وعليه أغصانُ الشبابِ تَميدُ

وقوله يصف صانع رقاق :

ما أنسَ لا أنسَ خبّازاً مررتُ به ... يدحو الرُّقاقة مثل اللمح بالبصرِ
ما بين رؤيتها فى كفه كُرةً ... وبين رؤيتها قوراء كالقمرِ
إلا بمقدار ما تنداح دائرةٌ ... فى لجة الماء يُلقى فيه بالحجرِ

وقوله فى هجاء بعض الرؤساء وقد سأله حاجة فقضاها له وكان لا يتوقع منه خير :

سألتك فى أمرٍ ، فجُدتَ ببذله ... على أننى ما خلتُ أنك تفعلُ
وألزمتنى بالبذل شكراً ، وإنه ... علىّ من الحرمان أدهى وأعضلُ
وما خلتُ أنّ الدهرَ يثنى بصرفه ... إلى أن أرى فى الناس مثلك يُسألُ
لئن سرّنى ما نلتُ منك فإنه ... لقد ساءنى أن كنتَ ممن يُؤمّلُ

وقوله :

وإذا امرؤٌ مدح امرأً لنواله ... وأطال فيه فقد أطال هجاءه
لو لم يُقدّر فيه بُعدَ المُستقى ... عند الورود لما أطال رشاءه

ابن المعتز

هو أبو العباس عبدُ الله ابن أمير المؤمنين المعتزّ بالله .

وُلِد سنة ٢٤٧ ﻫ ونشأ بسُرَّ مَنْ رأى و بغداد ، وقرأ النحو على المبرّد مِن البصريين وثعلب من الكوفيين ، وقرأ الأدب وعلوم الأوائل على مُؤدِّبه أحمد ابنِ سعيدِ الدمشق ؛ فخرج أديبا شاعرا بليغا مؤلفا معدودا من كبار علماء اللغة والأدب والتاريخ ، ولذلك خاف أصحاب السلطة فى الدولة من الترك والكتّاب والوزراء أن يُوَلُّوه الخلافة فيَكُفَّ أيديَهم عن الخيانة والفساد ، وَوَلَّوْا المقتَدِرَ صبيا خاضِعا لأمرِ نساء القصر ؛ فاضطربتِ أمور الدولة ، وثارت الفتن ؛ فَأَلَّفَ محمد بن داود بنِ الجراح حِزْبا من العلماء والفضلاء وخَلَعوا المقتدر ، وَوَلَّوْا ابن المعتزّ الخلافة . وبعد يومٍ وليلة ثار غِلمان قصرِ المقتدر ومشايعوه وصدقوا حملتهم على أشياع ابن المعتز ، فانهزموا . وقبضوا على ابن المعتز فخنقوه ودفن فى خَرِبة بإزاء داره سنة ٢٩٦ ﻫ .

و يمتاز شِعر ابن المعتز بالرِقَّة والسهولة وجَوْدة استعمال المحسِّنات البديعية وحسن التشبيه والاستعارة وغلبة الأوصاف عليه ، وبخاصة وصفُ القصور والبساتين ومجالس الأنس والصيد والوحش والطير والهلال وكواكب السماء .

ومن ذلك قوله فى وصف الهلال :

وانظر إليه كزورقٍ من فضَّةٍ ⁂ قد أثقلته حُمولة من عَنْبَرِ

ومن حسن ابتداءاته قوله :

أخذتْ من شبابىَ الأيامُ ⁂ وتَوَلَّى الصِّبا عليه السلامُ
وارْعَوى باطلى فبانَ حديثُ النـ ⁂ ـفسِ مِنى ، وعفَّتِ الأحلامُ

وقوله فى الغزل :

مَنْ لى بقلبٍ صِيغَ من صَخْرة ... فى جَسَدٍ من لؤلؤٍ رَطْبِ

جَرَحْتُ خدَّيْهِ بِلَحْظِى فما ... بَرِحْتُ حتى اقْتَص مِنْ قَلْبى

ولابن المعتز كثير من المؤلفات البارعة فى الشعر والأدب والأخبار والصيد والغناء .

الكتابة

لا نقصد بالكتابة التى يُراد بها مُجَرَّدُ التفاهم ؛ بل الكتابة الفنية التى يُزادُ على أصل الغرض منها التأنق فيها وإخراجها فى صورةٍ كلاميةٍ بديعةٍ أو محكمةٍ تحدِث فى النفس ارتياحا لها أو إعجابا بها . وهذه قسمان :

كتابة أدبية — وتشمل الرسائل السلطانية التى كانت تصدر من ديوان الرسائل للدولة، والرسائل الإخوانية التى كان يكتب بها بعض الأصدقاء إلى بعض فى تهنئة أو تعزية أو شفاعة الخ ، والرسائل الأدبيـة المطوّلة التى كان يكتبها البلغاء فى شأن من شـؤون الدولة أو شؤون الرَّعيّة : بنصيحة ، أو إرشـاد ، أو تأييد مذهب ، أو تفضـيل فريق على فريق ، أو فى بعض الـترويح عن النفس : كالقصص والمقامات والسير والأخبار والأسمار والخرافات ، وذلك كما فى رسائل الخميس التى كان يكتبها بلغاء الدولة، وتقرأ فى خراسان لتأييد الدعوة العباسية والحث على طاعة الخليفة، وكرسائل الأدب الصغير والكبير. ورسالة الصحابة لابن المقفع، وكرسائل الجاحظ وكتبه الأدبية الكبيرة من أمثال كتاب البخلاء والحيوان الخ .

كتابة علمية — وهى الكتابة التى تكتب بأسلوب علمى خاص بالعـلم الذى يؤدى بهـا حافلة باصطلاحات هـذا العلم ، مُراعًى فيها الترتيبُ العقلىُّ والقيـاسُ المنطقىُّ وتحرير العبارة من الحشو والفضول ووضعها بطريقة تناسب : إما المبتدئين وإما المنتهين . وهى المسماة بالكتابة التأليفية أو كتابة التصنيف والتدوين .

وهَمُّ مؤرِّخ الأدب البحثُ فى خصائص الكتابة الأدبية الفنية لا العلمية، لأن الأدبيـة هى مظهر من مظاهر الجمـال ومُتْعَة من مُتَع النفس ، وإنمـا تذكر

فى تاريخ الأدب الكتابة العلمية ونشأة العلوم باعتبارها مصدر الثقافةِ العامّةِ التى تتمثل فيها حياة الأمة العقلية ، فيكون الأدب مرآة لهذه الحياة ولسانا معبرا عن مبلغ تأثير هذه الحياة فى نفوس الخاصّةِ والأدباء من الأمة .

وإليك وصفا مجملا لأحوال الكتابة الأدبية فى العصر العباسىّ الأول نُتْبِعُه بوصفٍ مجملٍ أيضا للكتابة العلمية ونشأة العلوم فى هذا العصر :

الكتابة الفنية الأدبية أو كتابة الترسل — كانت الكتابة الفنية الأدبية فى أواخر الدولة الأموية قد أوشكت أن تصير فى دواوين الدولة صناعة عتيدة وعند الأدباء رغيبة محبوبة ، بما أدخله عليها سالم وعبد الحميد وحَلْبَتُهُمَا التى أدرك كثير منها الدولة العباسية : من وسائل التنسيق والتنميق التى هيأتها أن تصير فى صدر الدولة العباسية صناعة من أشرف الصناعات الأدبية ، وصار لها من ذلك الحين فحول ونوابغ نهضوا بها إلى مستوى يُوائمُ عَظَمَةَ هذه الدولة فى العلم والأدب والسياسة والحضارة ، وبَذُّوا فحولَ الشعر ونوابغَه فى عُظْم الجاه والرِياسة وافتراع مناصب الدولة ؛ إذ كانت الكتابة جامعة لكلتا الحسنيين : الأولى قيامها بحاجة الحضارة والشؤون الديوانية ، والثانية كونها مظهرا من مظاهر الكمال والجمال للغة العربية . وإنما يقوم الشعر بثانيتهما دون أولاهما .

ولبلوغ الكتابة هذه المنزلة مِن القوة فى هذا العصر أسباب :

(١) منها إقبال كثير من العرب والمستعربين على استظهار القرآنِ والاستعانة بحل نظم آياته فى تدبيج كلامهم، والاقتباس منه، والاهتداء بمعانيه وأسلوبه وأمثاله وتشبيهاته .

(٢) ومنها استظهارُهم كثيراً من الحديث النبوىّ وخُطَب النبىّ والخلفاء الراشدين وولاتهم وقواد جيوشهم الفاتحين ورسلهم إلى ملوك العَدُوّ أو ولاته أو قواد جيوشه، وخُطَب خلفاء بنى أمية وولاتهم من أمثال زياد والحجاج والمهلب وأولاده

ومسلم بن قتيبة وخالد القسرى ، وخطباء الأمصار والقبائل والخوارج من مثل سحبان وابن القِرِّيَّة وعمرو بن الأهتم وخالد بن صفوان وعقال بن شَبَّة وقَطَرى بن الفجاءة وأبى حمزة الخارجى الإباضى وأضرابهم من فحول الخطباء والبلغاء مما مُلِئَتْ به كتب الفتوح والمغازى والسير والتاريخ ، ويُصَدِّق ذلك أنه قيل مرة لعبد الحميد : ما الذى مكنك من البلاغة ؟ قال : " حفظ كلام الأصلع " يريد به أمير المؤمنين على بن أبى طالب .

(٣) ومنها استظهار كتبِ النبي وخلفاء بنى أمية وولاتهم فى معاهداتهم ومشارطاتهم وعهودِ توليتهم الولاة وأمراء الجيوش الجامعةِ لكثير من الوصايا البليغة والأحكام السياسية والشرعية .

(٤) ومنها رُقِيُّ الثقافةِ العامّة عند العرب والمستعربين بمدارستهم آداب الإسلام الممثلة فى القرءان والسنة والخُطَب والكُتُب الآنفة الذكر ، وبمدارستهم الثقافات الأدبية والعلمية المنقولة عن الأمم العريقة فى الحضارة والمدنية ووضع العلوم والنظم السياسية والإدارية كالفرس والهنود والروم وقدماء اليونان والكلدان ، حتى تكونت فى نفوس الأمة ثقافة ممتزجة مؤلفة من حضارات أمم شتى سُمِّيتْ بعدُ بالثقافة الإسلامية ، إذ كانت لا تُمَثِّل أُمَّةً دون أخرى ، وكانت مُتَمَلِّئةً بالروح الإسلامىّ فى كل مظاهرها .

وقد تَجلَّت صورتها فى الكتب البليغة التى صدرت عن خلفاء الدولة ووزرائها ورؤساء دواوين رسائلها وعن كبار الأدباء والمؤرخين فى هذا العصر .

ويمكننا أن نعرف مبلغ هذه الكتابة من القوة بمعرفة بعض موضوعاتها المتنوعة وما تميزت به من محاسن الصناعات الكلامية :

موضوعاتها — خاضت الكتابة الفنية الأدبية فى هـذا العصر موضوعات شتى منهـا :

(١) الأعمال الديوانية من مثل كُتُب البَيْعات للخلفاء وأولياءِ العهد وعهود الولاة والقضاء والمنشورات السياسية والدينية .

(٢) تأييد بعض المذاهب السياسية والدينية أو تأييد سياسة الدولة .

(٣) الحث على التمسك بالآداب الشريفة والأخلاق الفاضلة .

(٤) تفضيل طائفة من الناس على طائفة .

(٥) القصص والسمر والحكاية على ألسنة الحيوان ونحو ذلك مما كتب فيه رسائل بليغة مطولة أو كتب حافلة .

(٦) التوصية والنصيحة من أستاذٍ صناعة لأربابها ، أو أصحاب نِحْلةٍ لمنتحلها ، أو من أب لابنه ، كما فى رسالتى سهل بن هرون والكندى فى البخل ووصية طاهر بن الحسين لعبد الله ابنه .

ومن مميزات هذه الكتابة فى اللفظ والأسلوب والمعانى :

(١) اختراع المقدمات فى أوائل الرسائل المطوّلة و بعض العهود والمنشورات مما لا يزال أثره باقيا إلى الآن .

(٢) تنوع عبارات البدء للرسائل ، فمن تحميدات متعددة لله تعالى فى الرسائل السلطانية المطوّلة ، ومن محاكاة لكتب النبي صلى الله عليه وسلم فى الرسائل الصغيرة من مثل : "من عبد الله فلان أمير المؤمنين إلى فلان ومن قبله من المسلمين سلام عليك أما بعد فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو وأن الأمر كذا وكذا" .

وزاد الرشيد بعد الحمد الصلاة على النبي ؛ وزاد الأمين تكنية الخليفة . ومن الابتداء (بأما بعد) فقط أو مع الدعاء للمكتوب إليه أو بلفظ (كتابى إليك) وغير ذلك .

(٣) سهولة العبارة وانتقاء ألفاظها وجودة رصفها .

(٤) الغلو فى طرفى الإيجاز والإطناب على حسب مقتضى المقامات .

(٥) دقة المعانى واستخدام العلم والفلسفة والمنطق فى استخراج البرهانات والنتائج والأحكام فى سبيل الإقناع .

وجملة القول أن الكتابة الأدبية بلغت فى هذا العصر غاية لم تُسْعِدها المقادير بعدُ أن تتعداها . نسأل الله لها كَرَّةً تُعِيدُ بها مجدها وتبلغ غايتها .

(راجع أمثلة كل أنواع الكتابة فى المنتخب بجزأيه)

وإليك تعريفات ببعض أشهر كتاب هذا العصر فمنهم :

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عَمْرو بن مَسْعَدَة بن سعيد بن صُولٍ أبلغ كُتَّابِ الإيجاز .

وهو ابن عَمِّ إبراهيم بن العباس الصُّولِىّ الآتى ذكره بعد . وجَدُّهما صُولُ تركىّ مِن أشراف جُرجان أسْلَم على يدِ يزيد بن المهلب بن أبى صُفْرة فى أثناء فتوحه بخراسان ، وخدم أحفاده فى دواوين الدولة العباسية ؛ فكان عَمْرو هذا كاتب التوقيعات بين يدى الوزير جعفرٍ البرمكىّ وزيرِ الرشيد ؛ وظهرت له نجابته وهو صغير ، قال عن نفسه : كنت أُوَقِّعُ بين يدَىْ جعفر ، فَرَفع إليه غلمانُهُ وَرَقَةً يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها إلىّ وقال : "أجب عنها" . فكتبت "قليل دائم خيرٌ مِن كثيرٍ منقطع" فضرب بيده على ظهرى وقال : "أىُّ وزيرٍ فى جِلدك !"

وصَدَّقَت الأيامُ فيه ظَنَّ جعفر فصار بعدُ أَحَدَ وُزراء المأمون الثقات عنده ، وكان يعجبه بلاغته فى إيجازه .

وتوفى فى غزوة من الغزوات التى غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة أَذَنَة (هى المسماة عند سكانها الآن — أطنة) سنة ٢١٥ هـ .

ومن رسائله الموجزة ما كتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص :

" كتابى إليك كتاب واثق بمن كتب إليه ، مَعْنىّ بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية مُوَصِّله " .

وكتب مرة وهو على رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره :

" كتابى إلى أمير المؤمنين ومَنْ قِبَلِى من قواده وسائر أجناده فى الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك احوالهم " فأعجب المأمون ببلاغته و إيجازه وأمر للجند قِبَلَه بعطائهم لسبعة أشهر .

إبراهيم الصولى

هو إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول أشهر كتّاب العراق فى زمنه . وهو ابن عم عمرو بن مسعدة المتقدم ذكره .

واشتهر من بنى صُول بعدهما أبو بكر بن يحيى الصولىّ الشّطرنجىّ أبرع لاعبى الشِّطْرَنج فى زمنه وأحد كبار الأدباء والمؤلفين وله كتاب الوزراء وغيره من المصنفات .

وكان إبراهيم هذا شاعرا يتكسب بالشعر فى أول أمره ويقصد الرؤساء ، وكان يتشيع لآل على بن أبى طالب .

فلما بويع المأمون بالخلافة فى خراسان ، وعهِد بها مِن بعده إلى علىّ بن موسى الرضا العلوىّ رحلَ إليه إبراهيم بقصيدة يمدحه بها فأجازه ، واتصل هناك بذى الرياستين الفضل بن سهل فجعله من كتّاب الدواوين فى الدولة ، وبَقِىَ فى خدمتها حتى كان زمن الواثق عاملا على الأهواز ، فاتهمه وزير الواثق محمد بن عبد الملك الزيات بخيانة وحَبَسَه . وكان ابن الزيات صديقا له من قبل فكتب إليه كتبا وقصائد ومُقَطّعات يستعطفه بها فلم تُجْدِ شيئا إلى أن بلغ الواثقَ أمْرُه فكَفَّ يَدَه عنه ، وعاد إلى خدمة الدولة . وكان زمن المتوكل رئيسا لديوان الضياع والنفقات .

وكان إبراهيم كاتبا بليغا لا يستملى معانيه البديعة إلا من فكره وقريحته ، وقلما اقتبس معنى بديعا من غيره . وكان له قدرة على أن يكتب فى كل الأغراض وفى الإيجاز والإطناب والتوسط .

ومن رسائله الموجزة كتابُ وصاةٍ بإنسان وهو :

” فلان ممن يزكُو شكرُه ، ويحسنُ ذكرُه ، ويُعْنَى بأمرِه ، والصنيعة عنده واقعة موقعها ، وسالكة طريقها .

وأفضل ما يأتيه ذو الدِين والحجا إصابةُ شكرٍ لم يَضِعْ مَعَهُ أجْرُ “

ولما قرأ إبراهيم على المتوكل رسالته إلى أهل حمص الخارجين عليه والداعين إلى العصبية وهى :

”أما بعد فإنّ أمير المؤمنين يرى من حَقّ الله عليه فيما قَوَّمَ به من أَوَدٍ ، وعَدَّلَ به مِن زَيْغٍ ، ولَمَّ به من منتشر ، استعمالَ ثلاثٍ يُقَدِّمُ بعضَهن على بعض : أولاهن ما يتقدم به من تنبيهٍ وتوقيف ، ثم ما يَسْتَظْهِرُ به فى تحذيرٍ وتخويف ، ثم التى لا يَقَعُ بِحَسْمِ الداءِ غيرُها :

أناةٌ فإن لم تُغْنِ عَقَّبَ بَعْدَها وَعِيدًا فإنْ لم يُغْنِ أَغْنَتْ عزائمُهْ“

عَجِبَ المتوكل من حُسْنِ ذلك ، فأَوْمَأَ إلى عُبَيْدِ الله بن يحيى بن خاقان : ”أما تسمعُ ؟“ فقال : ”يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلةٌ خبأها الله لك ، وذخيرة ذخرها على دولتك“ .

ولإبراهيم ديوانُ شعرٍ لطيف أكثره مُقَطَّعات .

التأليف والمؤلفون

التأليف فى العلوم الدينية :

قد عَرَفْتَ فيما تقدم أنه لم يُدَوَّنْ فى عصر بنى أمية من العلوم على وجه الصحة واليقين إلا النحو فى رسائل صغيرة ، وإلا الحديث فى الكتاب الذى أذن عمر بن عبد العزيز لبعض مُحَدِّثى زمانه فى جمعه ، وإلا ترجمة كُنَّاش أهرون فى الطب . وما يُنسب إلى الصحابة والتابعين من الكتب فى التفسير وعلوم القرءان فليس إلا مجموع رواياتٍ منقولةٍ عنهم صحيحة أو ضعيفة ، جَمَعَها ودَوَّنها بعضُ علماءِ الدولة العباسية ، وسَمَّوْا كتبها باسم الصحابى أو التابعى الذى رُوِيتْ عنه هذه الروايات كتفسير ابن عباس المطبوع بمصر المروى عنه من طُرُقٍ ضعيفة . وليس معنى ذلك أنه لم يكن فى عصر بنى أمية علماء وأئمة فى الدين فى مكنتهم تأليفُ الكتب الجامعة ، ولكنهم كانوا يحجمون عن التأليف لأنه لم يؤثر عن النبيّ صلى الله عليه وسلم وأصحابه أمرٌ صريحٌ صحيحٌ بتدوين كتبٍ فى الدين غير القرءان ، فكانوا يَرَوْنَ التأليفَ بدعةً فى الإسلام ، فاكتفوا بالرواية والحفظ فى الصدور تحرجًا وتأثمًا من أن ينشروا شيئا لا يعلمون عِلْمَ اليقين مبلَغ صحته .

الفقه — وجاءت الدولة العباسية وقد فَنِيَ كُلُّ الصحابة وجمهور التابعين ، وفيهم حَمَلةُ الدين ورُواتُه ، فمات معهم علمهم ورِوايتُهم . وخَلَفَ مِن بَعْدِهم خَلَفٌ مؤلَّفٌ من علماء أخلصوا دينهم لله ، ومنافقين استغلوا تسامُحَ العباسيين مع الأمم الأعجمية ، فأخذوا يكيدون للإسلام سِرا وجهرا بوضع كثيرٍ من الأحاديث المكذوبة فى التفسير وأصول الدين ، فخشىَ أئمةُ الأُمّة وعلى رأسهم الخليفةُ أبو جعفر المنصور أن يغلِب كذبُ المنافقين على صِدْق

المخلصين ، فحجّ المنصور سنة ١٤٣ هـ وكلف الإمام مالك بن أنس إمامَ اهلِ المدينة جمع كتاب جامع للأحاديث التي صحت عنده في الفِقه وأصول الدين ؛ فألف كتابه الموطّأ ، فكان ثاني كتابٍ أُلِّفَ في الحديث الصحيح والفقه بعد الكتاب الذي أمر عمر بن عبد العزيز بنشره . ولكن الموطأ شاع وذاع ورضيته الأُمّةُ ، فكان أساسا لكتب الفقه التي أُلِّفَتْ بَعْدَه . وبقِيَ إلى وقتنا هذا . وطُبِع مِرارا . فهو أقدم كتابٍ في الدِين معروفٍ للمسلمين .

ومالك هذا هو إمام دار الهجرة . مالك بن أنس الِحميرىّ الأَصبحى . وُلِد سنة ٩٥ هـ بالمدينة ونشأ بها وأدرك خيار التابعين فأخذ عنهم حتى صار حجة من حجج الله في أرضه ، وانتشر مذهبه في بقاع الأرض وخاصّةً المغربَ والأندلسَ وصعيدَ مصر وتُوفى سنة ١٧٩ هـ بالمدينة .

واشتهر قبله بقليل من أئمةِ الفقه الإمام الأعظم أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ولم يؤثر عنه على الصحيح كتاب في الفِقه ، وإنما روَى عنه مَذْهَبَه أصحابُه ، وأخصهم أبو يوسف يعقوب الشيباني قاضي القضاة ببغداد وأول من لُقِّبَ بهذا اللقب ، ومحمد بن الحسن ، وقد أَلَّفَا بعده . ويروى عن محمد كتاب المبسوط أصل كُتُب الحنفية ، وانتشر مذهب أبي حنيفة في العراق وفارس وخراسان وبلاد الترك والهند والصين وبعض بلاد الشام ومصر وتوفى سنة ١٥٠ هـ .

ومن تلاميذ مالك في الفقه عالم قريش أبو عبد الله محمد بن ادريس الشافعىّ وُلد بمدينة غَزَّة من أرض فلسطين سنة ١٥٠ هـ وحمل إلى مكة صغيرا ، ونشأ بها ، وأقبل على تعلم العربية والشعر والأدب ، ثم انصرف إلى الفقه فرحل إلى مالك بالمدينة ودرس عليه كتابه الموطأ ، ثم رحل إلى اليمن وتولى بعض أعمال للدولة ؛ فاتُّهِم بممالأته لِلْعَلَوِيين ، فحُمِلَ إلى العراق زمن الرشيد فَشُفِعَ فيه . ونقل كثيرا من علم أهل العراق وطريقتهم في القياس ، وكَوَّن مذهبه في الفقه ،

ودخل الشام ومصر وبها مات سنة ٢٠٤ هـ وانتشر مذهبه فى بعض مدن العراق والشام والحجاز واليمن وجزائر المحيط الهندى ومصر وغيرها .

وأخذ عنه أحمد بن حنبل الشيبانى من أكبر أئمة الحديث ببغداد . ووُلِدَ بها سنة ١٦٤ هـ وطلب الحديث فى أكثر البلاد الإسلامية حتى جمع فى كتابه المسند الذى يعتبر أصلا من أصول الإسلام أكثر من أربعين ألف حديث . ثم كوّن له مذهبا فى الفقه استمدّه من فقه الشافعى وغيره ومن نصوص الحديث وشابه شىء قليل من الرأى والقياس . وكان عامّة أصحابه هم جمهور المحدثين والمقتفين أثر السلف والمناهضين لأهل البدع والإلحاد والمتفلسفة ببغداد ، ودخل فى مذهبهم عامة أهل بغداد فتشددوا على المُجّان والفُسّاق وآذوهم إيذاءً كبيرا ، وتَنَطَّعَ كثيرٌ من عامتهم فى ذلك ، حتى ضُرِب المَثَلُ بالحنابلة فى التشدد فى الدين .

وتوفى أحمد سنة ٢٤١ هـ ببغداد وانتشر مذهبه ببغداد والعراق والبصرة ونجد .

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم الذين دخل فى مذهبهم أكثر أهل الأرض من المسلمين . وثمة مذاهب أخرى لبعض الأئمة المجتهدين من أهل السنة والشيعة والخوارج يتبعها كثير من المسلمين فى بقاع الأرض .

ولم يُعْنَ المسلمون بِعِلْمٍ عنايَتَهم بالفقه والحديث، ولم تَقِلّ العنايةُ بهما فى أىّ عصر حتى عصرنا هذا الذى كادت تنقرض فيه روايةُ الحديث من بعض الأمصار .

الحديث — واقتدى بالأئمة الذين كَلَّفَهُم المنصور التأليفَ فى علوم الدين غيرُهم من أهل الحديث ، فألفوا فيه عدّة كتب ميزوا فيها الصحيح من المصنوع . وأشهرهم إمامُ المحدّثين اسحق بن رَاهُوَيْهِ أوّلُ من جرّدَ كُتُبَ الحديث من مسائل الفقه والتفسير وكانت قبل ممتزجة وتوفى سنة ٢٣٨ هـ .

واشتهر بعده تلميذه شيخ الحديث وإمام السنة محمد بن إسماعيل البخاري فوضع بإشارة منه كتابه الجامع جمع فيه الأحاديث الصحاح فقط ، وكانت الأحاديث قبل تجمع مختلطا صحيحها بضعيفها منبها على مرتبة كل منها . وهو من أصل فارسي ولد ببخارى سنة ١٩٤ ﻫ ونشأ بها يتيما فحفظ القرءان وشدا العربية وهو صبي وحبب إليه سماع الحديث وهو فى المكتب . وكان نادرة فى الحفظ والنقد ؛ فطلب الحديث من آفاق الأرض ؛ وحج وزار المدينة وصنف كتابه فى تاريخ رجال الحديث بها . ثم لما نضج علمه ألف كتابه الجامع جمع فيه تسعة آلاف حديث مكرر بعضها بتكرر وجوهها ، فأجمع علماء السنة أنه لم يكن فيها أصح منه . ثم رجع إلى بلاده فمات بقرية يقال لها (خرتنك) على ثلاثة فراسخ من سمرقند سنة ٢٥٦ ﻫ .

ومن تلاميذه الإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري أحد الشيخين وصاحب ثاني الصحيحين ، ولد سنة ٢٠٦ ﻫ وأخذ عن البخاري وغيره من علماء الآفاق وجمع صحيحه المشهور الذي يعتبر ثاني كتب السنة فى الصحة . وتوفى بنيسابور سنة ٢٦١ ﻫ .

واشتهر بعد الشيخين البخاري ومسلم أربعة من الأئمة ألفوا كتبا فى الحديث تلى الصحيحين فى الصحة والاشتهار وهم :

الإمام الترمذي صاحب الجامع فى الحديث .

والإمام أبو داود صاحب السنن المنسوبة إليه .

والإمام النسائي صاحب السنن المنسوبة إليه .

والإمام ابن ماجه صاحب السنن . وكلهم من أهل القرن الثالث .

وهذه الكتب الستة هي التي اشتهرت فى الملة والإسلام بالصحة ويأتي بعدها الموطأ ومسند أحمد على خلاف فى ذلك .

وجاء بعد هؤلاء من لا يحصى عددهم من المحدِّثين . ولكثير منهم عشرات المؤلفات .

التفسير — أما التفسير وعلوم القرآن فَرُوِيَتْ أقوالٌ فيه ورسائل منه كثيرةٌ آخر عصر بنى أمية ، ثم أَلَّفَ علماءُ الدولة العباسية فى غريب القرءان ومتشابهه وقراءاته ورسمه وإعجازه كتبا مختلفة القيمة والحجم ،حتى جاء فحل المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ فى أواخر القرن الثالث فجمع كل ما صحت روايته عن رسول الله وأصحابه والتابعين فى تفسيره الكبير ، فكان أول كتاب عظيم صحيح وُضِع فى التفسير بالأثر على مذهب السلف ، وتابعه فى خطته الثعلبى والواحدى ، ومنهم استمد كل ذى تفسير أثرى بعدهم .

علم الكلام — ومن علوم الملة الإسلامية علم الكلام ، وهو يبحث عن إثبات العقائد الدينية بالأدلة العقلية والنقلية من نحو إثبات وجود الخالق وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والثواب بدخول الجنة والعقاب بدخول النار والإيمان بكل ما جاء به القرآن .

وكان الصحابة والتابعون لايخوضون بعقولهم فى هذه العقائد إلى أن فتِحت بلاد الأمم التى لم تكن تدين بالإسلام ، فأسلم كثير منهم رياء ونفاقا ؛ فخاضوا فى العقائد ، وابتدعوا كثيرا من الضلالات والشبه ، ولم يجرءوا على إظهار خبائثهم إلا فى أواخر دولة بنى أمية عند ضعفها ، وفى أوائل الدولة العباسية لتسامحها مع الأعاجم . ولما استفحل أمرهم فى آخر حياة أبى جعفر المنصور أوصى ابنه المهدى ألا تأخذه هوادة فى تتبع أهل الزندقة والإلحاد وقتلهم بعد مناظرتهم ، إن ثبت عليهم كفر وكيد للإسلام ، فكان المهدى بعده يجمعهم مع علماء الدين للمناظرة ، فكانوا لا يقبلون منهم الأدلة النقلية عن القرآن والسنة فاضطروا إلى مناظرتهم بالأدلة العقلية ، واستخدموا المنطق آلة فى الجدل ، وسُمِّىَ علم إثبات العقائد بكلام الناس لا بكلام الله ورسوله (علم الكلام) .

وكان المتكلمون يذهبون الى عِدّةِ مذاهب ، منهم الصفاتية الذين يثبتون لله صفاتٍ غيرذاته الكريمة ، والمعتزلة الذين ينفون هذه الصفات باعتبارها غير صفات البارى و يقولون إنه وصفاته حقيقة واحدة ، وكان هذا هو مذهب الدولة زمنا ، وأولهم واصل بن عطاء أول من اعتزل حلقة الحسن البصرى مخالفا له فى بعض تقريراته ، ومنهم النّظام والجاحظ وأحمد بن أبى دُواد .

وكان بجانب هذين المذهبين مذاهب كثيرة لأصحاب الحديث والشيعة ، إلى أن ظهر إمام المتكلمين أبو الحسن علىّ الأشعرى من سلالة أبى موسى الأشعرىّ ، ووضع مذهبا توسط فيه بين مذهب الصفاتية والمعتزلة وسماه مذهب أهل السنة ، فنسخ هذا المذهب أكثر المذاهب فى الاعتقاد ، وعليه الآن جمهرة المسلمين فى أنحاء الأرض .

وقد ولِد أبو الحسن بالبصرة سنة ٢٧٠ هـ وبها نشأ وتعلم ونشر مذهبه على منبر مسجدها الجامع وتوفى سنة ٣٢٤ هـ .

التأليف فى العلوم اللسانية والنحو — جاءت الدولة العباسية، وقد اشتغل بالنحو من البصريين طبقتان : طبقة أبى الأسود الدؤلى ومعاصريه ، والطبقة الثانية ممن أخذوا عنهم . ومن أشهرهم عيسى بن عمر الثقفى وأبو عمرو بن العلاء ، وقد أدرك هذا عصر الدولة العباسية ، وألف عيسى كتابين مطولين فى النحو هما كتاب الجامع والإكمال ، واشتغل أبو عمرو بكل علوم اللغة مِن نحو ولغة وأدب وإقراء للقرآن على رواية خاصّة به ، وعليه تخرج الخليل بن أحمد مخترِع عِلم العروض وعملِ المعجمات اللغوية ، وسيد أهل الأدب على الإطلاق وشيخ سيبويهِ ، والأصمعى ، وأبى عبيدة ، وأبى زيد الأنصارى .

ولِد الخليل سنة ١٠٠ بالبصرة، وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر، وكان غاية فى تصحيح القياس النحوى وتفريع مسائله ، ولقّن سيبويه تلميذه علمَ

ما صَنَّف مِن كتابه العظيم أصل كل كتاب فى النحو . وبقى الخليل بالبصرة طول حياته مترهدا متعففا حتى مات سنة ١٧٤ هـ .

وأما سيبويه فهو فارسىُّ الأصل لزِم الخليل أكثر أوقاته وجمع من عِلمه أعظم مُصَنَّف فى النحو سُمِّىَ (بالكتاب) وأكثر ما فيه معقود بلفظ الخليل . ولما مات الخليل تَصَدَّرَ للتدريس فكان إمام البصريين ، وذهب إلى بغداد وافدا على البرامكة ، فأخفق فى رِحلته ، فرجع إلى بلدهِ البيضاء بفارس ومات سنة ١٨٠ هـ وسنه نيّف وأربعون سنة وروَى عنه تلميذه الأخفش كتابه وشرحه ، وبه انتشر فى الدنيا .

وأما الأصمعى فلم يقتصر على النحو وكان أكثر اشتغاله بالأدب والأخبار والملح والطرائف ، فأصبح بها مؤدبا ومسامرا فى دارِ الخلافة زمن الرشيد وحاز ثروة عريضة ، ومات عن سِنٍّ عالية سنة ٢١٦ هـ وله من العمر ١٠٧ سنة .

وتلت طبقة سيبويه والأصمعى عدة طبقاتٍ من النحاة البصريين .

أما النحاة الكوفيون فأوّل طبقةٍ منهم طبقة معاذ الهرّاء واضع علم الصرف . وتقابِل الطبقة الثانية مِن البصريين ، ومن أشهر أئمتهم الكسائِى مؤدب الأمين فى النحو وتلميذه الفراء . وطبقاتهم متعددة كالبصريين . وبين نحاة البصريين ونحاة الكوفيين فروق فى وجوه القياس النحوى ، أهمها : أن البصريين يقدمون السماع على القياس ، ولا يروون إلا عن فصحاء الأعراب الذين يثقون بفصاحتهم

ولما زخرت بحور العلم ببغداد سكنها كثير من نحاة البصرة والكوفة واشتركوا فى تأديب أولاد الخلفاء والوزراء والقواد ودارت بين الفريقين مناظرات ومناقضات فى مجالسهم وفى المساجد فتولّد من المذهبين مذهب ثالث فى النحو سمى مذهب البغداديين .

اللغة — ولم يكن لِمُريد تعلم اللغةِ العربية الفصيحة من المُولَّدين والأعاجم طريقٌ لمعرفة ألفاظها إلا حفظ القرءان والحديث وشعر العرب ومشافهة الأعراب؛ فوضع بعض العلماء فى كل منها كتبا تفسر غريبها ، ثم خطرت لِعلماء اللغة فكرةٌ أخرى لِضبط مفردات اللغة بشكل مُفَصَّلٍ مُبَوَّبٍ ، فوضعوا فى كل موضوع من الموضوعات التى تناولها الشعراء والكتّاب رسائل تجمع الألفاظ الخاصّة بها وسَمَّوْها باسم موضوعها ؛ فقالوا كتاب خَلْقِ الإنسان — كتاب الخيل — كتاب الإبل — كتاب البخل والكرم — كتاب السَّرْج واللجام . الى أن ظهر ببغداد كتابٌ نُسِبَ إلى الخليل بن أحمد بعد موته بنحو أربعين سنة بشكل معجم رتبت الكلمات فيه على حسب مخارج الحروف من الفم فيبتدئ بحروف الحلق ويختم بحروف الشفتين ، وبدئ فيه بحرف العين ، فسمى كتابَ العين . إلا أن ما وقع فيه من الخلط والخطأ الصرفى جعل كثيرا من العلماء ينكرون نسبته إلى الخليل . والظاهر أن الخليل وضعه لأحد تلاميذه فى آخر حياته، ولم يتمه، فسافر به إلى خراسان وأتمه مِن عنده ثم نُقِلَ بعد حينٍ إلى بغداد . ولكنه على أى حال وَلَّدَ فى العلماء فكرة عمل المعجمات المرتبة بترتيب الحروف فألف ابن دُرَيْد فى أواخر هذا العصر كتاب جمهرة اللغة ورتبه على ترتيب حروف المعجم ، فابتدأ بالألف ثم الباء ثم التاء الخ . وأدرك عصره الأزهرى فألف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل ، ثم وُضِع بعد ذلك فى العصر الثانى الصحاح للجوهرى والمحكم لابن سيده من العلماء الأندلسيين وهذه هى أصول معجمات اللغة وما سواها بجمع لها أو اختصار منها .

العروض والقافية — وللخليل جزيل الفضل على العرب والعربية بضبطه أوزان الشعرِ العربىّ حِفظَه بذلك من الاختلال والضياع . وقد اخترع هذا العلم اختراعا جملة واحدة ، وحصر فيه أوزان الشعر فى خمسة عشر بحرا ، وزاد عليه الأخفش بحرا واحدا .

أما القافية فقد سبقه بعض العلماءِ بالتكلم فيها إلا أنه هو أول من فصَّل الكلام فيها .

فن الأدب — هو مدارسة الكلام العربىّ من قرءان وحديث وشعر ونثر لتهذيب النفس بما فيه وإشعارِها بجمال اللغة . وكانت كتبه فى أوّلِ هذا العصر تبحث فى بعض الأغراض الخاصة كرسائل ابن المقفع وكتاب كليلة ودمنة وكتاب الشعر والشعراء لأبى عبيدة وكتاب الأراجيز للأصمعى ، وأوّلُ كتابٍ جامع لفنونٍ كثيرة منه هو كتاب البيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب المنظوم والمنثور لتلميذه أحمد بن طيفور فى أربعة عشر مجلدا ، ثم كتاب الكامل والروضة للمبرد ، ثم تتالت كتب الأدب كبيرةً وصغيرة .

التأليف فى فنى التاريخ والجغرافية — أخذ العلماء منذ صدر الدولة العباسية يبحثون فى التاريخ من نواحٍ شتى لارتباطه بروايةِ السنة وجباية الخراج وسياسة الملك كفنّ السِّيَر والمغازى . وأوّلُ مَن ألف فيها محمد بن اسحق . وفن [فتوح] البلدان ، وأشهر من ألف فيه الواقدى والمدائنى وأبو مِخْنَف . وفنّ طبقاتِ الرجال ، وأشهر علمائه القدماء ابن سعد كاتب الواقدى والبخارى . وفنّ النسب ، وأشهر علمائه الكلبى وابنه . وفنّ أخبار العرب وأيامها ، وأشهر علمائه أبو عبيدة والأصمعى . وفن قِصص الأنبياء ، وكتب فيه كثيرون . وفنّ التاريخ العام السياسى الخاص بأعمال الدول ، ومن أقدم كتبه المطبوعة تاريخ ابن واضح اليعقوبى ، ومن أكبرها تاريخ محمد بن جرير الطبرى رتب حوادثه على السنين الهجرية .

أما الجغرافية المفسَّرة بلفظ (وصفِ الأرض) فإن العرب فى الجاهلية كانوا يعرِفون مِن وصف بلادهم ومواطنهم ما لا تعرفه أى امة من وصف بلادها ، يعرف ذلك من اطلع على وصفهم المنازل والقفار فى شعرهم . ولما جاء الإسلام وامتدت فتوحهم من حدود الصين والهند إلى المحيط الأطلنتى وترددت جيوشهم وقوافلهم

فى هذا الملك العريض تعرفوا طرقه ومسالكه وأنشئوا طرقا جديدة أصيلة ، وكانوا يسمون هـذا الفن بعِلم المسالك والممالك ، وهو الجغرافية الوصفية التخطيطية . ولكن الجغرافية الرياضية الباحثة فى شكل الأرض وعلاقتها بغيرها من الكواكب، فقد نقلوه فى صدر الدولة أولا عن الهنود فى كتاب السندهند الذى نقله عن الهندية محمد بن إبراهيم الفزارى زمن المنصور، وثانيا عن اليونان القدماء فى عدة كتب أخصها كتاب المجسطى لبطليموس الذى نقله الحجاج بن مطر للمأمون ، وصحح العرب كثيرا من أغلاطه زمن المأمون وبعده . وحققوا من ذلك الحين كُرَوِيَّة الأرض ومحيطها ودرجاتها ومقدار الدرجة الأرضية[٢].

ونبغ فى الجغرافية بعد عصر المأمون أبو القاسم عبد الله بن أحمد بن خرداذبة، وكان واليا على البريد والخَبَر بنواحى جبال طبرستان ، ثم نادم الخليفة المعتمد ، واختص به ، وله فى الجغرافية كتاب المسالك والممالك ، وهو مشهور .

وغبَرَ العلماء بقية هـذا العصر الأول يحققون ويصححون هـذا الكتاب ، ثم تبحروا فى الجغرافية الرياضية فى العصر العباسى الثانى[١]؛ ولكن معارفهم كانت قد اتسعت كثيرا فى الجغرافية التخطيطية فى العصر الأول .

لمحة فى الترجمة والمترجمين — لم يصح عن العرب زمن الدولة الأموية أنهم ترجموا من كتب الأوائل إلا كناش أهرون فى الطب ترجمها ماسَرْجَوَيْه طبيب مروان بن الحكم ، وأذاعها عمر بن عبد العزيز فى الناس[٢]. ولكن العرب والمستعربين والمسلمين كافة أصبحوا فى زمن الدولة العباسية بحاجة إلى الانتفاع بحضارات الأمم الغابرة وصناعاتهم ؛ فرغب الخلفاء العباسيون الأولون فى ترجمة السياسة والطب والرياضيات والفلك والتنجيم . فترجم ابن المقفع للمنصور كثيرا من كتب الفرس فى السياسة وتدبير الملك والآداب وسير الملوك وترجم كتبا يونانية كانت نُقِلت زمن كسرى أنو شروان إلى الفارسية فى المنطق والفلسفة . واستقدم المنصور بختيشوعَ الكبير رئيس أطباء جنديسابور وابنه ونَوْبَخْت وابنَه أباسهل،

والبطريق فترجموا له كثيرا من كتب الطب والحكمة والفلك والسياسة ، ثم فترت الترجمة بعد المنصور إلى أن أحياها البرامكة والرشيد، فحثوا العلماء على ترجمة كتب كثيرة ، وصححوا بعض ما تُرجِم زمنَ المنصور .

ثم نهضت الترجمة فى عصر المأمون نهضة أتت على أكثر ماعُثِر عليه من كتب اليونان، ومابقى من كُتُب النبط ، وما وصل إليهم من كُتُب الهند والفرس ، وأكملوا تصحيح ما تُرْجِمَ من قبل ، وبعث المأمون إلى القسطنطينية بعثا يحذقون اليونانية ويختارون ما يرونه صالحا للنقل إلى العربية، وكان منهم الحجاجُ بن مَطَر وسَلْمٌ صاحبُ بيت الحكمة ، وابن البطريق ، وحُنَيْن بن اسحق . فاختاروا كتبا كثيرة حملوها إلى بغداد وترجموها ، وتعلّمها الناسُ منهم . ونشأت طائفة من الأطباء والفلكيين والرياضيين استقلوا ببحوثهم ، فوصلوا إلى مرتبة النبوغ فى هـذه العلوم ، ومنهم بنو موسى بن شاكر محمد واحمد والحسن أشهر رياضيّي هذا العصر ، وأوَّلُ مَنْ أَلَّفَ فى علم الحيل والآلات من المسلمين (الميكانيكا) . ومحمد بن موسى الخوارزمى واضع علم الجبر ومذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب . وفيلسوفُ العرب والإسلام أبو يوسف يعقوب الكندىّ وتلميذه أحمد بن الطيب السَّرْخَسِيّ وغيرهم . ولم ينته هذا العصرُ حتى أصبحت هـذه العلوم ملكة راسخة فى أهل الملة الإسلامية ، وامتزجت بحياتهم وأدبهم وبحثهم ، ونبغ فيهم الطبيب الكيميائى الأكبر أبو بكر محمد بن زكريا الرازى المتوفى سـنة ٣١١ هـ والمعلم الثانى أبو نصر الفارابى وأدرك العصر العباسى الثانى ، وعاش فيه دهرا ، وسيذكر بعدُ .

ومن أشهر المترجمين بعد عصر المأمون أبو بشر متا بن يونس وثابت بن قُرّة الصابئ وأبو عثمان الدمشقى .

ومن أشهر الكتب التى ترجمت أو وضعت فى الفلك كتاب السند هند (أى الدهر الداهر) ترجمه من الهندية كما تقدم محمـد بن ابراهيم الفزارى العربى الصميم ، وبقى هذا الكتاب معمولا به إلى زمن المأمون .

وكتاب زيج الخوارزمى وضعه أبو جعفر بن موسى الخوارزمى مؤلفا من السند هند ومن أرصاد فارسية ومن أعماله هو، وجرى عليه العمل إلى أواخر الدولة العباسية .

وكتاب المجسطى لبطليموس ترجمه كثير ، وصحح المأمون كثيرا من حسابه وأقيسته لمحيط الأرض والدرجة الأرضية فكان أرصادُ علمائه أولَ أرصاد فى الإسلام، وسَمَّوْا مجموعَ أرصادهم الرصدَ المأمونى، وبقى كتابهم معمولا به فى الفلك والجغرافية الرياضية والمصورات الأرضية زمنا طويلا .

وزيج البتّانى وهو من أشهر كتب الأرصاد .

ومن أشهر كتب الطب التى ترجمت :

كتب بقراط وجالينوس .

وكتاب التذكرة لبختيشوع عمله لابنه جبريل .

وكتاب الحاوى من أكبر كتب الطب بأنواعه لأبى بكر الرازى .

ومن أشهر كتب الرياضة :

كتاب الجبر للخوارزمى وهو واضعه .

كتاب حيل بنى موسى (الميكانيكا) .

كتاب هندسة أقليدس ترجمه مرارا .

تم طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأميرية ببولاق
فى يوم ١٤ جمادى الثانية سنة ١٣٥٥
(أول سبتمبر سنة ١٩٣٦) م
مدير المطبعة الأميرية
محمد أمين بهجت

المطبعة الأميرية ٤٤٢٤ س ١٩٣٦ - ٢١٥٥